بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة الأعراف

فوائد – منوعات – فضائل – أقوال

تفسير مجمع من : تفسير الطبري – تفسير ابن كثير – تفسير القرطبي – تفسير فتح القدير
تفسير السعدي – تفسير أضواء البيان – تفسير ابن عثيمين وغيرها من الكتب

جمع وإعداد
سليمان بن مُحَمَّد اللهيميد
السعودية – رفحاء
الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين
www.almotaqeen.net

كانت البداية بفضل الله : الأحد / ١٧ / ٨ / ١٤٣٥هـ

مقدمة

- سورة الأعراف هي السورة السابعة في الترتيب المصحفي ، وهي أطول سورة مكية في القرآن الكريم ، وعدد آياتها ست ومائتا آية.
- وهي سورة مكية .
- ومناسبتها لسورة الأنعام التي قبلها أن سورة الأعراف تعتبر كالتفصيل لها ، فإن سورة الأنعام قد تكلمت عن أصول العقائد وكليات الدين كلاماً إجمالياً ، ثم جاءت سورة الأعراف فكانت كالشرح والتفصيل لذلك الإجمال ، خصوصاً فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم وبعثة النبي ﷺ .
- **مقاصدها ومميزاتها** : وقد اشتملت سورة الأعراف على المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها السور المكية ، كإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وعلى صدق رسوله مُحَمَّد ﷺ وعلى أن يوم القيامة حق .. إلخ.

والذي يتأمل هذه السورة الكريمة يراها تهتم بعرض الحقائق في أسلوبين بارزين فيها ، أحدهما أسلوب التذكير بالنعم ، والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنقم.

أما أسلوب التذكير بالنعم فتراه واضحاً في لفتها لأنظار الناس إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم في الأرض ، ونعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما في هذا الكون من خيرات سخرها الله له.

(المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)) .

[الأعراف : ١- ٢] .

(**المص**) هذه تسمى الحروف المقطعة .

قيل : أن هذه الحروف أسماء للسور .

وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

وقيل : إنها اسم الله الأعظم ، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال .

وقيل : هي ما استأثر الله بعلمه .

وقيل : هي حروف هجائية ليس لها معنى ، **ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين** وقال : وحجة هذا القول : أن القرآن نزل بلغة العرب ، وهذه الحروف ليس لها معنى في اللغة العربية .

وأما الحكمة منها : فأرجح الأقوال أنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم ، **ورجح هذا القول ابن كثير** في تفسيره فقال :وقال آخرون إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وإليه ذهب الشيخ أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية .

وقد رجح هذا الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان حيث قال بعد أن ذكر الخلاف : أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو : أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله .

وقال في تفسير سورة الأعراف : والقول الذي دل عليه استقراء القرآن هو قول بعض العلماء: إن المراد بالحروف المقطعة في أوائل

السور: إظهار إعجاز القرآن، فكأن الله يقول للبشر (المص) هذه حروف من الحروف المتداولة بين أيديكم تركبون منها كلامكم، فلو كان هذا الكلام من عند غير الله وهو مُؤلَّف من حروفكم المتداولة بين أيديكم لكنتم تقدرون على تأليف مثله، فَلِما عَجَزْتُم عن تأْلِيف مثله وهو من الحروف المعْرُوفة لَدَيْكُمْ مركب منها، عرفنا بذلك أنه تنزيل من حكيم حميد لا مِنَ البَشَرِ.

ووجه الاستقراء الذي دل على هذا القول: أن الله في جميع القرآن في جميع السور المبدوءة بحروف مقطعة لم تُذكر منها سورة واحدة إلا وجاء بعدها التنويه بشأن القرآن والرفع من شأنه، فدل هذا على هذا، ولم يخلُ من هذا في سائر القرآن إلا سورتان: سورة مريم، وسورة القلم، أما غير ذلك فلا تُذكر الحروف المقطعة إلا ذُكر بعدها التنويه بشأن القرآن والرفع من أمرِه.

قال في البقرة (الم) فأتبعه بقوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِين) .

وقال في آل عمران (الم . الله لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فأتبعه بقوله (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) .

وقال هنا في الأعراف (المص) ثم أتبعه بقوله (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ) .

وقال في سورة يونس (الر) ثم أتبعه بقوله (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) .

وقال في سورة يوسف (الر) ثم قال (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبين) .

وقال في الرعد (المر) ثم قال (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ) .

وقال في سورة الخليل (الَر) ثم قال (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) .

وقال في سورة الحجر (الَر) ثم قال (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ) وهكذا في سائر القرآن إلا في سورة مريم والقلم . (العذب النمير) .

ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فقال بعدما رجح هذا القول : ... أن هذا القرآن لم يأت بكلمات ، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر ، وإنما هي من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر ، ومع ذلك فقد أعجزهم .

- **وأما قول** من قال إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور ، **فهذا ضعيف** ، لأن الفصل حاصل بدونها .
- **وقول من قال** : بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذا تواصوا بالإعراض عن القرآن إذا تلا عليهم ، وهذا ضعيف ، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها .
- عدد هذه الحروف المقطعة (١٤) حرفاً يجمعها قولهم : نص حكيم قاطع له سر
- افتتح الله عز وجل (٢٩) سورة بالحروف المقطعة .

(**كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ**) أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك ،

- **قال السعدي** : يقول تعالى لرسوله مُحَمَّد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ) أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً .
- وسمي القرآن كتاباً :

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ : كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) .

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة : قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا ، ونقرؤه من هذه الكتب .

- وإنما قيل : أُنْزِلَ ولم يقل أنزله الله وأنزلناه ، للإيذان بأن المنزل مستغن عن التعريف لشرفه وغاية ظهوره.

(**فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ**) في تفسير الحرج قولان :

الأول : الحرج الضيق ، والمعنى : لا يضيق صدرك بسبب أن يكذبوك في التبليغ.

• **قال الشنقيطي** : وجمهور العلماء : على أن المراد بالحرج في الآية الضيق ، أي لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك ، لأن تحمل عداوة الكفار ، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر ، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر. وقد قال ﷺ (إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة) أخرجه مسلم. والثلغ : الشدخ وقيل ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر.

ويدل لهذا الوجه في الآية قوله تعالى (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ) ، وقوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) ، وقوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً) وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) .

ويؤيده : أن الحرج في لغة العرب: الضيق، وذلك معروف في كلامهم ، ومنه قوله تعالى (لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ)، وقوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ) ، وقوله (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) أي : شديد الضيق إلى غير ذلك من الآيات .

والثاني : (فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مّنْهُ) أي : شك منه ، أي لا يكن في صدرك شك في كون هذا القرآن حقاً ، وعلى هذا القول فالآية ، كقوله تعالى (الحق مِن رَّبّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين) وقوله (الحق مِن رَّبّكَ فَلاَ تَكُنْ مّن الممترين) ، وقوله (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين) .

والممتري : هو الشاك. لأنه مفتعل من المرية وهي الشك ، وعلى هذا القول فالخطاب للنبي ﷺ .

والمراد نهى غيره عن الشك في القرآن . (أضواء البيان) .

• وعلى القول الثاني : فالخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره.

كقوله (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين) .

(**لِتُنذِرَ بِهِ**) أي: أنزل إليك لتنذر به الكافرين .

• **قال الشنقيطي** : لم يبين هنا المفعول به لقوله النذر، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله (وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّا)، وقوله (لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ) إلى غير ذلك من الآيات.

• الإنذار : هو الإعلام المقرون بالتخويف .

(**وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**) يتذكرون به ويتعظون .

• والذكرى : هي الاتعاظ ، لأن المؤمنين يذكرهم فتنفعهم الذكرى ، قال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) .

• **قال الشنقيطي** : وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله (لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ) فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً) وقوله (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين) وقوله (فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيد) .

ولا ينافي ما ذكرنا من أن الإنذار للكفار ، والذكرى للمؤمنين. أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) . لأنه ملا كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم ، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم ، لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم.

ومن أساليب اللغة العربية : التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

الفوائد :

١- إعجاز القرآن ، فإنه مكوّن من جنس الحروف التي يتألف منها سائر الكلام ، وقد عجزت العرب أن يأتوا بسورة مثله .

٢- أن من أسماء القرآن الكتاب .

٣- تشريف وتعظيم للقرآن .

٤- أن القرآن منزل غير مخلوق .

٥- إثبات علو الله تعالى .

٦- أن القرآن منزل على مُحَمَّد ﷺ .

٧-أن النبي ﷺ عبد مربوب يوجه إليه الأوامر من ربه .

٨-على المسلم أن ينشرح قلبه لما في القرآن .

٩- عدم الخوف من تكذيب المكذبين .

١٠- عناية الله بنبيه ﷺ وتثبيته .

١١-أن النبي ﷺ منذر للجميع .

١٢-أن القرآن ذكرى يتذكر به من يؤمن به .

(اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)) .

[الأعراف : ٣] .

(**اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**) أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كلّ شيء ومليكه،

- فإن قيل : لماذا قال : (أُنزِلَ إِلَيْكُمُ) وإنما أنزل على الرسول.

قلنا : إنه منزل على الكل بمعنى أنه خطاب للكل.

- **قال أبو حيان** : لما ذكر تعالى أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتّباعه وما أنزل إليكم يشمل القرآن والسنة لقوله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) .

(**وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء**) أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره.

(**قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**) أي : تتذكرون تذكراً قليلاً ، قال الخازن : أي ما تتعظون إلا قليلاً .

كقوله (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقوله (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وقوله: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

الفوائد :

١- وجوب اتباع القرآن والعمل به .

٢-أن القرآن منزل من الله .

٣- تحريم تحكيم غير شرع الله .

٤-إثبات الربوبية العامة لله تعالى .

٥-تحريم اتباع غير القرآن من الشياطين والأحبار والرهبان .

٦-سنة الله في أن من يتبع الحق هو الأقل .

(**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (٧)**) .

[الأعراف : ٤ – ٧] .

(**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**) أي : وكثير من القرى أهلكناها ، والمراد بالقرية أهلها .

- **قال ابن الجوزي** : (كم) تدل على الكثرة ، و"رب" موضوعة للقلة.
- وإهلاك القرى بسبب ظلمهم وكفرهم ، كما قال تعالى (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) .
- **قال الرازي** : قيل : في الآية محذوف والتقدير : وكم من أهل قرية ويدل عليه وجوه :

أحدها : قوله (فَجَاءهَا بَأْسُنَا) والبأس لا يليق إلا بالأهل.

وثانيها : قوله (أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) فعاد الضمير إلى أهل القرية.

وثالثها : أن الزجر والتحذير لا يقع للمكلفين إلا بإهلاكهم.

ورابعها : أن معنى البيات والقائلة لا يصح إلا فيهم.

- **قال ابن عاشور** : وإنّما خُصّ بالذّكر إهلاك القرى ، دون ذكر الأمم كما في قوله (فأمّا ثمود فأهلكوا بالطّاغية وأمّا عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) ، لأنّ المواجهين بالتّعريض هم أهل مكّة وهي أمّ القرى ، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها ولأنّ تعليق فعل (أهلكنا) بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشّمول ، والإهلاك : الإفناء والاستئصال.

(**فَجَاءهَا بَأْسُنَا**) أي : عذابنا .

- **فإن قيل** : إنما أتاها البأس قبل الإهلاك ، فكيف يقدَّم الهلاك؟ فعنه ثلاثة أجوبة.

فقيل : الفاء بمعنى الواو ، فلا يلزم الترتيب.

وقيل : أي وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا ؛ كقوله (فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم) .

وقيل : إن الهلاك واقع ببعض القوم ؛ فيكون التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع.

وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا.

وقيل : أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها ، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال.

والبأس : العذاب الآتي على النفس.

وقيل : المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم في وقت كذا ؛ فمجيء البأس على هذا هو الإهلاك.

(**بَيَاتًا**) أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته (بَيَاتًا) أي: ليلاً .

(**أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ**) من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غَفْلة ولَهْو .

كما قال تعالى (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُون . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) .

وقال (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِين * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

- **قال ابن عطية** : وإنما خص وقتي الدعة والسكون لأن مجيء العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيه من البغت والفجأة .
- ومن العبر التي نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل هو الذي يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهي ، ولا يأمن صفو الليالي ، ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ.
- **مباحث :**

أولاً : أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى .

قال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً) .

وقال تعالى (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً) .

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) .

ثانياً : أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم .

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ) .

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً) .

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) .

ثالثاً : أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل .

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) .

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) .

رابعاً : أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ .

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) .

خامساً : أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

سادساً : أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

(**فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**) أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا .

(**إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**) أي : أنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد ، وتكذيب الرّسل ، والإعراض عن الآيات ، وصم الأذان عن الوعيد والوعظ ، وذلك يجمعه الإشراكُ بالله ، قال تعالى (إنّ الشرك لظلم عظيم) ، وذلك موضع الاعتبار للمخاطبين بقوله (ولا تتبعوا من دونه أولياء)

كما قال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً . وَأَنْشَأْنا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِين) .

- **قال ابن جرير** – رحمه الله – في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم " حدثنا بذلك ابن حميد. حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد الله بن مسعود : قال رسول الله ﷺ (ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم) قال : قلت لعبد الله كيف يكون ذلك؟ قال : فقرأ هذه الآية (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلاَّ أَن قالوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) .
- **قوله تعالى** (**فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ** ...) أي : فما كان دعاء أهل القرية التي جاءها بأسنا .
- والدعوى هنا بمعنى الدعاء ، ورجحه الطبري ، وقيل : بمعنى الادعاء .
- **قال القرطبي** : الدعوى الدعاء ، ومنه قوله (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ) ، وحكى النحويون : اللهم أشركنا في صالح دعوى من دعاك. وقد تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء.
- **قال ابن عطية** : ويتوجه أن يكون أيضاً بمعنى الادعاء ، لأن من ناله مكروه أو حزبه حادث فمن شأنه أن يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاء المذكورين في هذه الآية ، ومن شأنه أيضاً أن يدعي معاذير وأشياء تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه ، فيتجه أن يكون هؤلاء بحال من يدعي معاذير ونحوها .

(**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ**) أي : لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتم ؟ والمقصود من هذا السؤال التقريع والتوبيخ للكفار ؟

- كقوله تعالى (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) وقوله (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ) فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به .
- **قال الرازي** : ولقائل أن يقول : المقصود من السؤال أن يخبر المسؤول عن كيفية أعماله ، فلما أخبر الله عنهم في الآية المتقدمة أنهم يقرون بأنهم كانوا ظالمين ، فما الفائدة في ذكر هذا السؤال بعده ؟ وأيضاً قال تعالى بعد هذه الآية (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ) فإذا كان يقصه عليهم بعلم ، فما معنى هذا السؤال ؟

والجواب : أنهم لما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين ، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير ، والمقصود منه التقريع والتوبيخ.

- **وقال القرطبي** : وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح.

(**وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**) أي : ولنسألن الرسل أيضاً هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ؟

فالله يسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ) .

- **وقال ابن الجوزي** : قوله تعالى (فلنسألنَّ الذين أُرسل إليهم) يعني : الأمم يُسأَلون : هل بلَّغكم الرُّسُلُ ، وماذا أجبتم؟ ويسأل الرسل : هل بَلَّغتم ، وماذا أُجبتم ؟
- **قال أبو حيان** : : سؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالاً وعذاباً ، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثواباً .
- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) .

هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وقوله (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ) ، وقوله (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) .

وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) وكقوله (وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) .

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبا (لم) ، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام ، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ، مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ) .

وكقوله (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ) .

وكقوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) .

وكقوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) إلى غير ذلك من الآيات ، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه ، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: (مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) والعلم عند الله تعالى.

(**فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ**) أي : سنخبرهم بما عملوا في يوم الحساب ، والقص الإخبار .

- يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون .

(**وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ**) يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحَقِير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (فلنقصنَّ عليهم) أي : فلنُخبرنَّهم بما عملوا بعلم منا (وما كنا غائبين) عن الرسل والأمم.
- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا ، وأخبرهم بأنه جل وعلا لم يكن غائباً عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا ، بل هو

الرقيب الشهيد على جميع الخلق ، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير ، وجليل وحقير ، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

وقوله (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) .

وقوله (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) .

الفوائد :

١- أن الله أهلك كثيراً من الأمم والقرى .

٢- عظمة الله .

٣- قوة الله وشدة بطشه .

٤- أن الذنوب والتكذيب سبب لهلاك القرى .

٥-خطر الذنوب والمعاصي .

٦-يجب على العبد أن يحذر أن يصيبه ما أصاب القرى المكذبة .

٧-الحذر من الأمن من مكر الله تعالى .

٨- حكمة الله في تنويع أوقات العذاب على المكذبين .

٩-أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

١٠-خطر الظلم .

١١-أن الاعتراف والتوبة بعد حلول العذاب لا ينفع قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

١٢-إثبات الحساب والجزاء يوم القيامة .

١٣- عموم علم الله تعالى .

١٤-أن الله لا يغيب عنه شيء لكمال علمه .

١٥-الحذر من معصية الله وحربه ، فإن الله لا تخفى عليه خافية .

١٦-الحذر من أمراض القلوب كالرياء والنفاق ، فإن الله عليم بذات الصدور .

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨))) .

[الأعراف : ١٦-١٨] .

(**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي**) يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس (إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) .

وفي معنى هذا الإغواء قولان.

أحدهما : أنه بمعنى : الإضلال ، قاله ابن عباس ، والجمهور. (أي : كما أضللتني) .

والثاني : أنه بمعنى : الإهلاك ، ومنه قوله (فسوف يلقون غياً) أي : هلاكاً ، ذكره ابن الأنباري.

- **قال الشوكاني** : والباء في (فبِمَا) للسببية ، والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها.

وقيل : الباء للقسم كقوله (فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) أي فبإغوائك إياي (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم) ، والإغواء : الإيقاع في الغيّ.

وقيل : الباء بمعنى اللام ، وقيل : بمعنى مع.

والمعنى : فمع إغوائك إياي.

(**لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**) أي : لأقعدن لعبادك –الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه –على (صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

- **قال الرازي** : المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ، ولهذا المعنى ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

عن سَبْرَة بن أبي فَاكِه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟". قال: "فعصاه وأسلم". قال: "وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطّوَل؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟". قال: فعصاه، فجاهد. قال رسول الله ﷺ : "فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله، عز وجل، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة) رواه مسلم .

- **قال الرازي** : الباء في قوله (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) فيه وجوه :

الأول : إنه باء القسم أي بإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم أي ، بقدرتك علي ونفاذ سلطانك في لأقعدن لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة ، بأن أزين لهم الباطل ، وما يكسبهم المآثم ، ولما كانت (الباء) باء القسم كانت (اللام) جواب القسم (وَمَا) بتأويل المصدر و(أَغْوَيْتَنِي) صلتها.

والثاني : أن قوله (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) أي فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم ، والمراد إنك لما أغويتني فأنا أيضاً أسعى في إغوائهم.

(**ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ**) فيه تأويلات :

أحدها : (مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) أي أشككهم في آخرتهم ، (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) أرغبهم في دنياهم ، (وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ) : أي من قبل حسناتهم ، (وَعَن شَمَآئِلِهِم) من قبل سيئاتهم ، قاله ابن عباس.

والثاني : (مِنّ بَيْنِ أيْدِيهِمْ) : من قبل ، دنياهم ، (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) : من قبل آخرتهم ، (وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ) : الحق أشككهم فيه ، (وَعَن شَمَآئِلِهِم) : الباطل أرغبهم فيه ، قاله السدي وإبراهيم.

والثالث : (مِنّ بَيْنِ أَيْدِيهِم) (وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ) من حيث ينظرون ، (وَمِنْ خَلْفِهِم) (وَعَنْ شَمَائِلِهِم) : من حيث لا يبصرون ، قاله مجاهد.

ويحتمل تأويلاً رابعاً (مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم) : فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون على طاعة ، (وَمِنْ خَلْفِهِم) : فيما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عن معصية ، (وَعَنْ أَيْمَانِهِم) : من قبل غناهم فلا ينفقونه في مشكور ، (وَعَن شَمَائِلِهِم) : من قبل فقرهم

فلا يمتنعون فيه عن محظور.

- **قال أبو حيان** : الظاهر أنّ إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له والجدّ في إضلاله من كل وجه يمكن ولما كانت هذه الجهات يأتي منها العدوّ غالباً ذكرها لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقة .

واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يُحببه لهم حيث قال : وأولى الأقوال عندي بالصواب ، قول من قال : معناه ، ثم لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل ، فأصدهم عن الحق ، وأحسّن لهم الباطل .

(**وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**) أي: مطيعين مستعملين لقواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم في طريق الطاعة والتقرب إلى الله.

قال ابن عاشور : قوله تعالى (ولا تجد أكثرهم شاكرين) زيادة في بيان قوّة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلاّ القليل من النّاس ، وقد عَلِم ذلك بعلم الحدس وترتيب المسبّبات.

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) .

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها .

وقد جاء النهي عن تتبع خطوات الشيطان .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (ومِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

وهو معلل بعلل جاءت في قول الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ) .

وفي قوله تعالى (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُون) .

- فيجب الحذر من خطوات الشيطان لأنه عدو ظاهر مبين لنا .

فهو يحب أن يحزن المؤمن كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وأحب شيء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه .

- وهو يخوف المؤمنين بالأعداء .

كما قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي : يخوفكم بأوليائه .

- ويخوف بالفقر .

كما قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) فيخوف المسلم من الفقر وذلك لأمور : **أولاً** : ليُمسك عن الصدقة فيحرمه أجرها وثوابها العظيم ، **ثانياً** : ليصيبه بالقلق والحزن ، **ثالثاً** : ليشك بوعد الله : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، **رابعاً** : ليقدم على أكل الحرام خوفاً من الفقر كما قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان

انه لكم عدو مبين) .

- ويحث على الرياء في الإنفاق والتبذير .

قال تعالى (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قريناً) .

وكما قال تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً) .

- ومن أعماله : الدعوة إلى الكفر والارتداد عن الدين .

كما قال تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العلمين) .

وقال تعالى عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) .

وقال تعالى (ألم اعهد إليكم يا بني ادم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) .

وقال تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملي لهم) .

- ومن أعماله : زرع العداوة والبغضاء بين الناس .

كما قال تعالى (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين امنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

وقال تعالى (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون) .

وقال تعالى عن يعقوب (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين) .

وقال تعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً) .

- ومن تزيينه تسمية المعاصي بأسماء محببة لكي يخفي خبثها .

كما قال لآدم (هل أدلك على شجر الخلد وملك لا يبلى) .

قال ابن القيم : وقد ورّث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تُحِبُ النفوسُ مسمياتها ، فسموا الخمر بأم الأفراح .

وفي عصرنا يسمون الربا بالفائدة ، والتبرج الفاضح بحرية المرأة ، والمغنية الفاسقة بالفنانة .

- عقبات الشيطان :

العقبة الأولى : عقبة الكفر بالله تعالى .

فإنه إن ظفر في هذه بة بردت نار عداوته واستراح .

العقبة الثانية : عقبة البدعة .

إما باعتقاد خلاف حق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه ، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله .

فإن نجا منها بنور السنة :

العقبة الثالثة : عقبة الكبائر .

فإن ظفر به فيها زينها له ، وحسنها في عينه ، وسوّف به .

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح طلبه على :

العقبة الرابعة : عقبة الصغائر .

فكان له منها بالقُفز ، وقال : ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم ، أوَما علمت بأنها تكفّر باجتناب الكبائر وبالحسنات ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها ، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه .

العقبة الخامسة : عقبة المباحات التي لا حرج على فعلها .

فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ، وأقل ما ينال منه : تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية .

العقبة السادسة : عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات .

فأمره بها وحسنها في عينه ، وزينها له ، وأراه ما فيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسباً وربحاً ؟ [مدارج السالكين : ١ / ٢٣٧] .

- النجاة من مكايد الشيطان :

أولاً : الإخلاص لله تعالى .

قال تعالى (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

وقال تعالى (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

ثانياً : الإيمان بالله والتوكل .

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون) .

ثالثاً : كثرة السجود .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي – أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّار) رواه مسلم .

ثالثاً : قراءة القران: لأن قراءته منفرة للشياطين .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ) .

ويأتي الشيطان للإنسان في صلاته وتلاوته للقرآن .

(**مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا**) قال ابن جرير: أما "المذؤوم" فهو المعيب، والذّأم غير مشدَّد: العيب. يقال: "ذأمه يذأمه ذأماً فهو مذءوم". ويتركون الهمز فيقولون: "ذمْته أذيمه ذيما وذَاما، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم".

قال: "والمدحور" : المُقْصَى. وهو المبعد المطرود.

(**لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ**) كقوله (قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً) .

وكما قال تعالى (قَالَ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) .

الفوائد :

١- شدة عداوة الشيطان للإنسان .

٢-أنه كلما كان الإنسان أكثر اهتداء كان الشيطان أحرص على إغوائه .

٣-وجوب التمسك بالصراط المستقيم .

٤-فضل طلب العلم ، حيث أن من طلب العلم عرف الشيطان ومداخله ، وفضل معاداته ومغايظته .

٥-وجوب الحذر من مكايد الشيطان .

٦-مكر الشيطان بأكثر الناس ، حيث أن القليل من الناس من يشكر .

٧-فضل الشكر وعلو منزلة عبادة الشكر .

٨-مصداق لقوله تعالى (وقليل من عبادي الشكور) .

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)) .

[الأعراف : ١٩- ٢٣] .

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة.

- اختلق العلماء في الجنة التي أسكنها آدم هل هي جنة الخلد أم لا على قولين :

القول الأول : أنها ليست جنة الخلد ، وإنما جنة في الأرض . واستدلوا :

قالوا : إن جنة الخلد يكون دخولها يوم القيامة ، ولم يأت زمن دخولها .

وقالوا : وصف الله الجنة بأنها (دار المقامة) فمن دخلها أقام بها ، ولم يقم آدم بالجنة التي دخلها .

وقالوا : إن جنة الخلد دار سلامة مطلقة ، لا دار ابتلاء وامتحان ، وقد ابتلي فيها آدم بأعظم الابتلاء .

وقالوا : ولو كان آدم أسكن جنة الخلد ، فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس المذموم حتى فتن فيها آدم .

القول الثاني : أنها جنة الخلد . واستدلوا :

بقوله تعالى (اهبطوا) والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل .

وقالوا : إن الله وصفها بصفات لا تكون إلا في جنات الخلد فقال (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً .

وجاء في الصحيحين في حديث احتجاج آدم وموسى ، (قال موسى لآدم : أخرجتنا ونفسك من الجنة) ولو كانت في الأرض فهم قد خرجوا من بساتين ، فلم يخرجوا من الجنة .

وهذا القول هو **الصحيح** .

- الزوج يطلق على الرجل والمرأة ، والمراد به هنا حواء ، حيث تقول العرب للمرأة زوج ولا تكاد تقول زوجة.

(وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) القرب : الدنو ، والمنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ، وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة في النهى عن الأكل ، إذ في النهى عن القرب من الشيء نهى عن فعله من باب أولى.

- **قال في التسهيل** (وَلاَ تَقْرَبَا) النهيُ عن القرب يقتضي النهي عن الأكل بطريق الأولى، وإنما نهى عن القرب سدّاً للذريعة، فهذا أصل في سدّ الذرائع .

- وقد اختلف العلماء بالمراد بهذه الشجرة :

فقيل : هي شجرة الكرم .

وقيل : السنبلة .

وقيل : شجرة التين ، **وقيل** : غير ذلك .

والراجح ما رجحه ابن جرير من عدم تعيين ذلك حيث قال : **والصواب** في ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة .

وقال ابن عطية : وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ ؛ وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها.

- قوله تعالى (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) قال بعض العلماء هذا النهي نهي تحريم ويدل عليه أمور :

أحدها : أن قوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة) كقوله (وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ) وقوله (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ) فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول .

وثانيها : أنه قال (فَتَكُونَا مِنَ الظالمين) معناه : إن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما ألا تراهما لما أكلا (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) .

وثالثها : أن هذا النهي لو كان نهي تنزيه لما استحق آدم بفعله الإخراج من الجنة ولما وجبت التوبة عليه. (تفسير الرازي)

(**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**) أي : فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ، بمخالفة أمره .

(**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**) أي : ألقى إليهما إبليس الوسوسة ، والوسوسة في الأصل الصوت الخفي ، ومنه قيل لصوت الحلي. وسواس ، والمراد بها هنا : الحديث الخفي الذي يلقيه الشيطان في قلب الإنسان ليقارف الذنب.

- **فإن قيل** : كيف وسوس إبليس لهما ؟ .

قيل : أنه دخل في فم الحية .

وقيل : أنه مُنع من دخولها مكرماً ، أما على وجه الإهانة فلا يمتنع .

وقيل : أنه وسوس لهما وهو بالأرض .

وقيل : أنه وسوس إلى آدم وهو خارج باب الجنة . والله أعلم بالصواب .

(**لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا**) وُورِيَ من المواراة وهي الستر ، والسوءة ، فرج الرجل والمرأة ، من السوء. وسميت بذلك ، لأن انكشافها يسوء صاحبها. وقيل الكلام كناية عن إزالة الحرمة وإسقاط الجاه.

والمعنى : أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة المحرمة لتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر. وفي هذا التعبير تصريح بأن كشف العورة من أقبح الفواحش التي نهى الله – تعالى – عنها.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (ليبدي لهما) أي : ليظهر لهما (ما ووري عنهما) أي : ستر.

وقيل : إن لام (ليبدي) لام العاقبة ؛ وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عورتهما ، ولم تكن الوسوسة لظهورها.

(**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**) أي : قال لهما : ما نهاكما عن

الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين.
وقوله : إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ استثناء مفرغ من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفي ليكون علة. أي كراهية أن تكونا ملكين.
(**وَقَاسَمَهُمَا**) أي: حلف لهما بالله .
(**إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**) أي : أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما.
- **قال الماوردي** : أي حلف لهما على صدقه في خبره ونصحه في مشورته ، فقبلا قوله وتصورا صدقه لأنهما لم يعلما أن أحداً يجترئ على الحلف بالله كاذباً.
- **قال أبو حيان** : لم يكتف إبليس بالوسوسة وهو الإلقاء في خفية سرًّا ولا بالقول حتى أقسم على أنه ناصح لهما .

(**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**) أي : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، وأطمعهما في غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم.
- قال أبو عبيدة: "خذلهما وخلاهما ، من تدلية الدلو ، وهو إرسالها في البئر .
- **قال البقاعي** : أي أنزلهما عما كانا فيه من علو الطاعة مثل ما فعل بنفسه بالمعصية التي أوجبت له الهبوط من دار الكرامة .
- فإن قيل : كيف صدقاه ؟

قاله غير واحد أنهما ظنا أن أحداً لا يقسم بالله تعالى كاذباً ورووا في ذلك خبراً.
وذهب كثير من المحققين أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظناً ، وإنما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال.
(**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**) أي : فلما خالفا أمر الله تعالى بأن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ، أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية ، فتساقط عنهما لباسهما ، وظهرت لهما عوراتهما. وشرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترها.
ويخصفان : مأخوذ من الخصف ، وهو خرز طاقات النعل ونحوه بإلصاق بعضها ببعض .
- هل كان آدم ناسياً عندما أكل من الشجرة ؟

قيل : كان ناسياً .
لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) .
ويضعف هذا القول قوله تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) .
وقيل : إنه كان عامداً وأنه طمع في جنة الخلد كما في قول إبليس له (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى) . والله أعلم .
ورجح القرطبي الأول ، وقال : قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حَتْماً وجَزْماً فقال (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) ، ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكّر النّهي تضييعاً صار به عاصياً ؛ أي مخالفاً .
- **قال ابن القيم** : وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما ، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة ، قال تعالى (فَوَسْوسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشّجرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النّاصِحِينَ فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ) .

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي ، ... وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما ، فإنها معصية ، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد ، فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما ، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة ، ولهذا رأى النبي ﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم ، وهكذا إذا رؤي الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة يدل على فساد في دينه .

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يوارى العورة ويسترها ، ولباساً باطناً من التقوى ، يُجَمِّل العبد ويستره ، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة ، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْن) أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين ، وكراهة أن تخلدا في الجنة ، ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها ، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم ، فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها ، ويسألها عما تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشام عدو الله الأبوين ، فأحسَّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم ، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام ، ويقول: لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك، ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى).

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة ، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب؟ وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً ، وإنما كذبهما عدو الله وغرَّهما ، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهذا أول المكر والكيد ، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر: أم الأفراح ، ... فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون ، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد ، واشتهى الخلود في الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه، أنه ناصح لهما ، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعده القدر، ولما فرغ الله سبحانه من تقديره فأخذتهما سنة الغَفْلة ، واستيقظ لهما العدو .

(**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا**) على وجه التوبيخ والعتاب .

(**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ**) أي : عن الأكل منها .

(**وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ**) أي : ظاهر العداوة لا يفتر عن إيذائكما وإيقاع الشر بكما.

(**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**) بالمخالفة والمعصية .

(**وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا**) ما سلف من ذنوبنا .

(**وَتَرْحَمْنَا**) بقبول توبتنا .

(**لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) بالعقوبة .

- وقد ذكر الله تعالى قبول توبتهما في سورة البقرة.

وهو قوله تعالى (فتلقى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم) أي قبل توبته.

وقال تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) .

- **قال السعدي** : فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع – إذا صدرت منه الذنوب – اجتباه ربه وهداه.

ومن أشبه إبليس – إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي – فإنه لا يزداد من الله إلا بُعْدًا.

الفوائد :

١– إثبات القول لله تعالى .

٢– أن الجنة موجودة .

٣– حكمة الله في نهيهما عن الأكل من هذه الشجرة .

٤– أن الله قد يمتحن العبد ، فينهاه عن شيء يحبه .

٥– أن معصية الله ظلم للنفس .

٦– إثبات عداوة الشيطان وأنه سبب كل شر ، كما قال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى (وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

٧– إثبات عداوة الشيطان لنا ، فإنه هو الذي أخرج الأبوين من الجنة .

٨– أن المعصية سبب لظهور العورات .

٩–حرص الشيطان على تكشف الإنسان ، ليذهب الحياء ، وإذا ذهب الحياء ذهب الدين .

١٠– حرص ابن آدم على الدنيا والخلود .

١١– خطر الطمع .

قيل : الطمع يذل الأمير ، واليأس يعز الفقير .

قال بعضهم : لو قيل للطمع ، من أبوك ؟ قال : الشك في المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ، ولو قيل له : ما غايتك ؟ قال : الحرمان .

١٢–وجوب سترة العورة .

١٣– يجب أن نتخذ الشيطان عدواً لنا ، فنحذر من خطواته وتزيينه ومكره وخداعه .

(قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤)) .

[الأعراف : ٢٤] .

(**قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) هذا الخطاب لآدم وحواء وإبليس ، وهذه العداوة بين آدم وذريته وبين الشيطان ، كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) .

- وأما ما ورد في قوله بالتثنية (اهبطا منها) قيل المراد آدم وحواء ، وقيل : آدم وإبليس وحواء تبع لآدم وهذا الصحيح .
- وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو

كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

- **قال الرازي** :اعلم أن في هذه الآيات تحذيراً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه :

أحدها : أن من تصور ما جرى على آدم عليه السلام بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي.

وثانيها : التحذير عن الاستكبار والحسد والحرص .

وثالثها : أنه سبحانه وتعالى بين العداوة الشديدة بين ذرية آدم وإبليس ، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر.

- فإن قيل ما الحكمة من إهباط آدم من الجنة ؟ ذكر ابن القيم رحمه الله عدة حكم :

فقال : ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن سيذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها ما يُعظّم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار ، فإن الضد يظهر حسنه الضد ، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها .

وأيضاً ، فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه، فخلّى بينهم وبين أعدائه، وامتحنهم بهم، فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه، نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن ليُنال بدون ذلك أصلاً، فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات، ولم يكن يُنال هذا إلا على الوجه الذي قدّره وقضاه من إهباطه إلى الأرض .

وأيضاً ، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى ، فمن أسمائه : الغفور ، والرحيم ، والحليم ، والخافض ، الرافع .. ولابد من ظهور آثار هذه الأسماء ، فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دار يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى ، فيغفر لمن يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويخفض من يشاء ، ويرفع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

وأيضاً ، فإنه سبحانه المَلِك الحق المبين ، والملك هو الذي يأمر وينهى ، ويثيب ويُعاقب ، ويهين ويكرم ، ويعز ويذل ، فاقتضى ملكه سبحانه أن ينزِل آدم وذريته داراً تجري عليهم فيها أحكام الملك ، ثم ينقلهم إلى دار يُتم عليهم فيها ذلك .

وأيضاً ، فإنه – سبحانه – أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب هو الإيمان النافع ، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة ، يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا ، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب ، واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه .

وأيضاً ، فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين ، ويحب المحسنين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الشاكرين ، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات ، اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه داراً يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته ، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم .

وأيضاً ، فإنه سبحانه جعل عبوديته أفضل درجاتهم – وذكر نبيه باسم العبودية في أعلى الدرجات – اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته داراً ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله ، وتقربهم إليه بمحابه ، وترك مألوفاتهم من أجله .

وأيضاً : فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ، ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل بدار النعيم والبقاء ، إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء ، وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم ، لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف . [مفتاح دار السعادة] .

(**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ**) أي لكم في الأرض موضع استقرار بالإقامة فيها .

- **قال الرازي** : الأكثرون حملوا قوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ) على المكان ، والمعنى أنها مستقركم حالتي الحياة والموت
- قال ابن عطية : قوله تعالى (مستقر) لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور ، وبزمن الحياة فسر أبو العالية وقال : هي كقوله (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس واللفظ يعمهما فهي كقوله (ألم نجعل الأرض

كفاتاً أحياء وأمواتاً) .

(**وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**) أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم وهو الموت ، وهذا قول من يقول المستقر هو المقام في الدنيا .

وقيل : إلى قيام الساعة ، وهذا قول من يقول : المستقر هو في القبور .

- **قال ابن عاشور** : والمتاع والتّمتّع : نيل الملذّات والمرغوبات غير الدّائمة والحِين المدّة من الزّمن ، طويلة أو قصيرة .
- فإن الله كتب الموت على كل نفس :

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) .

الفوائد :

١-إثبات علو الله لقوله (اهبطوا) والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل .

٢- إثبات عداوة الشيطان لنا ، فإنه هو الذي أخرج الأبوين من الجنة .

٣- يجب أن نتخذ الشيطان عدواً لنا ، فنحذر من خطواته وتزيينه ومكره وخداعه .

٤- أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا لقوله (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاع إلى حين) .

(**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)**) .

[الأعراف : ٢٥] .

(**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**) يعني : قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده (فيها تحيون) يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعني : وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعني : ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة.

- **قال ابن كثير** : كقوله تعالى (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) يخبر تعالى أنه يجعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة . الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلا بعمله.
- **قال ابن عطية** :حكم من الله عز وجل أمضاه وجعله حتماً في رقاب العباد يحيون في الأرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياء كما أنشأ أول خلق يعيده .

الفوائد :

١- رحمة الله علينا بهذه الأرض ، قال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً) .

٢- أنه ما من مخلوق إلا ويدفن في الأرض .

٣-إثبات البعث والنشور .

(**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)**) .

[الأعراف : ٢٦] .

(**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا**) يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات –وهي السوآت ، والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهرًا ، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات.

- سميت العورة سوأة لأنه يسوء صاحبها انكشافها.
- **قال ابن جرير**: "الرياش" في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب.
- **قال ابن عاشور** : والرّيش لباس الزّينة الزائد على ما يستر العورة ، وهو مستعار من ريش الطّير لأنّه زينته ، ويقال للباس الزّينة رِياش.
- **قال الرازي** : الريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) وقال (لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ) .
- **قال الثعلبي** : قوله تعالى (يا بني ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ) أي خلقنا لكم ، وقيل : نزّلنا أسبابه وآلاته .
- **قال الماوردي** : فإن قيل : فليس ذلك بمنزل من السماء ؟

فعنه جوابان :

أحدهما : أنه لما كان ينبت من المطر الذي نزل من السماء صار كالمنزل من السماء ، قاله الحسن.

والثاني : أن هذا من بركات الله ، والبركة تنسب إلى أنها تنزل من السماء ، كما قال تعالى (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً) يعني المطر الذي ينبت القطن والكتان ، ويُقيم البهائم الذي منها الأصواف والأوبَار والأشعار ؛ فهو مجاز مثل (وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) .

وقيل : هذا الإنزال إنزال شيء من اللباس مع آدم وحوّاء ، ليكون مثالاً لغيره.

وقال سعيد بن جبير : (أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ) أي : خلقنا لكم ؛ كقوله (وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) أي خلق.

وقيل : ألهمناكم كيفية صنعته.

- **قال القرطبي** : قال كثير من العلماء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال (يوارى سَوْءَاتِكُمْ) .

(**وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ**) قيل : الإيمان ، وقيل : العمل الصالح ، وقيل : السمت الحسن ، وقيل : خشية الله .

(**ذَلِكَ خَيْرٌ**) فيه وجهان :

أحدهما : أنه راجع إلى لباس التقوى ومعنى الكلام أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس ، قاله قتادة والسدي.

والثاني : أنه راجع إلى جميع ما تقدم من (قَدْ أَنزَلْنَا علَيكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءَاتِكُم وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوى) ، ثم قال (ذَلِكَ) الذي ذكرته هو (خَيْرٌ) كله.

(**ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**) الدالة على فضله ورحمته على عباده .

(**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**) يعني لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها.

الفوائد :

١– وجوب ستر العورة .

٢- تحريم كشف العورة .

٣- نعمة الله علينا باللباس .

٤- إثبات علو الله .

٥- عظمة الله تعالى .

٦- أن خير لباس يلبسه الإنسان التقوى .

٧- ينبغي تذكر نعم الله لنقوم بشكرها .

(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧)) .

[الأعراف : ٢٧] .

(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) أي لا يصرفنّكم الشيطان عن الدّين ؛ كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة.

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى محذرًا بني آدم من إبليس وقبيله، ومبينًا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدمعليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا) .

- **قال الرازي** : اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده أتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان فقال (يَذَّكَّرُونَ يا بني آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الجنة) وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ولطف وسوسته وشدة اهتمامه إلى أن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى.

فبهذا الطريق حذر تعالى بني آدم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان فقال (لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان) فيترتب عليه أن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم ، فترتب عليه خروجهما منها وأصل الفتون عرض الذهب على النار وتخليصه من الغش.

(يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا) أي : ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا) حال ، أي أخرجهما نازعاً لباسهما وأضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يتول ذلك ، لأنه كان بسبب منه ، فأسند إليه كما تقول أنت فعلت هذا ؟ لمن حصل منه ذلك الفعل بسبب.

وإن لم يباشره ، وكذلك لما كان نزع لباسهما بوسوسة الشيطان وغروره أسند إليه.

- اختلفوا في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم إنه النور ، وبعضهم التقى ، وبعضهم اللباس الذي هو ثياب الجنة وهذا القول أقرب ، لأن إطلاق اللباس يقتضيه ، والمقصود من هذا الكلام ، تأكيد التحذير لبني آدم ، لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره إلى هذا الحد فكيف يكون حال آحاد الخلق .

- **قال ابن عاشور** : وفي الآية إشارة إلى أنّ الشّيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدم لأنّه يسرّه أن يراه في حالة سوء وفظاعة.

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ) يعني : كونوا بالحذار منه ، فإنه يراكم هو أي إبليس وجنوده من الشياطين من حيث لا تروهم.

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنَ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ) فيه وجهان :

أحدهما : قومه ، وهو قول الجمهور.

والثاني : جيلُهُ ، قاله السدي.

- **قال الشوكاني** : قوله (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ) هذه الجملة تعليل لما قبلها ، مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذريهم منه ، لأن من كان بهذه المثابة يرى بني آدم من حيث لا يرونه ، كان عظيم الكيد ، وكان حقيقاً بأن يحترس منه أبلغ احتراس .

(**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**) أي : إن جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين .

الفوائد :

١- شدة عداوة الشيطان للإنسان .

٢- وجوب الحذر من الشيطان ومكائده .

٣-فضل مجاهدة الشيطان .

٤-وجوب حفظ العورات .

٥- أن الشيطان يحرص على كشف العورات .

٦-أن الشياطين يرون الإنس .

٧- أن الشيطان ولي للكافر .

(**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨)**) .

[الأعراف : ٢٨] .

(**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**) قال القرطبي : الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عُراةً.

- **قال ابن كثير** : قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النسعة، أو الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كلّه ... وما بَدا منه فلا أحلّهُ .

فأنزل الله تعالى (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) .

قلت: كانت العرب -ما عدا قريشًا -لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش -وهم الحُمْس -يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا، طاف عريانًا. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئًا يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كلّه ... وما بدَا منه فلا أحلّهُ .

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل

آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فقال تعالى ردًا عليهم:

- فالمراد بالفاحشة : ما كانوا يفعلونه بالطواف حول الكعبة عراة ، وهذا اختيار ابن جرير .
- **قال الماوردي** : قوله عز وجل (وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا) .

في هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها وردت في العرب الذين كانوا يطوفون عراة ، والفاحشة التي فعلوها كشف العورة ، وهذا قول أكثر المفسرين.

- **قال الخازن** قوله تعالى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) قيل : هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى : لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وإنما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة إبليس له ليحذر بذلك أولاد آدم
- فائدة : إذا ذكر الله مقالة أحد ، فإن الله يذكر معها أو قبلها أو بعدها ما يدل على بطلانها .

قال تعالى (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ) .

وقال تعالى (وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

(**قُلْ**) أي: قل يا مُحَمَّد لمن ادعى ذلك .

(**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء**) أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك .

(**أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

الفوائد :

١- تحريم كشف العورة في الطواف وغير الطواف .

٢- أن من يستدل على باطله بفعل الآباء ففيه شبه من المشركين .

٣- الرد على هؤلاء المشركين في دعواهم أن الله يأمر بالفحشاء .

٤- تحريم القول على الله بغير علم .

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩))

[الأعراف : ٢٩] .

(**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**) أي: بالعدل والاستقامة .

(**وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**) أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى وما جاءوا به عنه من الشرائع .

قيل : المراد استقبال القبلة عند الصلاة .

وقيل : المراد الإخلاص لله ، بتوحيده سبحانه .

(**وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) أي : وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون

صوابًا موافقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك.

- **قال ابن عاشور** : الدّعاء في قوله (وادعوه مخلصين له الدين) بمعنى العبادة أي اعبدوه كقوله (إن الذين تدعــون من دون الله) .

والإخلاص تمحيض الشّيء من مخالطة غيره ، والدّين بمعنى الطّاعة من قولهم دنت لفلان أي أطعته.

- الإخلاص أن يخلص العبد دينه ، وعمله لله تعالى فلا يشرك في دينه ولا يرائي بعمله .

والأدلة على وجوب الإخلاص كثيرة .

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) .

وقال تعالى (قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

وقال ﷺ (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي .

وقال ﷺ . قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم .

وعن محمود بن لبيد . أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ؟ قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) رواه أحمد .

- **وللإخلاص فضائل** :

أولاً : أنه سبب لمغفرة الذنوب .

والدليل : قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها "والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الإيمان والعبودية في هذه اللحظة فمنها : أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً – وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث – أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملئت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير ، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها، أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء والزنا فغفر الله لها .

ثانياً : أنه يصرف الفتنه عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (١/٦٠) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل .

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال

امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

ثالثاً : أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٠/١٩٨) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله ، وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو "إخلاصهم لله" فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين .

رابعاً : أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

خامساً : أنه سبب لمضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال ﷺ (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ...) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال ﷺ (صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجه وصححه الألباني .

سادساً : أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

والدليل على ذلك: قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وفيها أنهم قالوا: (اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم) والقصة معروفه وهي عند البخاري ومسلم .

سابعاً : أنه سبب للنصر على الأعداء .

لحديث سعد رضي الله عنه قال: قال ﷺ (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

ثامناً : أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة .

لقول النبي ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/٢٦١) : فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار .

تاسعاً : سبب للنجاة من كيد الشيطان .

قال تعالى (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

وقال تعالى (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

- **أقوال في الإخلاص :**

قال ابن القيم في عدة الصابرين : من عوّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ، ومن عوّد نفسه العمل لهواه

وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله ، وهذا في جميع أبواب الأعمال ، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس .

وقال في المدارج : ومما يخلصه من طلب العوض : علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته .

قال الربيع بن خثيم : كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل .

وقال ابن المبارك : ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة .

قال ابن قدامة : واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات .

وقال : ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي ، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم .

وقال : ومن الدواء النافع (في علاج الرياء) أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما نغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال . (مختصر منهج القاصدين) .

وكان عمر يقول : اللهم اجعل عملي صالحا واجعله لوجهه خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

قال ابن الجوزي : فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله ، وعبقت القلوب بنشر طيبه ، فاللهَ اللهَ في السرائر ، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر .

وقال : ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً ، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم ، وسفيان الثوري كان يقول : لا أعتد بما ظهر من عملي ، وكانوا يسترون أنفسهم .

وقال : فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ، ومحو الجاه من قلوبهم بالعمل ، وإخلاص القصد ، وستر الحال ، هو الذي رفع من رفع .

وقال : إنما يتعثر من لم يخلص ، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يُراد .

وقال مالك بن دينار : وقولوا لمن يكن صادقاً لا يتعنى .

وعلامة المخلص : أن يكون في جلوته كخلوته ، وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط ، لينمحي عنه اسم الزاهد .

كان الشافعي يقول : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب لي منه شيء .

(**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِلْعُلَمَاءِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ مَعْنَى كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ أَيْ : كَمَا سَبَقَ لَكُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ سَعَادَةٍ أَوْ شَقَاوَةٍ ، فَإِنَّكُمْ تَصِيرُونَ إِلَيْهِ ، فَمَنْ سَبَقَ لَهُ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ سَعِيدٌ صَارَ إِلَى السَّعَادَةِ ، وَمن سَبَقَ لَهُ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ شَقِيٌّ صَارَ إِلَى الشَّقَاوَةِ ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ بَعْدَهُ (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) وَهُوَ ظَاهِرٌ كَمَا تَرَى .

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) .

وَقَوْلُهُ : (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ..) أَيْ وَلِذَلِكَ الِاخْتِلَافِ إِلَى شَقِيٍّ ، وَسَعِيدٍ خَلَقَهُمْ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) أَيْ كَمَا خَلَقَكُمْ أَوَّلًا ، وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا ، فَإِنَّهُ يُعِيدُكُمْ مَرَّةً أُخْرَى ، وَيَبْعَثُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ أَنْ مِتُّمْ وَصِرْتُمْ عِظَامًا رَمِيمًا .

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، كَقَوْلِهِ (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا) .

وَقَوْلِهِ (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

الفوائد :

١-أن الله يأمر بالعدل .

٢- تحريم الظلم .

٣- وجوب توحيده وإفراده بالعبادة .

٤-وجوب الإخلاص في جميع العبادات .

٥-إثبات البعث .

(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)) .

[الأعراف : ٣٠] .

(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) أي : هـدى فريقاً منكم وأضل فريقاً منكم ، وهو الفعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل .

- وفي هذا أن الناس ينقسمون إلى قسمين مهتد وضال ، فعلى المسلم أن يسأل الله الهداية .

قال تعالى (اهدِنَـا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ) .

وقال ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

وقال ﷺ (قال تعالى : فاستهدوني أهدكم ...) .

(إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللَّهِ) هذا تعليل للفريق الذي حقت عليهم الضلالة ، أي : اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ، (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً) فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران .

(وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) أي : يظنون أنهم على بصيرة وهداية .

- **قال السعدي** : لأنهم انقلبت عليهم الحقائق ، فظنوا الباطل حقاً والحق باطلاً ، وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول ، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص ، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجهله وظلمه - الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

قال الشنقيطي : قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) .

بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَنَّ الْكُفَّارَ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمِنْ تِلْكَ الْمُوَالَاةِ طَاعَتُهُمْ لَهُمْ فِيمَا يُخَالِفُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَعَ ذَلِكَ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى هُدًى .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ أَخْسَرُ النَّاسِ عَمَلًا ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) .

تَنْبِيهٌ :

هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَنْفَعُهُ ظَنُّهُ أَنَّهُ عَلَى هُدًى ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ لَمْ تَتْرُكْ فِي الْحَقِّ لَبْسًا وَلَا شُبْهَةً ، وَلَكِنَّ الْكَافِرَ لِشِدَّةِ تَعَصُّبِهِ لِلْكُفْرِ لَا يَكَادُ يُفَكِّرُ فِي الْأَدِلَّةِ الَّتِي هِيَ كَالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ لَجَاجًا فِي الْبَاطِلِ ، وَعِنَاداً . (أضواء البيان) .

الفوائد :

١- أن الناس ينقسمون إلى قسمين : مهتد وضال .

٢-أن الهداية من الله تعالى .

٣-وجوب سؤال الهداية من الله .

٤- أن الشيطان لا يأمر إلا بالشر .

٥- التحذير من اتخاذ الشيطان ولياً .

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ (٩))

[الأعراف : ٨ – ٩] .

(**وَالْوَزْنُ**) أي: للأعمال يوم القيامة .

(**يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**) أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) .

وقال تعالى (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ) .

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) .

(**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**) أي : فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات .

(**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) أي : الناجون غداً من العذاب ، الفائزون بجزيل الثواب .

(**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**) أي : ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات .

(**فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم**) بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب ، وهو نار جهنم .

وأصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر، سواء كان نقصاً في ربح المال، أو نقصاً في رأس المال .

والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه (جل وعلا) فقد خَسِرَ الخُسْرَان المبين .

وقد أقسم الله (جل وعلا) – وهو أصدق من يقول – في سورة كريمة من كتابه – وكل سورة منه كريمة– ألا وهي (سورة العصر) أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائناً ما كان إلا بأعمال معينة مبينة، وذلك في قوله (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (إِنَّ

الْإِنسَانَ) معناه: إن كل إنسان كائناً من كان (لَفِي خُسْرٍ) (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فهذا الخسران لا يُنجي منه شيء أبداً كما أقسم عليه رب السماوات والأرض إلا الإيمان والأعمال الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، هذا الذي يُنجي من الخسران.

وأكبر الأدلة على خسرانهم أنفسهم: أنهم إن صاروا إلى النار أكبر مُنْيةٍ يتمنونها، وأكبر غرض يطلبونه: هو أن يموتوا وتعدم أنفسهم فتصير لا شيء؛ ولذلك يقولون (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) .

ولكن أمنيتهم العُظْمَى الَّتِي هِيَ الموت لا يحصلونها أبداً؛ لأن الله يقول (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ويقول (جل وعلا) في الكافر (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى) .

(**بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ**) أي : بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله .

- (ما) هنا مصدرية ، والباء سببية ، يعني خسروا أنفسهم بسبب كونهم ظالمين بآياتنا .
- والآيات جمع آية ، والآية تطلق في القرآن على معنيين :

المعنى الأول : الآية الكونية القدرية . (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

المعنى الثاني : الآية الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم . (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها .

- الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور : أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها ، أو أن يعتقد أن له شريكاً في خلقه ، أو أن له معيناً في خلقه .

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها ، أو بتكذيبها ، أو بالاستكبار والعناد .

- أن الناس إذا كان يوم القيامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام :

قسم ترجح حسناتهم على سيئاتهم ، فهؤلاء لا يعذبون ويدخلون الجنة .

وقسم آخر ترجح سيئاتهم على حسناتهم ، فهؤلاء مستحقون للعذاب بقدر سيئاتهم ثم ينجون إلى الجنة .

وقسم ثالث سيئاتهم وحسناتهم سواء ، فهؤلاء هم أهل الأعراف ليسوا من أهل الجنة ، ولا من أهل النار ، بل هم في مكان برزخ عالٍ مرتفع يرون النار ويرون الجنة ، يبقون فيه ما شاء الله وفي النهاية يدخلون الجنة ، وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى أن أعطى كل إنسان ما يستحق ، فمن ترجّحت حسناته فهو من أهل الجنة ، ومن ترجحت سيئاته عذّب في النار إلى ما شاء الله ، ومن كانت حسناته وسيئاته متساوية فهو من أهل الأعراف ، لكنها -أي الأعراف- ليست مستقراً دائماً ، وإنما المستقر: إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، جعلني الله وإياكم من أهل الجنة .

- وفي الآية إثبات الميزان .

أولاً : تعريفه : هو ميزان حقيقي له كفتان .

ثانياً : أدلة ثبوته .

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

ولقوله ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان ..) رواه مسلم .

ولقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ... سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) متفق عليه .

ثالثاً : اختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال :

القول الأول : أن الذي يوزن الأعمال نفسها .

وإلى هذا ذهب ابن حزم ، والطيبي ، وابن حجر .

قال ابن حجر : والصحيح أن الأعمال هي التي توزن .

أ- للحديث السابق (والحمد الله تملأ الميزان) .

ب- ولحديث (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ...) .

قالوا : هذان الحديثان صريحان في وزن الأعمال أنفسها .

ج- ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

القول الثاني : أن الذي يوزن العامل (أي : صاحب العمل) .

أ- لحديث أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة). متفق عليه

ب- ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد .

القول الثالث : أن الذي يوزن صحائف الأعمال .

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر ، والقرطبي .

لحديث البطاقة وفيه (... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي .

القول الرابع : أن الجميع يوزن .

وإلى هذا ذهب ابن كثير ، وابن أبي العز ، وحافظ حكمي ، وابن باز وغيرهم .

قال ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة (٧) توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم .

وقال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك : فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال .

وقال حافظ حكمي : الذي استظهر من النصوص – والله أعلم – أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن ، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها .

وقال الشيخ ابن باز : الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن ، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة .

وهذا القول هو **الراجح** .

رابعاً : كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض ، لأن الوزن يكون للأجسام ؟

أجاب بعضهم : بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجساماً ثم توزن .

قال ابن كثير : قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضاً قد قام بالفاعل ، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتاً يوضع في الميزان .

وقال ابن أبي العز : فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام ، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً .

خامساً : هل هو ميزان واحد أم متعدد ؟

وردت نصوص تدل على أنه متعدد، كقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)، وقوله تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...).

ووردت نصوص بالإفراد ،كقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان) .

والراجح أنه ميزان واحد ، لكنه متعدد باعتبار الموزون .

- قال ابن كثير كما في "النهاية" (٣٥/٢) وقد توزن أعمال السعداء وإن كانت راجحة لإظهار شرفهم على رءوس الأشهاد والتنويه بسعادتهم ونجاتهم، وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم يكن لهم حسنات تنفعهم ويقابل بها كفرهم؛ لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رءوس الأشهاد.
- الكفار توزن أعمالهم

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين)، لكن كيف توزن أعمال الكفار وليس لهم حسنات ؟

يجيب عن هذا القرطبي حيث قال: والجواب عن هذا من وجهين:-

الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته، ولا يجد الكفار حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة.

والثاني: أن حسنات الكافر من صلة رحم، وصدقة، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه .

والراجح: هو القول الأول؛ لأن الشرك والكفر يحبط العمل؛ لقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين) .

وقال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً) .

وقال تعالى (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ) .

وقال تعالى (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون) .

ومما يدل على ذلك أيضاً ما أخرجه الإمام مسلم وأحمد من حديث عائشة . قالت : يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين".

سادساً : قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديره ليكون الجزاء بحسبها .

- قال بعض العلماء : إن الميزان له لسان ، وفيه أثر عن ابن عباس والحسن البصري ، ولم يصح في ذلك حديث مرفوع .
- فإن قيل : ما الحكمة في وزن أعمال العباد والله هو العالم بمقدار كلّ شيء قبل خلقه إياه وبعده قلنا أربعة أشياء : أحدهما : امتحان الله تعالى عباده بالإيمان به في الدنيا ، والثاني : جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى.

والثالث : تعريف الله عزّ وجلّ للعباد ما عند الله من جزاء على خير وشر ، والرابع : إلقائه الحجّة عليه.

ونظيره قوله (هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق) الآية فأخبر ما تأتي الأعمال ونسخها مع علمه بها ما ذكرناه من المعاني والله أعلم.

- أعمال تثقل في الميزان :

من المهم أن نعلم أن كل عمل صالح يعمله العبد هو مما يثقل الله به موازين حسناته يوم القيامة .

قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) .

وقال تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

غير أن النصوص قد وردت بأعمال معينة ، لها خصوصية بتثقيل موازين صاحبها يوم القيامة ؛ فمن ذلك :

أولاً : التهليل ويقصد به " لا إله إلا الله " وهي أثقل شيء في الميزان :

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ) رواه احمد والترمذي .

ثانياً : ذكر الله تعالى: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) متفق عليه .

عَنْ جُوَيْرِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا قَالَتْ نَعَمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ) رواه مسلم .

ثالثاً : المحافظة على الأذكار دبر الصلاة المفروضة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (خَصْلَتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا وَيُكَبِّرُ عَشْرًا فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ..) رواه أحمد وأبو داود .

رابعاً : الصبر والاحتساب على فقدان الولد الصالح .

عَنْ زَيْدٍ عَنْ أَبِي سَلَّامٍ عَنْ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ وَقَالَ بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحِسَابِ) رواه الإمام أحمد .

خامساً : مكارم الأخلاق .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ) رواه أبو داود .

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ : (يَقُولُ مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ) رواه الترمذي .

سادساً : إتباع الجنازة حتى يفرغ من دفنها .

عَنْ أُبَيٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِهِ مِنْ أُحُدٍ) رواه الإمام أحمد .

الفوائد :

١- إثبات الميزان .

٢- أنه ميزان حقيقي .

٣-عدل الله .

٤-تنزيه الله عن الظلم .

٥- الحرص على الزيادة من الأعمال الصالحات في الدنيا .

٦-الحذر من المعاصي والذنوب .

٧-خسارة من خفت موازينه .

٨-أن الظلم سبب للعذاب والهلاك .

٩-وجوب الإيمان بآيات الله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)) .

[الأعراف : ١٠] .

(**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ**) يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جَعَل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح منافعها، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها .

- **قال الرازي** : أي جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها .
- **قال ابن عاشور** : أي جعلنا لكم قدرة ، أي أقدَرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التّصرف في مخلوقاتها ، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتّغلّب على مصاعبه ، وليس المراد من التّمكين هنا القوّة والحكم كالمراد في قوله تعالى (إنا مكنا له في الأرض) لأنّ ذلك ليس حاصلاً بجميع البشر إلاّ على تأويل .

(**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**) أي: مكاسب وأسبابًا يتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) .

- **قال ابن الجوزي** : وفي المعايش قولان.

أحدهما : ما تعيشون به من المطاعم والمشارب.

والثاني : ما تتوصَّلون به إلى المعايش ، من زراعة ، وعمل ، وكسب.

- **قال القرطبي** : والمعايش جمع مَعيشة ، أي ما يُتعيَّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة.
- **قال ابن عاشور** : فهذا تذكير لهم بأن الله هو ولي الخلق ، لأنّه خالقهم على وجه الأرض ، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم ، وتوبيخ على قلّة شكرها ، كما دلّ عليه تذييل الجملة بقوله (قليلاً ما تشكرون) فإنّ النّفوس

التي لا يزجُرها التّهديد قد تنفعها الذكريات الصّالحة ، وقد قال أحد الخوارج وطُلب منه أن يخرج إلى قتال الحجّاج بن يوسف وكان قد أسدى إليه نِعماً:

أأقَاتِلُ الحجّاجَ عن سلطانه....بيدٍ تُقِرّ بأنَّها مَوْلاَتِه .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) الآية ،لم يبين هنا كيفية هذه المعايش التي جعل لنا في الأرض ، وكلنه بين ذلك في مواضع أخر .

كقوله (فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ) .

وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ) .

وقوله (وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى) .

وذكر كثيراً من ذلك في سورة النحل كقوله (والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**) أي : شكراً قليلاً ما ، لأنه لا يخلو الإنسان من شكر في الجملة .

- **والشكر** : هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب ، وثناء باللسان ، وطاعة بالأركان .

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين : أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة المال : أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله .

أن يستعمل جميع ما أنعم الله عليه في طاعة من خلقه .

- كيف يتحقق الشكر ؟

أولاً : سؤال الله ذلك .

كما قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

وقال ﷺ لمعاذ : (يا معاذ ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) . رواه أبو داود

ثانياً : أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

ثالثاً : أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه .

قال تعالى : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

قال ابن كثير : أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة .

رابعاً : أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا ، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله .

قال ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

خامساً : تذكرها والتحدث بها .

قال الشوكاني : ذكر النعمة سبب باعث على شكرها .

قال الغزالي : إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة ، والخاصة والعامة .

- الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه .

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ) . وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) .

وتعريفه كما سبق وهو أن يستعمل نعمه في طاعة الله .

وشكر الله لعبده كقوله تعالى (ومَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

ومعنى شكر الله لعبده : هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة .

لما عقر سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره ، فأراد ألا تشغله مرة أخرى ، أعاضه عنها متن الريح .

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته ، أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

- **فضائل الشكر** :

أولاً : الله أمر به .

قال تعالى : (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

ثانياً : التوبيخ على عدم الشكر .

قال تعالى : (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ) .

ثالثاً : الثناء على الشاكرين وأنه سبل الرسل .

قال تعالى : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

رابعاً : الشكر نفع للشاكر نفسه .

قال تعالى : (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) .

خامساً : أن الشكر إذا صدر من المؤمنين فهو مانع من نزول العذاب .

قال تعالى : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) .

سادساً : أن الشكر سبب لزيادة النعم .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

سابعاً : أن الصفوة من عباد الله يسألون الله أن يوزعهم شكر نعمته .

قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

ثامناً : أن الشاكرين قليلون .

قال تعالى : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وهذا يدل على أنهم هم خواص الله .

تاسعاً : أن الله خلق الخلق من أجل الشكر .

قال تعالى (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) .

الفوائد :

١-نعمة الله على عباده بالتمكين في الأرض .

٢-أن الله يسر في الأرض أسباب المعيشة وطرقها .

٣-أن الله يسر للإنسان كل ما يحتاجه ليقوم بعبادة الله .

٤-وجوب شكر الله تعالى .

٥-أن الحكمة من خلق الخلق شكر الله .

٦-أن أكثر الناس لا يشكرون .

٧-مصداق قوله تعالى (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ) .

٨- فضل شكر الله تعالى .

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)) .

[الأعراف : ٣١] .

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُراة، كما رواه مسلم عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كُلّه ... وما بَدَا مِنْه فلا أحِلّهُ ...

فقال الله تعالى (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) .

- **قال ابن كثير** : ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض .
- **قال السعدي** : قوله تعالى (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا مشوها.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس.

- فهذه الآية وإن كان سبب نزولها في طوافهم بالبيت عراة فلفظها عام لكل مسجد (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

أدلة هذه القاعدة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ - قَالَ - فَنَزَلَتْ (أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) قَالَ فَقَالَ الرَّجُلُ أَلِيَ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي »

وفي رواية (فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً قَالَ : بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً) .

وهذا صريح في أن العبرة بعموم اللفظ .

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ فَقَالَ « أَلاَ تُصَلُّونَ » . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا . فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ « وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

جَدَلاً) متفق عليه .

والشاهد : هو استدلال النبي ﷺ في الآية ، مع أنها نازلة في الكفار الذين يجادلون في القرآن .

(**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ**) أي : مما رزقكم الله من الطيبات .

- وفي هذا أنه لا ينبغي للإنسان أن يحرم شيئاً حلله الله كما قال تعالى (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

(**وَلاَ تُسْرِفُواْ**) في ذلك ، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم ، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام.

- وأصل الإسراف في لغة العرب: هو مجاوزة الحد .
- **قال الشنقيطي** : والإسراف المنهي عنه هنا فيه للعلماء وجهان :

أحدهما : أن المعنى لا تسرفوا في الأكل والشرب فتأكلوا فوق الحاجة ، وتشربوا فوق الحاجة ، لأن الإسراف في الأكل والشرب يثقل البدن، ويعوق صاحبه عن طاعة الله، والقيام بالليل، فيجعل صاحبه كلما كانت بطنه ملأى من الأكل والشرب كان ثقيل الجسم، لا ينهض لطاعة الله، فنهاهم الله عن الإسراف في الأكل، وكذلك يسبب الأمراض.

- في الحديث (المؤمن يأكل في معيٍ واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء) متفق عليه .
- وقال ﷺ (بحسب امرئ لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد فثلثه لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه) رواه الترمذي .
- أقوال في ذم الشبع :

قال الفضيل بن عياض : شيئان يقسيان القلب :كثرة الكلام، وكثرة الأكل .

لأن الشّبَع مذموم ، فهو يكسل عن العبادة ، فعلى العبد أن لا يكثر الأكل والشرب حتى لا يغلبه النوم ويثقل عليه القيام .

ولذلك قيل : لا تأكل كثيراً ، فتشرب كثيراً ، فتنام كثيراً ، فتتحسر كثيراً ؟

قال عمر : إياكم والبطنة ، فإنها ثقل في الحياة ونتن في الممات .

وقال لقمان لابنه : يا بني ! إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال أبو سليمان الداراني : من شبع دخل عليه ست آفات : فقْد حلاوة المناجاة ، وتعذر عليه حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلْق ، لأنه إذا شبع ظن الخلق كلهم شباعاً ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات .

وقال مُحَمَّد بن واسع : من قلّ طُعْمه فهِم وأفْهم وصفَى ورقّ .

وقال عمرو بن قيس : إياكم والبطنة ، فإنها تقسي القلب .

وقال الحسن البصري : كانت بلية أبيكم آدم أكلة ، وهي بليتكم إلى يوم القيامة .

وقد قيل : إذا أردت أن يصح جسمك ويقل نومك فأقلل من الأكل .

وقال إبراهيم بن أدهم : من ضبط بطنه ضبط دينه .

الوجه الثاني : أن معنى (وَلاَ تُسْرِفُواْ) أي: لا تجاوزوا حدود الله، فتحرّمُوا ما أحلّ الله كالودك للمُحْرِم، وكاللباس للطَّائِف، فهذه أمورٌ لم يحرمها الله، ولا تسرفوا في التحريم والتحليل بأن تحرموا ما أحلَّ الله، وتحللوا ما حرَّم الله، وكلا الإسرافين إسراف. ولا مانع من أن تشمل الآية الجميع. فلا يجوز الإسراف بتحريم ما أحلَّ الله، وتحليل ما حرَّم الله، كما لا يجوز الإسراف الكثير بملء البطن مِلْئاً شديداً من الأكل والشرب حتى يتكاسل الإنسان ولا يتنشط لطاعة الله .

- **قال الجصاص** : وَالْإِسْرَافُ هُوَ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الِاسْتِوَاءِ ، فَتَارَةً يَكُونُ بِمُجَاوَزَةِ الْحَلَالِ إلَى الْحَرَامِ وَتَارَةً يَكُونُ بِمُجَاوَزَةِ الْحَدِّ فِي الْإِنْفَاقِ فَيَكُونُ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) وَالْإِسْرَافُ وَضِدُّهُ مِنْ الْإِقْتَارِ مَذْمُومَانِ ، وَالِاسْتِوَاءُ هُوَ

التَّوَسُّطُ ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ دَيْنُ اللَّهِ بَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْغَالِي ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) وَقَدْ يَكُونُ الْإِسْرَافُ فِي الْأَكْلِ أَنْ يَأْكُلَ فَوْقَ الشِّبَعِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إِلَى الضَّرَرِ ، فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ أَيْضًا.

(**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**) فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

الفوائد :

١- وجوب ستر العورات عند الصلاة وفي غيرها .

٢- استحباب التنظف والتجمل للعبادات .

٣- تحريم كشف العورة .

٤-الأكل والشرب من نعم الله .

٥- تحريم الإسراف .

٦- تهديد للمسرفين .

٧- إثبات المحبة لله تعالى .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)) .

[الأعراف : ٣٢] .

(**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**) يقول تعالى منكراً على من تعنت ، وحرم ما أحل الله من الطيبات (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ) من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه ، أي: مَن هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسَّعه الله ؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين .

- **قال الشنقيطي** : أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَ سُؤَالَ إِنْكَارٍ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، كَاللِّبَاسِ فِي الطَّوَافِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ كَالْأَنْعَامِ ، وَالْحَرْثِ الَّتِي حَرَّمَهَا الْكُفَّارُ ، وَكَاللَّحْمِ وَالْوَدَكِ الَّذِي حَرَّمَهُ بَعْضُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْحَجِّ .

وَصَرَّحَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا ، كَقَوْلِهِ (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) ، وَقَوْلِهِ (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) ، وَقَوْلِهِ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) ، وَطَلَبُهُمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ طَلَبُ إِعْجَازٍ أَنْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، وَنَهَى نَبِيَّهُ ﷺ إِنْ شَهِدَ لَهُمْ شُهُودُ زُورٍ أَنْ يَشْهَدَ مَعَهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضاً ، أما في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد

ممن أشرك مع الله آلهة أخرى.

- **قال البغوي** : قوله تعالى (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فيه حذف تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا ، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظ للمشركين فيها ، وقيل: هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغم.

(**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ**) أي : نوضحها ونبينها .

(**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) ما في تضاعيفها من توجيهات سامية ، وآداب عالية.

- **قال السعدي** : لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

الفوائد :

١- الإنكار على من حرّم ما لم يحرمه الله .

٢-أن التحريم والتحليل إلى الله تعالى .

٣-أن الأصل في الأشياء الإباحة .

٤-أن الدنيا متاع ، ولهذا يكون للكافر فيها نصيب وتمتع . (لو كانت الدنيا تزن عند الله ...) .

٥-أنه لا حظ للكافر من النعيم في الآخرة .

٦-أن الله يوضح ويبين الآيات للناس .

(**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٣)**) .

[الأعراف : ٣٣] .

(**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**) ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ) أي: الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

- قوله تعالى (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

(**وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**) الإثم : هو الشيء القبيح الذي فعله يعتبر معصية ، والبغي : هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد.

- **قال ابن كثير** : وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي على الناس ، فحرم الله هذا وهذا .

- ويقال الإثم يعني : الخمر كما قال القائل :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي .....كذاك الإثم يذهب بالعقول .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (والإثم) أيضاً : لفظه عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض الناس : هي الخمر واحتج على ذلك بقوله الشاعر :

شربت الإثم حتى طار عقلي...

قال ابن عطية : وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة لتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد ، لأن جماعة من

الصحابة اصطحبوها يوم أحد وماتوا شهداء ، وهي في أجوافهم ، وأيضاً فبيت الشعر يقال إنه مصنوع مختلق ، وإن صح فهو على حذف مضاف .

(**وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**) أي : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء في عبادته بدون حجة وبرهان.

وقوله (ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً) بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة عندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل ، فالجملة الكريمة قد اشتملت على التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم.

(**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) أي : حرم عليكم أن تقولوا قولاً يتعلق بالعبادات أو المحللات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون ، وبغير بينة على صدق ما تدعون.

الفوائد :

١- بيان ما حرمه الله .

٢- أن التحريم والتحليل إلى الله .

٣-تحريم الفواحش بأنواعها .

٤- تحريم جميع الذنوب .

٥-تحريم البغي على الناس .

٦- تحريم الشرك .

٧- تحريم القول على الله بغير علم .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤))

[الأعراف : ٣٤] .

(**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**) الأجل ، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المهْلَة .

- **قال ابن عاشور** : والمراد بالأمّة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرّسل ، كما يدلّ عليه السّياق من قوله تعالى (وأن تشركوا بالله) إلخ وليس المراد بالأمّة ، الجماعةَ التي يجمعها نسب أو لغة إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها .

وفي هذه الآية قولان :

القول الأول : أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين ، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال ، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة.

وهو قول ابن عباس ، والحسن ، ومقاتل .

والقول الثاني : أن المراد بهذا الأجل العمر ، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه ، والقول الأول : أولى ، لأنه تعالى قال (وَلِكُلّ أُمَّةٍ) ولم يقل : ولكل أحد أجل .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (ولكل أمة أجل) يتضمن الوعيد والتهديد ، والمعنى ولكل أمة أي فرقة وجماعة ، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس ، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم ، فأنتم أيتها الأمـة كذلك قاله الطبري وغيره .

• **قال ابن عاشور** : وذِكْرُ عموم الأمم في هذا الوعيد ، مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا ، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم على طريقة الاستشهاد بشواهد التّاريخ في قياس الحاضر على الماضي فيكون الوعيد خبراً معضوداً بالدّليل والحجّة ، كما قال تعالى في آيات كثيرة منها (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي : ما أنتم إلاّ أمة من الأمم المكذّبين ولكلّ أمّة أجل فأنتم لكم أجل سيحين حينه.

وذِكر الأجل هنا، دون أن يقول لكلّ أمّة عذاب أو استئصال، إيقاظاً لعقولهم من أن يغرّهم الإمهال فيحسبوا أنّ الله غيرُ مؤاخذهم على تكذيبهم، كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وطمأنةً للرسول ﷺ بأنّ تأخير العذاب عنهم إنّما هو جري على عادة الله تعالى في إمهال الظّالمين على حدّ قوله (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذّبوا جاءهم نصرنا) وقوله (لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل) . (تفسير ابن عاشور)

(**فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**) المراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة ، وإنما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلة.

الفوائد :

١- تهديد الأمم الكافرة .

٢- أن تأخير العذاب عن الأمم الطاغية لحكمة .

٣- أن أفعال الله صادرة عن حكمة .

٤- أن عذاب الله إذا جل وحلّ لا يتأخر ولا يتقدم .

٥- إمهال الله الأمم الكافرة .

٦- تسلية لأهل الإيمان وطمأنينة لهم .

(**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)**) [الأعراف : ٣٥] .

(**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**) يا بني آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم ، يتلون عليكم آياتي التي أنزلتها عليهم لهدايتكم ، فآمنوا بهم وعزروهم وانصروهم ، فإن من آمن بهم واتقى ما نهاه عنه ربه ، وأصلح نفسه وعمله ، فأولئك لا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون لمفارقتهم الدنيا

• **قال الرازي** : وإنما قال (مّنكُمْ) لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم وأبين للحجة عليهم من جهات :

أحدها : أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة.

وثانيها : أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شك وشبهة في أنها حصلت بقدرة الله تعالى لا بقدرته فلهذا السبب قال تعالى (وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً) .

وثالثها : ما يحصل من الألفة وسكون القلب إلى أبناء الجنس ، بخلاف ما لا يكون من الجنس ، فإنه لا يحصل معه الألفة.

وقال ابن عاشور : قوله (منكم) أي من بني آدم ، وهذا تنبيه لبَني آدم بأنّهم لا يترقّبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة ، لأنّ

المرسَل يكون من جنس من أرسل إليهم ، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرّسل لأنّهم من جنسهم ، مثل قوم نوح ، إذ قالوا (ما نراك إلا بشراً مثلنا) ومثل المشركين من أهل مكّة إذ كذّبوا رسالة محمّد ﷺ بأنّه بَشر قال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أَبَعثَ الله بشراً رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) .

(**فَمَنِ اتَّقَى**) بفعل الطاعات .

(**وَأَصْلَحَ**) نفسه وعمله .

(**فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) فيما يستقبلهم

(**وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**) على ما خلفوا من الدنيا .

- نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظراً، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتقى وأصلح ، وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- حكمة الله في أن الرسل من الإنس .

٣- أن مهمة الرسل تبليغ دين الله وبيان آياته .

٤- فضل من اتقى الله وأصلح عمله ، وهو الأمان في الدنيا والآخرة .

٥-وجوب إصلاح العمل ، بأن يكون مخلصاً على وفق الشريعة .

٦- الخوف والحزن والقلق لم لم يؤمن بالرسل ويتقى ربه .

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)**) .

[الأعراف : ٣٦] .

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**) فلم يؤمنوا بها ، وهي الوحي المنزل ، كالقرآن .

- والآيات جمع آية ، والآية تطلق في القرآن على معنيين :

المعنى الأول : الآية الكونية القدرية . (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

المعنى الثاني : الآية الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم . (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها .

(**وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا**) ولم يقبلوها وأعرضوا عنها .

(**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) أي : أصحابها الملازمين لها ، أبد الآبدين ودهرين الداهرين ، لا يخرجون منها (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

- والنار هي الدار التي أعدها الله للكافرين .
- وقوله تعالى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) وهذا الأسلوب يطلق على الذين يخلدون فيها ، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحق العذاب بالنار – فإنه لا يسمى من أصحاب النار ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وقد ذكر الله تأبيده لأهل النار في ثلاث آيات من القرآن الكريم .

في سورة النساء : قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب : قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً) .

وفي سورة الجن : قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

الفوائد :

١- أن التكذيب بآيات الله سبب للخلود في النار .

٢- أن الاستكبار عن قبول آيات الله من أسباب الخلود في النار .

٣- وجوب الإيمان بآيات الله .

٤- وجوب الانقياد لأوامر الله .

٥- ذم الكبر .

٦- إثبات النار .

٧- خلود أهل النار في النار .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ

رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)) .

[الأعراف : ٣٧- ٣٩] .

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ**) أي : لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله الكذب ، أو كذب بآياته المنزلة ، والاستفهام للإنكار .

(**أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ**) أي : يصيبهم حظهم في الدنيا مما كتب وقدّر لهم وقدر من الأرزاق والآجال ، في اللوح المحفوظ

قال مجاهد : ما وعدوا به من خير أو شر ، واختاره ابن جرير .

وقال مُحَمَّد بن كعب القرظي (أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ) قال: عمله ورزقه وعمره.

وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله [تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)وقوله (وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

- **قال الشوكاني** : وقيل : ينالهم من العذاب بقدر كفرهم.

وقيل : الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه.

(**حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ**) أي : جاءت ملائكة الموت تقبض أرواحهم .

- جاء في آية أن الله هو الذي يتوفى كما قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) وجاء في آية أخرى أن ملك الموت هو الذي يقبض الأرواح كما قال تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) وجاء في آية أخرى أن الملائكة هم الذي يقبضون الأرواح كقوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ) .

الجمع : الموت يكون بإذن الله ، وقبض الروح يكون بملك الموت ، ومعه الملائكه تساعده .

(**قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**) أي : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله ، ادعوا ليخلصوكم من العذاب .

والسؤال للتبكيت والتوبيخ .

- **قال القرطبي** (قالوا أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله) سؤال توبيخ ، ومعنى "تَدْعُونَ" تعبدون.

(**قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا**) أي : غابوا عنا .

- لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات :

الأول : إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار .

كما قال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .ومنه قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) .

ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) ، وهذا أغلب استعمال الضلال .

والثاني : هو إطلاق الضلال على الغَيْبَة والاضمحلال .

ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي : غاب واضمحل ولم يبق له أثر .

ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي : اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها .

والثالث : إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء ، فكل ما لم يهتد إلى علم شيء تقول العرب : ضل .

ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي : ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا .

وقوله (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) أي : ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء ، لأنك تظن يوسف حياً ، ولا يريدون الضلال ، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبياً من الأنبياء . (الشنقيطي) .

ومنه قوله تعالى (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) أي : لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئاً .

(**وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ**) أي : أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال .

(**قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ**) قال الله تعالى – لهؤلاء المشركين المفترين – ادخلوا النار في جملة جماعات من أمثالكم في الكفر ، قد سلفت من قبلكم من الجن والإنس .

وفي هذا دليل على أن الجني الكافر يدخل النار وهذا بالإجماع :

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) .

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) .

(**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا**) أي : كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها .

- **قال الآلوسي** : يلعن الاتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى .

والمراد ان أهل النار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (كلما دخلت أُمة لعنت أُختها) وهذه أُخُوَّةُ الدِّين والملَّة ، لا أُخُوَّةُ النسب.

(**حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا**) أي : حتى تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم .

(**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا**) قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم يا ربنا هؤلاء الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان .

- **قال ابن كثير** : أي: أخراهم دخولاً –وهم الأتباع –لأولاهم –وهم المتبوعون –لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، (**أُخْرَاهُمْ**) أي الأتباع .

(**فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ**) أي : أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسببوا في كفرنا .

كقوله تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً) .

وقوله تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

- وقد بين تعالى أن مضاعفة العذاب للمتبوعين لا تنفع الأتباع : ولا يخفف عنهم من العذاب كقوله (وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) .

(**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ**) أي : لكل من القادة والأتباع عذاب مضاعف ، أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فلكفرهم

وتقليدهم .

(**وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**) أي : ولكنكم يا معشر أهل النار لا تعلمون ما قدْرُ ما أعد الله لكم من العذاب ، فلذلك تسأل الضعف منه الأمة الكافرة الأخرى لأختها الأولى .

(**وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ**) أي : قال القادة للأتباع .

(**فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**) نحن متساوون في الغي والضلال ، وفي فِعل أسباب العذاب ، فلا فضل لكم علينا ، فقال الله لهم جميعاً :

(**فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**) وهذا الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) فهذا يحتمل أن يكون من كلام القادة ، وإن يكون من قول الله تعالى لهم جميعاً.
- واعلم أن المقصود من هذا الكلام التخويف والزجر ، لأنه تعالى لما أخبر عن الرؤساء والأتباع أن بعضهم يتبرأ عن بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، كان ذلك سبباً لوقوع الخوف الشديد في القلب.

الفوائد :

١- أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله .

٢-تهديد من كذب بآيات الله .

٣- وجوب الإيمان بآيات الله .

٤-أن الكافر في الدنيا له ما قدّر له ، وفي الآخرة ينال العذاب الأليم .

٥-إثبات أن للموت رسل .

٦- إثبات الرسل .

٧- توبيخ الكفار عند قبض أرواحهم .

٨-أن الكافر عند موته يعرف حقيقة من كان يعبده من دون الله ، وأنه لن ينجيه .

٩-اعتراف الكفار بكفرهم ، لكن حين لا ينفع الاعتراف .

١٠-أن النار مأوى الكافرين .

١١- أن الجن مكلف كما أن الإنس مكلف ، قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

١٢-تلاعن أهل النار .

١٣-تقطع المودات بين الكفار يوم القيامة .

١٤- إثبات القيامة .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا

مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)) .

[الأعراف : ١١-١٥] .

(**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ**) أي : خلقنا أباكم آدم .

(**ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**) أي : ثم صورناه أبدع تفسير وأحسن تقويم .

وقال الربيع بن أنس، والسُّدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) فدل على أن المراد بذلك آدم .

وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) والمراد: آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء .

(**ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**) أي : أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبي واستكبر وامتنع .

- قوله تعالى (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ) اختلف العلماء ما المراد بالملائكة :

فقيل : ملائكة الأرض فقط .

وقيل : ملائكة الأرض والسماء وهذا الراجح ورجحه ابن كثير ، لقوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) .

- واختلف ما المراد بالسجود :

فقيل : المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء .

وقيل : كان قبلة والسجدة لله .

وقيل : السجود لآدم إكراماً واحتراماً ، وهي طاعة لله لأنها امتثال لأمر الله تعالى . وهذا القول هو الراجح، فهذا السجود تعظيم لله لأنه امتثال أمره لا عبادة آدم ، ولا سجود إلا بأمر الله ، والأمر إن كان ممتثلاً به أمر الله فالمطاع فيه الله، ونظيره أن ملَك الموت يقال له: اقبض روح مُحَمَّد ﷺ وسائر الأنبياء، فأي جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي ﷺ ونزع روحه ، وقتل الأنبياء والأولياء ؟ لكن ملك الموت مأمور من الله ، فهو مطيع في ذلك الفعل ، لأنه إنما فعله بأمر الله .

- هذا الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم كما قال تعالى في الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) .

- إبليس سمي بذلك لأنه أبلَسَ من رحمة الله : أي أيس منها يأساً لا رجاء بعده .

- استدل بقوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس) بعض العلماء على أن إبليس من الملائكة ، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين :

القول الأول : أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن .

أ- للآية التي في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة ، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع .

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

يُؤْمَرُونَ) .

ج- ولقوله ﷺ (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار) .

القول الثاني : أنه أصله كان من الملائكة ، ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء .

واستدلوا بقوله تعالى في هذه الآية (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ) . قالوا فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم ، والراجح القول الأول .

(**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**) في هذه الآية إشكال بين قوله (مَنَعَكَ) مع (لا) النافية ؛ لأن المناسب في الظاهر لقوله (مَنَعَكَ) بحسب ما يسبق إلى ذهن السامع لا ما في نفس الأمر هو حذف (لا) فيقول (ما منعك أن تسجد) دون (ألا تسجد) .

وأجيب عن هذا بأجوبة ؛ من أقربها هو ما اختاره ابن جرير في تفسيره ، وهو أن في الكلام حذفا دل المقام عليه وعليه فالمعنى: ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد إذ أمرتك وهذا الذي اختاره ابن جرير قال ابن كثير: إنه حسن قوي .

ومن أجوبتهم أن (لا) صلة ويدل له قوله تعالى في سورة (ص) (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) الآية ، وقد وعدنا فيما مضى أنا إن شاء الله نبيّن القول بزيادة (لا) مع شواهده العربية في الجمع بين قوله (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) وبين قوله (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) .

(**قَالَ**) إبليس اللعين .

(**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ**) أنا أفضل من آدم وأشرف منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ؟

(**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**) بيّن سبب هذه الخيرية ، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين .

- وقياس إبليس هذا قياس فاسد لأمور :

أولاً : أنه في مقابلة النص ، وأي قياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار .

ثانياً : أنا لا نسلم أن النار خير من الطين ، بل الطين خير من النار ، لأن طبيعتها الطيش والإفساد والتفريق ، وطبيعته الرزانة والإصلاح .

ثالثاً : أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين ، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم ، لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع .

(**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا**) يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدري كوني (فَاهْبِطْ مِنْهَا) أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبر فيها.

قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى.

- **قال الماوردي** : قوله عز وجل (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا) فيه ثلاثة أقاويل :

أحدهما : أنه أُهْبِط من السماء لأنه كان فيها ، قاله الحسن.

والثاني : من الجنة.

والثالث : أنه أهبط من المنزلة الرفيعة التي استحقها بطاعة الله إلى المنزلة الدَّنِيَّةِ التي استوجبها لمعصيته ، قاله ابن بحر.

(**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**)

(**فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**) أي: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين

وسأل النظرة إلى يوم الدين .

قال الشيخ الشنقيطي : بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك ي قوله (إِنَّكَ مِنَ الصاغرين)، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله (اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً)، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك. وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله (إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ) .

وبين في مواضع أخر كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر – أعاذنا الله والمسلمين منه — .

فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله ، والاهتداء بها .

كما في قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق) الآية.

ومن ذلك أَنه من أسباب الثواء في النار .

كما في قوله تعالى (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) .

وقوله (إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ) .

ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى .

كما في قوله (لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين) .

ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعيذ إلا مما هو شر.

كما في قوله (وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب) إلى غير ذلك من نتائجه السيئة ، وعواقبه الوخيمة .

ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية : أن المتواضع لله جل وعلا يرفعه الله.

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر كقوله (وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً) .

وقوله (تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ) .

وقد صح عنه ﷺ أنه قال (إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد) .

وقد قال الشاعر :

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى صفحات الجو وهو وضيع . (الشنقيطي) .

(**قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِين**) أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

الفوائد :

١- إثبات القول لله .

٢- بيان فضل آدم على الملائكة ، حيث أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له ، **ولآدم فضائل** :

أنه أبو البشر – خلقه الله بيده — علمه الله أسماء كل شيء — أن الله نفخ فيه من روحه — وأسجد له الملائكة .

٣- أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة ، لأن الله تعالى يحكم بما شاء ، ويدل على أن المحرم إذا كان بأمر الله كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام ، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله.

٤- أن ترك السجود لله كفر بالله .

٥- أن الأمر يقتضي الوجوب إذا لم يوجد قرينة ، وجه الدلالة : أن الله قال للملائكة (اسجدوا) فلما امتنع إبليس وبّخه وحكم عليه بالعصيان وقال (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) . ومما يدل على أن الأمر للوجوب قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

٦- الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة ، لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى .

٧- طاعة الملائكة لربها .

٨- فضل السجود لله تعالى .

٩- خطر التكبر .

١٠- فضل التواضع .

١١- أن القياس المقابل للنص مردود .

١٢- أن من عصى مولاه فهو ذليل.

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١))

[الأعراف : ٤٠-٤١] .

(**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**) فلم يصدقوا بها .

(**وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا**) أي : بالغوا في احتقارها وعدم الاعتناء بها ، ولم يلتفتوا إليها وضموا أعينهم عنها ونبذوها وراء ظهورهم ولم يكتسوا بحلل مقتضاها ولم يعملوا به .

(**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء**) قيل: المراد : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء.

وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء.

- **قال ابن الجوزي** : ... رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول أبي موسى الأشعري ، والسدي في آخرين ، والأحاديث تشهد به.

- **وقال القرطبي** : أي لأرواحهم ، جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها في كتاب (التذكرة).

وقيل : لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم ، قال ابن كثير : وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

ويدخل لقول : لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء :

حديث البراء الطويل وفيه قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: "استعيذوا بالله من عذاب القبر". مرتين أو ثلاثًا ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة ، ... وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح، فيجلسون منه مَدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط الله وغضب ، قال: "فَتُفَرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن

ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ (لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحا". ثم قرأ: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان (٥) ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري ...) رواه أحمد .

(**وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**) قرأ الجمهور الجَمَل ، بفتح الجيم والميم ، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير ، أي : لا يمكن أن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا مستحيل .

- سم الخياط : ثقب الإبرة .
- **قال الماوردي** : ومعنى الكلام : أنهم لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في سم الخياط أبداً ، وضرب المثل بهذا أبلغ في إياسهم من إرسال الكلام وإطلاقه في النفي ، والعرب تضرب هذا للمبالغة ، قال الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي... وعاد القار كاللبن الحليب .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط) الجمل : هو الحيوان المعروف.

فإن قال قائل : كيف خص الجمل دون سائر الدواب ، وفيها ما هو أعظم منه؟ فعنه جوابان.

أحدهما : أن ضرب المثل بالجمل يحصّل المقصود ؛ والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة ، كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه ، جاز ، والناس يقولون : فلان لا يساوي درهماً ، وهذا لا يغني عنك فتيلاً ، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل.

والثاني : أن الجمل أكبر شأناً عند العرب من سائر الدواب ، فإنهم يقدّمونه في القوّة على غيره ، لأنه يوقَر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب ، ولهذا عجَّبهم من خلق الإبل ، فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى.

- **وقال الشوكاني** : وخص الجمل بالذكر ، لكونه يضرب به المثل في كبر الذات ، وخص سمّ الخياط ، وهو ثقب الإبرة بالذكر ، لكونه غاية في الضيق .
- قال بعض العلماء : ... على أن في إيثار الجمل ، وهو مما ليس من شأنه الولوج في سم الإبرة مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة .

(**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**) جمع مجرم ، والإجرام ارتكاب الجريمة ، والجريمة في لغة العرب : الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال .

(**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ**) فراش من تحتهم .

(**وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**) أغطية تغشاهم .

- **قال الماوردي** : والمراد بذلك أن النار من فوقهم ومن تحتهم ، فعبر عما تحتهم بالمهاد ، وعما فوقهم بالغواش.

كقوله تعالى (لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ يا عبادِ فاتقون) .

- **قال ابن عاشور** : والمهاد بكسر الميم ما يُمْهَد أي يفرش ، و"غواش" جمع غاشية وهي مَا يغشى الإنسانَ ، أي يغطّيه

كاللّحاف ، شبّه ما هو تحتهم من النّار بالمهاد ، وما هو فوقهم منها بالغواشي ، وذلك كناية عن انتفاء الرّاحة لهم في جهنّم ، فإنّ المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للرّاحة ، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم النّار.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) الذين عبدوا غير الله ، فإن عبادة غير الله من أعظم الظلم ، لأنها وضع للعبادة لمن لا يستحقها .

● فالشرك أعظم الظلم ، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر ، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك ،كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) ، وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال : بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم) ، وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) أي : من المشركين .

♦ الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله تعالى : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

الفوائد :

١- تهديد للمكذبين بآيات الله .

٢- تهديد للمتكبرين عن آيات الله .

٣- وجوب الإيمان بآيات الله والاستسلام لها .

٤-أن المكذبين بآيات الله لا تفتح لهم ولا لأرواحهم أبواب السماء .

٥- تحريم الجنة على المشركين والكفار .

٦- تأييس المشركين من دخول الجنة .

٧- تهديد لكل مجرم .

٨- بيان شدة من عذاب أهل النار .

٩- تهديد لكل ظالم ، وأعظم الظلم الشرك .

١٠- وجوب العدل .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)) .

[الأعراف : ٤٢] .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ) بقلوبهم .

(وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) أي : وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به .
- والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين :

الشرط الأول : أن يكون خالصاً لله ، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه .

الشرط الثاني : أن يكون متابعاً للنبي ﷺ ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

- ودائماً يقرن الله العمل بالصالح ، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ....) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

- **قال السعدي** : ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

(لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) أي : لا نكلف نفساً بعد الإيمان من العمل إلا بقدر طاقتها .

- **قال ابن عاشور** : وجملة (لا نكلف نفساً إلا وسعها) معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج.

وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين ، لأنّه لما بشّرهم بالجنّة على فعل الصّالحات ، أطْمن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصّالحة بما يخرج عن الطّاقة ، حتّى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنّة ، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم ، فإنّ ذلك يرضي ربّهم.

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) أي : أهلها الخالدون فيها .

والجنة في لغة العرب : البستان ، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه ، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان ، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) .

وأما في الاصطلاح : فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة ، وقد ورد هذا في آيات كثيرة .

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) وهذا من أعظم تمام النعيم ، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين .

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم ، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ ، وينغص اللذات ، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها ، وأنها زائلة عنه ، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم ، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً .

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة ، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت ، ويقال للموت : هاذم اللذات ، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها ، لأنه يقطعها ، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم .

وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة .

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، لا تبلى ثيابُه ، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ينادِ مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح ، فيقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه .

- **قال الرازي** :اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد ، وذلك لفوائد :

أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه ، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان .

وثانيها : أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه .

وثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

الفوائد :

١- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة .

٢- أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحاً .

٣- الحذر من الرياء .

٤- يسر الشريعة الإسلامية .

٥- أن الله لا يكلف العبد إلا ما في وسعه .

٦-أن أهل الإيمان هم أهل الجنة .

٧- إثبات الجنة .

٨- من أعظم نعيم الجنة الخلود وعدم الموت .

٩- أن من عيوب الدنيا الموت والرحيل عنها (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) فلا خلود في الدنيا .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)) .

[الأعراف : ٤٣] .

(**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**) هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة ، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضاً ، حتى تصفو قلوبهم ويودّ بعضهم بعضاً ، فإن الغلّ لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا ، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة ، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر.

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا) رواه البخاري .

قال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) .

والغلّ : الحقد الكامن في الصدور.

وهذا من أعظم اللذات : حيث يكون الإنسان خالداً مخلداً ، وحيث يكون هو ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء ولا عداوة ولا حقد ولا حسد .

- **والحكمة من ذلك :**

قيل : حتى يكونوا إخواناً متحابين ، وأخلاء متصافين .

وقيل : أن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان ، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة .

وقيل : قال ابن عطية : هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد ، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة .

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ**) أي من تحت أشجاره الجنة ، قال ابن القيم : وهذا يدل على أمور :

أحدها : وجود الأنهار فيها . **الثاني** : أنها جارية لا واقفة . **الثالثة** : أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا .

- وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) .

قال ابن القيم : فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا .

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، **وآفة اللبن** أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً ، **وآفة الخمر** كراهة مذاقها المنافي للذة شربها ، **وآفة العسل** عدم تصفيته ، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر

العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

(**وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**) أي لهذا الجزاء العظيم ، وهو الخلود في الجنة ، ونزع الغلّ من صدورهم .

(**وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ**) إلى الطريق .

(**لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**) لنا .

(**لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**) اللام لام القسم ، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم ، اغتباطاً بما صاروا فيه بسبب ما تقدّم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه.

(**وَنُودُواْ**) تهنئة لهم ، وإكراماً ، وتحية ، واحتراماً .

(**أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا**) أي : أعطيتموها ، فإيراث الجنة إعطاؤها ، خلافا لمن زعم أن معنى ذلك : أن الله جعل لكل نفس منفوسة مسكنا في الجنة ومسكناً في النار ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، اطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار لو أنهم كفروا بالله وعصوه لتزداد غبطتهم وسرورهم .

(**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي : بسبب أعمالكم

فإن قيل : ما الجمع بين هذه الآية وأمثالها ، وبين قوله ﷺ (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) ؟

قيل : أن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله ، كما في الحديث ، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال .

وهذا مذهب ابن بطال ، والقرطبي في تفسيره .

وقيل : إن دخول الجنة برحمة الله ، ومن رحمة الله وفق العبد للعمل ويسره له حتى به الجنة ، فهذا العمل من رحمة الله

- **قال النووي** : ...وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (أُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْك الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة ، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث ، بَلْ مَعْنَى الْآيَات : أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال ، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا ، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْله ، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل . وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث ، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا ، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة . وَاَللَّه أَعْلَم .
- **وقال ابن رجب** : ...وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة ، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد – والله أعلم – أنَّ العملَ بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك ، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده ، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته .

الفوائد :

١– من نعيم الجنة طهارة قلوبهم من الغل والحسد .

٢– أن الغل والحسد سبب لعدم صفاء الحياة وتنغصها .

٣– فضل من طهر قلبه من الغل والحسد في هذه الدنيا .

٤–من نعيم الجنة وجود الأنهار التي تجري من تحتهم .

٥- فضل كلمة : الحمد لله .

٦- أن الهداية للعمل الصالح من الله .

٧- أن دخول الجنة بفضل الله ورحمته .

٨- توفيق العبد للأعمال الصالحات من نعمة الله عليه وهدايته .

٩-على العبد أن يحرص على الأعمال الصالحة ليزداد إيماناً وهدى ، فيرحمه الله فيدخله الجنة .

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)

[الأعراف : ٤٤ – ٤٥] .

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ) يخبر تعالى بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم ، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) (أن) هاهنا مفسِّرة للقول المحذوف، و"قد" للتحقيق، أي: قالوا لهم (قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ) .

- **قال الشوكاني** : مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به ، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم .
- **قال السمرقندي** : قوله تعالى (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا) أي : ما وعدنا يعني : في الدنيا من الثواب وجدناه صدقاً (فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ) من العذاب على الكفر والمعاصي (حَقّاً) أي صدقاً (قَالُواْ نَعَمْ) فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الاعتراف.
- **قال السعدي** : فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله ، ومن أصدق من الله قيلاً ، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب.
- **قال ابن عطية** : وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب .
- **قال أبو حيان** : عبر بالماضي عن المستقبل لتحقّق وقوعه .
- كما أخبر تعالى في سورة "الصافات" عن الذي كان له قرين من الكفار (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ . وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) ، أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال .

وكذا تقرعهم الملائكة يقولون لهم (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وكذلك قرع رسولُ الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، فنادى : يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة –وسمى رءوسهم–: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا، وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جَيفوا؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا .

- هذا النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض ؟

والجواب : أن قوله (وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار) يفيد العموم ، والجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، وكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في الدنيا.

(**فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ**) أي: أعلم معلم ونادى مُنَاد .

- التأذن : رفع الصوت بالإعلام بالشيء. واللعنة : الطرد والإبعاد مع الخزي والإهانة.
- وفي قوله : فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ. نكر المؤذن لأن معرفته غير مقصودة بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عن رسول الله ﷺ فيه شيء ، فهو من أمور الغيب التي لا تعلم علماً صحيحاً إلا بالتوقيف المستند إلى الوحي ، وما ورد في ذلك فهو من الآثار التي لا يعتمد عليها.

(**أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**) الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والتكذيب .

- ♦ الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله تعالى : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

(**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**) أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء .

(**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**) ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد.

(**وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ**) أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حسابًا عليه، ولا عقابًا، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً .

الفوائد :

١- فرح أهل الجنة بنعيم الجنة .

٢- من نعيم أهل الجنة رؤيتهم لأهل النار وهم يعذبون ، فيحمدون ربهم على توفيقه لهم .

٣- من عذاب أهل النار التبكيت والتقريع .

٤-أن في يوم القيامة كل الناس يعرفون الحق ويندمون ، لكن لا ينفع الندم في ذلك اليوم .

٥-تهديد للظالمين .

٦- تحريم الظلم بجميع أنواعه ، وأخطرها وأعظمها الشرك .

٧-من صفات الكفار : الصد عن سبيل الله ، والتماس الاعوجاج لدين الله ، والكفر بالآخرة .

٨- وجوب الإيمان بالآخرة .

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)) .

[الأعراف : ٤٦- ٤٩] .

(**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ**) يعني : بين الجنة والنار ، أو بين الفريقين ، وهذا الحجاب هو المشهور المذكور في قوله (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ) .

(**وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ**) الأعراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذي يكون في أعلى الرقبة.

- **قال الشوكاني** : الأعراف : جمع عرف ، وهي شرفات السور المضروب بينهم ، ومنه عرف الفرس وعرف الديك والأعراف في اللغة : المكان المرتفع ، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .
- والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز - أي في أعـــلاه – رجـــال يرون أهل الجنة وأهل النار ، فيعرفون كلاً منهم بسيماهم وعلاماتهم التي وصفهم الله بها في كتابه كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة ، وسوادها بالنسبة لأهل النار ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم وتحية لكم لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ.
- فهو سور عالٍ يطلّع منه أصحابه على أهل الجنة وعلى أهل النَّار ، ثم يُدخلهم ربهم عز وجل في آخر المطاف جنَّته ولا يدخلون النار . (وقد تقدم أن الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف) .
- وقد اختلف العلماء في المراد بأصحاب الأعراف على أقوال كثيرة :

قيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

قال حذيفة وعبد الله بن عباس : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته .

عن ابن مسعود قال : ... ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرَفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا (سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ) وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار (قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فأما أصحاب الحسنات فإنهم يُعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويُعطى كل عبد يومئذ نوراً فإذا أتوا على

الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون (قَالُوا رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا) . وأما أصحاب الأعراف : فإن النور لم ينزع من أيديهم فيقول الله (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) فكان الطمع للنور الذي في أيديهم ، ثم أدخلوا الجنة ، وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً " .

وقيل : هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم ، فقتلوا ، فأعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله ، وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم ، وهذا من جنس القول الأول .

وقيل : هم قوم رضي عنهم أحدُ الأبوين دون الآخر يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة ، وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما .

وقيل : هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين .

و**قيل** : هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعاً .

وقيل : هم الملائكة لا من بني آدم .

والثابت عن الصحابة هو القول الأول ، وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها ، وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة .

والقول بأنهم ملائكة هو قول أبي مِجلَز لاحق بن حُمَيد ، وهو بعيد عن الصواب .

- **قال السيوطي – رحمه الله –** : وقد نقل القول عنه رحمه الله – :قال الحليمي في " المنهاج " ثم القونوي في " مختصره " : وقد قيل : " إن أصحاب الأعراف ملائكة يحبون أهل الجنة ويبكّتون أهل النار " ، وهو بعيد لوجهين :

أحدهما : قوله تعالى (وَعَلى الأَعرافِ رِجالٌ) والرجال : الذكور العقلاء ، والملائكة لا ينقسمون إلى ذكور وإناث .

والثاني : إخباره تعالى عنهم وأنهم يطمعون أن يدخلوا الجنة ، والملائكة غير محجوبين عنها ، كيف والحيلولة بين الطامع وطمعه تعذيب له ، ولا عذاب يومئذ على ملك .

- **قال ابن الجوزي** : وفي "أصحاب الأعراف" قولان.

أحدهما : أنهم من بني آدم ، قاله الجمهور.

والقول الثاني : أنهم ملائكة ، قاله أبو مجلز ، واعتُرض عليه ، فقيل : إنهم رجال فكيف تقول : ملائكة؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث .

(**يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ**) يعني : أن أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة إذا مروا بهم ببياض وجوههم ، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم والسيما هي العلامة .

- **قال ابن الجوزي** : أي : يعرف أصحابُ الأعراف أهل الجنة وأهل النار ، وسيما أهل الجنة : بياض الوجوه ، وسيما أهل النار : سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، والسيما : العلامة.

وإنما عرفوا الناس ، لأنهم على مكانٍ عالٍ يشرفون فيه على أهل الجنة والنار.

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ، يَعْرِفُونَ كُلًّا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيمَاهُمْ، وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا سِيمَا أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَا أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ لِذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ ، كَقَوْلِهِ (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) .

فَبَيَاضُ الْوُجُوهِ وَحُسْنُهَا سِيمَا أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَسَوَادُهَا وَقُبْحُهَا وَزُرْقَةُ الْعُيُونِ سِيمَا أَهْلِ النَّارِ ، كَمَا قَالَ أَيْضًا فِي سِيمَا أَهْلِ الْجَنَّةِ (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) وَقَالَ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ) وَقَالَ فِي سِيمَا أَهْلِ النَّارِ (كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ

مُظْلِمًا) ، وَقَالَ (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) ، وَقَالَ (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) .

(**وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ**) يعني : إنّ أهل الأعراف يسلّمون على أهل الجنة .

(**لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**) يعني : أنّ أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ، وهم يطمعون أنْ يَدخلوها.

قال الحسن : والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدهم بها.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (ونادَوا) يعني : أصحاب الأعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) وفي قوله (لم يدخلوها وهم يطمعون) قولان.

أحدهما : أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها ، قاله الجمهور.

والثاني : أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يُذهَب بها إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها ، هذا قول السدي.

(**وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ**) يعني وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار يعني وجاههم وحيالهم فنظروا إليهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب .

(**قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) يعني الذين ظلموا أنفسهم بالشرك .

- **قال السعدي** : قوله تعالى (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ) ورأوا منظرا شنيعا، وهَوْلا فظيعا (قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فأهل الجنة [إذا رآهم أهل الأعراف] يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

- **قال أبو حيان** : في قوله (صرفت) دليل أنّ أكثر أحوالهم النظر إلى تلقاء أصحاب الجنة ، وأن نظرهم إلى أصحاب النار هو بكونهم صرفت أبصارهم تلقاءهم ، فليس الصّرف من قبلهم ، بل هم محمولون عليه مفعول بهم ذلك ، لأنّ ذلك المطلع مخوف من سماعه فضلاً عن رؤيته فضلاً عن التلبيس به ، والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما هم عليه من العذاب استغاثوا بربّهم من أن يجعلهم معهم .

(**وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً**) من الكفار .

(**يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ**) أي : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الذلة على وجوههم. أو يعرفونهم بصورهم التي كانوا يعرفونهم بها في الدنيا.

(**قَالُواْ**) لهم تبكيتاً وتوبيخاً .

(**مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**) أي : ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم في الأرض بغير الحق. فقد صرتم في الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (ما أغنى عنكم جمعكم) الذي كنتم تجمعـون للصد عن سبيل الله ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

- في هذه لْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ قَالُوا لِرِجَالٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ : يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ ، وَلَا كَثْرَةُ جَمَاعَتِكُمْ وَأَنْصَارِكُمْ ، وَلَا اسْتِكْبَارُكُمْ فِي الدُّنْيَا .

وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ وَجْهَ ذَلِكَ : وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُحْشَرُ فَرْدًا ، لَا مَالَ مَعَهُ ، وَلَا نَاصِرَ ، وَلَا خَادِمَ ، وَلَا حَوَلَ . وَأَنَّ اسْتِكْبَارَهُ فِي الدُّنْيَا يُجْزَى بِهِ عَذَابَ الْهُوْنِ فِي الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ

وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) ، وَقَوْلِهِ (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) ، وَقَوْلِهِ (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) وَقَوْلِهِ (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) . (أضواء البيان) .

(**أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ**) ثم زادوا على هذا التبكيت ، وهو قولهم (أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ) فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة ، كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم ، وربما هزؤوا بهم ، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم ، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية لمن كان مستضعفاً عنده قلق لذلك ، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) هذا من كلام أصحاب الأعراف ، أي قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة ، وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم ، وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم.

(**ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**) اختلف العلماء في هذه الآية على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف ، وقد ذكرناه.

والثاني : أن يكون خطاباً من الله لأهل الجنة.

والثالث : أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة ، ذكرهما الزجاج.

فعلى هذا الوجه الأخير ، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة (ادخلوا الجنة) اعلوا إلى القصور المشرفة ، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة ، لأنهم قد رأوهم في الجنة. (زاد المسير) .

الفوائد :

١- وجود الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار .

٢-أن الناس ينقسمون في يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام .

٣- أن لأهل الجنة سيما ، ولأهل النار سيما يعرفون بها .

٤- شدة عذاب أهل النار .

٥- أن من عذاب أهل النار العذاب النفسي .

٦-على المسلم أن يدعو الله أن ينجيه من طريق الظالمين .

٧-شدة حسرة أهل النار يوم القيامة .

٨- في يوم القيامة لا ينفع مال ولا كثرة ، وإنما ينفع الإيمان والعمل الصالح .

٩- خطر الاستكبار .

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١))

[الأعراف : ٥٠-٥١] .

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (أَفِيضُواْ) كالدلالة على أن أهل الجنة أعلى مكاناً من أهل النار.

فإن قيل : أسألوا مع الرجاء والجواز ، أو مع اليأس ؟

قلنا : ما حكيناه عن ابن عباس يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول.

وقال القاضي : بل مع اليأس ، لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم ، ولكن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل : الغريق يتعلق بالزبد ، وإن علم أنه لا يغيثه.

وقوله : (أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله) قيل إنه الثمار ، وقيل إنه الطعام ، وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد ، والجوع الشديد لهم .

- **قال ابن عطية** : والأشنع على الكافرين في هذه المقالة أن يكون بعضهم يرى بعضاً فإنه أخزى وأنكى للنفس ، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى .
- **قال ابن عاشور** : فالفيض في الآية إذا حمل على حقيقته كان أصحاب النّار طالبين من أصحاب الجنّة أن يصبّوا عليهم ماء ليشربوا منه ، وعلى هذا المعنى حمله المفسّرون .
- **قال القرطبي** : في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال.

وقد سئل ابن عباس : أي الصدقة أفضل؟ فقال : الماء ، ألم تَرَوْا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة "أن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ"؟.

وروى أبو داود " أن سعداً أتى النبيّ ﷺ فقال : أيّ الصدقة أعجب إليك؟ قال : "الماء".

وفي رواية : فحفر بئراً فقال "هذه لأمّ سعد".

وعن أنس قال : قال سعد : يا رسول الله ، إن أمّ سعد كانت تحب الصدقة ، أفينفعها أن أتصدّق عنها؟ قال : "نعم وعليك بالماء" " وفي رواية أن النبي ﷺ أمر سعد بن عُبادة أن يسقي عنها الماء.

فدلّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء.

وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب ، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً وأحياه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّى. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِىَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ ».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ ».

وعكس هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : " عُذّبت امرأة في هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض "

وعند البخاري من حديث أسماء (... فَإِذَا امْرَأَةٌ – حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ – تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ قُلْتُ مَا شَأْنُ هَذِهِ قَالُوا حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا لاَ أَطْعَمَتْهَا ، وَلاَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ) .

وفي حديث عائشة عن النبيّ ﷺ : " ومن سَقَى مسلماً شَربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها " خرّجه ابن ماجه في السُّنَن.

(**الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا**) أي : بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام .

- **قال الخازن** : وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه.

وقال القاسمي : واللهو : كل ما صد عن الحق ، واللعب : كل أمر باطل ، أي : ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم وديدنهم .

(**وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**) بزينتها وزخرفها ، وكثرة دعاتها ، فاطمأنوا إليها ، ورضوا بها ، وفرحوا ، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

- وسميت الدنيا لسببين :

السبب الأول : لأنها قبل الآخرة في الزمن .

السبب الثاني : لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة . كما قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي ، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

- فيه الحذر من الاغترار بالدنيا :

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال تعالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) .

وقال ﷺ (إن هذه الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ....) .

وقال ﷺ (ما الفقر أخشى عليكم ....) .

وكان النبي ﷺ يستعيذ من فتنة الدنيا :

عَنْ مُصْعَبٍ كَانَ سَعْدٌ يَأْمُرُ بِخَمْسٍ وَيَذْكُرُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا يَعْنِي فِتْنَةَ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي .

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله : ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر .

وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور) .

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر ، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده ﷺ وأرضاه ، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ، قال الإمام النووي رحمه الله في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه) .

- **من أقوال السلف :**

قال موسى عليه الصلاة والسلام : الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها .

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه : من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً .

وقال : مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم : مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتؤمّلون ما لا تأخذون ، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً ، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد .

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل : ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا .

(**فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ**) أي : نتركهم في العذاب .

(**كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا**) كما تركوا العمل للقاء يومهم هـذا .

- **قال الرازي** : والمعنى : نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ، وهذا قول الحسن ومجاهد والسدي والأكثرين.
- **وقال ابن عطية** : والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك ، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ، قاله ابن عباس وجماعة من المفسرين .
- النسيان في القرآن يطلق على معنيين :

المعنى الأولى : بمعنى الترك : ومنه قوله تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) نسوا الله : أي : تركوه فلم يقوموا بحقه ، فنسيهم : تركهم سبحانه فلم يجبهم ، ومنه قوله تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) أي تركوه (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أي : جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه ، ومنه قوله تعالى (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ) أي : نتركك في النار .

المعنى الثاني : الذهول عن الشيء المعلوم ، ومنه قوله تعالى (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المراد بالنسيان : الذهول عن شيء معلوم ، فالله تعالى أحصاه ، لكن هؤلاء نسوه ، وهذا المعنى لا يوصف به الله تعالى .

(**وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**) ولكونهم بأدلة الله وبراهينه ينكرون مع علمهم بأنها حق .

الفوائد :

١- إثبات كلام أهل الجنة وأهل النار .

٢-أن أصحاب النار هم أهلها الذين لا يخرجون منها وهم الكفار .

٣-شدة عذاب أهل النار .

٤-أن أهل النار في عذاب دائم .

٥- خطر الاستهزاء والسخرية من الدين أو من دعاة الحق .

٦- أن السخرية والاستهزاء بالدين من صفات الكفار .

٧- خطر الحياة الدنيا وزخرفها وزينتها .

٨- يجب على المسلم أن يحذر من فتن الدنيا .

٩- تنزيه الله عن النسيان وعن كل صفة نقص .

١٠- وجوب الإيمان بلقاء الله .

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)) .

[الأعراف : ٥٢] .

(**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ** ...) أي : ولقد جئنا الكفار بقرآن أنزلناه عليك – أيها الرسول – بيّناه مشتملاً على علم عظيم ، هادياً من الضلالة إلى الرشد ، ورحمة لقوم يؤمنون بالله ويعملون بشرعه .

- والمعنى : ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا مُحَمَّد بكتاب عظيم الشأن ، كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلاً حكيماً ، وبينا فيه ما هم في حاجة إليه من أمور الدنيا والآخرة بياناً شافياً يؤدي إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا بهديه ». (التفسير الوسيط) .

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وقيل هو لهم وللمؤمنين ، والمراد بالكتاب : القرآن الكريم.

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ، كما قال تعالى (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

- **قال السمرقندي** : قوله تعالى (على عِلْمٍ) أي : بعلم منا (هُدًى) يعني: بياناً من الضلالة، ويقال: جعلناه هادياً. (وَرَحْمَةً) أي : نعمة ونجاة من العذاب (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يعني: لمن آمن وصدق به، يعني: أكرمناهم بهذا الكتاب فلم يؤمنوا ولم يصدقوا، وإنما أضافه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين يهتدون به ويستوجبون به الرحمة.

- **قال الشوكاني** : والمراد بالكتاب الجنس ، إن كان الضمير للكفار جميعاً ، وإن كان للمعاصرين للنبي ﷺ ، فالمراد بالكتاب : القرآن ، والتفصيل التبيين .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (فصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ) فيه وجهان :

أحدهما : بيَّنَّا ما فيه من الحلال والحرام على علم بالمصلحة.

والثاني : ميزنا به الهدى من الضلالة على علم بالثواب والعقاب.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (فصَّلناه) أي : بيَّنَّاه بإيضاح الحق من الباطل.

وقيل : فصَّلناه فصولاً : مرة بتعريف الحلال ، ومرة بتعريف الحرام ، ومرة بالوعد ، ومرة بالوعيد ، ومرة بحديث الأمم.

وفي قوله : (على علم) قولان.

أحدهما : على علم منا بما فصَّلناه.

والثاني : على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه. (زاد المسير) .

- **قال السعدي** : قوله تعالى (عَلَى عِلْمٍ) من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء،

ووسعت رحمته كل شيء.

● والمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما في هذا القرآن من أحكام وتفصيل وهداية ، لم يحصل عبثاً ، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من فوائد متكاثرة ، ومنافع متزايدة.

(**هُدًى وَرَحْمَةً**) أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

(**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) بالله ويعملون بشرعه .

قال القرطبي : قوله تعالى (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به.

الفوائد :

١- عظمة الله تعالى .

٢-أن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

٣-أن من أسماء القرآن الكتاب .

٤- أن هذا القرآن العظيم كامل شامل فيه الهداية والنور .

٥- الحرص على القرآن الكريم تلاوة وتدبراً وتفهماً ، لأن فيه الهدى والرحمة .

٦- أنه لا يستفيد من القرآن وهدايته إلا من آمن واتبع الحق .

(الجمعة/٢٧/٢/١٤٣٦هـ)

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٥٣)) .

[الأعراف : ٥٣] .

(**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ**) النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية. فالمراد بـ (ينظرون) : ينتظرون ويتوقعون ، وتأويل الشيء : مرجعه ومصيره الذي يئول إليه ذلك الشيء والاستفهام بمعنى النفي.

والمعنى : إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شيء ينتظرونه بعد أن أصروا على شركهم إلا ما يئول إليه أمر هذا الكتاب وما تتجلى عنه عاقبته ، من تبين صدقه ، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد والبعث والحساب ، وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه.

● والتأويل يطلق في القرآن على إطلاقين :

الأول : بمعنى التفسير .

كما قال تعالى (... نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

وكقوله ﷺ لابن عباس (... وعلمه التأويل) أي : التفسير .

وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كما يقول ابن جرير وأمثاله – من المصنفين في التفسير – واختلف علماء التأويل ومجاهد إمام المفسرين .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وعلى تفسيره يعتمد الشافعي وأحمد والبخاري وغيرهما .

الثاني : عاقبة الشيء وما يؤول إليه .

كهذه الآية (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ....) .

وقوله تعالى (ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (ينظرون) معناه ينتظرون ، و(التأويل) في هذا الموضع بمعنى المآل والعاقبة .

فإن قيل : كيف ينتظرون ذلك مع كفرهم به؟

فالجواب : أنهم قبل وقوع ما هو محقق الوقوع ، صاروا كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به ، وسينزل بهم لا محالة.

(**يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**) يعني يوم القيامة ، لأنه يوم الجزاء ، وما تؤول إليه أمورهم .

(**يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ**) أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا .

- والنسيان في القرآن يطلق على معنيين :

المعنى الأولى : بمعنى الترك : ومنه قوله تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) نسوا الله : أي : تركوه فلم يقوموا بحقه ، فنسيهم : تركهم سبحانه فلم يجبهم ، ومنه قوله تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) أي تركوه (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أي : جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه ، ومنه قوله تعالى (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ) أي : نتركك في النار .

المعنى الثاني : الذهول عن الشيء المعلوم ، ومنه قوله تعالى (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المراد بالنسيان : الذهول عن شيء معلوم ، فالله تعالى أحصاه ، لكن هؤلاء نسوه ، وهذا المعنى لا يوصف به الله تعالى .

(**قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا**) أي : في خلاصنا مما نحن فيه .

"والشفعاء" جمع شفيع وهو الذي يسعى بالشّفاعة، وهم يُسمّون أصنامهم شفعاء قال تعالى (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله).

(**أَوْ نُرَدُّ**) إلى الدار الدنيا .

(**فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**) كما قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

(**قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ**) أي: قد خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيه .

(**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**) أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ) .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن الكفار ، إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق ، ويتمنون أحد أمرين: أن يشفع لهم شفعاء فينقذوهم ، أو يردوا إلى الدنيا ليصدقوا الرسل ، ويعملوا بما يرضي الله ، ولم يبين هنا هل يشفع لهم أحد؟ وهل يردون؟ وماذا يفعلون لو ردوا ؟ وهل اعترافهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم ؟

ولكنه تعالى بين ذلك كله في مواضع أخر ، فبين : أنهم لا يشفع لهم أحد :

بقوله (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ) الآية ، وقوله (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين) .

وبين أنهم لا يردون في مواضع متعددة :

كقوله (وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ

نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ) .

فقوله (ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) دليل على أن النار وجبت لهم ، فلا يردون ، ولا يعذرون .

وقوله (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير) .

فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا. بالإمهال مدة يتذكرون فيها. وإنذار الرسل ، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى ، وأشار إلى ذلك بقوله (أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ) جواباً لقولهم (أَخِّرْنَآ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل) .

وقوله (ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ) بعد قوله تعالى عنهم (فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) ، وقوله (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ) الآية ، بعد قوله (وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ) ، وقوله هنا (قَدْ خسروا أَنْفُسَهُمْ) الآية بعد قوله (فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ) .

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا ، وعلى وجوب العذاب ، وأنه لا محيص لهم عنه.

وبين في موضع آخر أنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر والطغيان.

وهو قوله (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ) الآية .

وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد ، فهو تعلى أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون كما صرح به في قوله (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) ، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة كما بينه بقوله (لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفتنة) الآية ، ونظير ذلك قوله تعالى (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في مواضع أخر أن اعترافهم هذا بقولهم (لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ونودوا) لا ينفعهم .

كقوله تعالى (فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير) ، وقوله (بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين) ، ونحو ذلك من الآيات.

الفوائد :

١- تهديد المكذبين بوعد الله .

٢-أن أهل الكفر والضلال يعترفون يوم القيامة أن الرسل كانت على حق لكن لا ينفعهم ذلك .

٣- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٤- إثبات إرسال الرسل .

٥- أن الكافر المكذب لا تنفعه شفاعة .

٦- أنه لا رجعة إلى الدنيا يوم القيامة ، لأن دار الدنيا هي دار العمل ، فمن لم يعمل بها يؤمن ويتوب فلن يرجع .

٧-الحث على استغلال الدنيا بالطاعات والأعمال الصالحات ، لأنها دار عمل ، فاليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)) .

[الأعراف : ٥٤] .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أي أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان .

- **قال ابن كثير** : يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم : سماواته وأرضه ، وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي : الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء، والخميس، والجمعة – وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم ، عليه السلام.

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

قال ابن عطية : وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد ، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.
- **وقال ابن كثير** : والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة –وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.
- **وقد اختلف في مقدار هذه الأيام :**

فقيل : كأيامنا هذه .

لأن الله أطلقها ، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه .

وقيل : كل يوم مقدار خمسين ألف سنة .

وقيل : المراد باليوم لحظة .

والراجح الأول .

- **فإن قيل : أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة ؟**

فالجواب : بلى ، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء ، وقدرته سبحانه ليس لها حدود ، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة ، ومنتهى الأمر والقضاء ، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد ، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض .

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن ــ أي : مرة واحدة ــ فيكون ، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى (...قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسيره هذه الآية (٢٦١/٤) : (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى توكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قولة فيكون) أ.هـ.

وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين :

الحكمة الأولى : أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض ، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها .

الحكمة الثانية : أن الله علم عباده التؤدة والتأني ، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه .

– هذه الأيام أربعة منها للأرض ، ويومان للماء ، كما فصل ذلك في سورة فصلت : (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) .

- **قال الإمام القرطبي** : وذكر هذه المدة – أي ستة أيام – ولو أراد خلقها في لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد:
  - أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.
  - ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء....
  - وحكمة أخرى : خلقها في ستة أيام ؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب ؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ...) .
- **وقال ابن الجوزي** : فإن قيل : فهلا خلقها في لحظة ، فإنه قادر ؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها : أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده ، ذكره ابن الأنباري.

والثاني : أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده ، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث : أن التعجيل أبلغ في القدرة ، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون) .

والرابع : أنه علّم عباده التثبت ، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس : أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء ، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق .) ا.هـ.

- **وقال القاضي أبو السعود** (... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار ، واعتبار للنظار ، وحث على التأني في الأمور) ا.هـ.
- فإن قيل : ما الجواب : عن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِى آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ) رواه مسلم .

فإنه يقتضي أن الأيام سبعة .

فالجواب : أن المحققين من العلماء على تضعيفه .

لمخالفته ظاهر القرآن الكريم ، الذي يصرح بأن خلق السماوات والأرض وما فيهما تم في ستة أيام : يومان للسماء ، وأربعة أيام

للأرض وما فيها ، كما قال تعالى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) .

وممن ضعفه : علي بن المديني ، والبخاري ، ويحي بن معين ، وعبد الرحمن بن مهدي ، والبيهقي ، وابن تيمية ، وابن القيم .

قال الإمام البخاري رحمه الله "وقال بعضهم : عن أبي هريرة عن كعب ، وهو أصح . (التاريخ الكبير) .

وقال ابن تيمية : وكذلك روى مسلم : (خلق الله التربة يوم السبت) ، ونازعه فيه من هو أعلم منه ، كيحيى بن معين ، والبخاري ، وغيرهما ، فبينوا أن هذا غلط ، ليس هذا من كلام النبي ﷺ ، والحجة مع هؤلاء ، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن آخر ما خلقه هو آدم ، وكان خلقه يوم الجمعة ، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة ، وقد رُوي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد .

(**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) أي : علا وارتفع على العرش ، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته .

- **والعرش** : ذلك السقف المحيط بالمخلوقات ، وهو من أعظم المخلوقات .
- وفي الآية إثبات العرش .

والعرش : لغة عبارة عن السرير الذي للملك ، سمي عرشاً لارتفاعه عليه

وشرعاً : هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف هذه المخلوقات ، **وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة** .

وصفه بالعظمة :

قال تعالى (ورب العرش العظيم) .

ووصفه بأنه كريم :

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم) .

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش :

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) .

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة :

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...) .

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض :

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) .

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس :

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن) .

وله قوائم :

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

- في هذه الآية إثبات أن الله مستو على عرشه ، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة ، استواء يليق بجلاله من غير تكييف .

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن .

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء ، واستدلوا بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله .

(**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**) أي : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ، أي : سريعًا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب هذا ، كما قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) . قوله (وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) أي : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره لا واسطة بينهما . (تفسير ابن كثير) .

- **قال الشنقيطي** : ومعنَى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) العربُ تقولُ: أَغْشَاهُ الشيءُ يغشيه. إذا جعلَه غشاءً له وساترًا ومغطيًا له.

معناه: يجعلُ الليلَ مُغْشِيًا للنهارِ، أي: مُغَطِّيًا ضوءَ النهارِ بظلامِه، يذهبُ بضوءِ النهارِ ويغطي ضوءَه بظلامِ الليلِ.

وهذا من غرائبِ صنعِه وعجائبِ آياتِه. وفي الآيةِ محذوفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: وَيُغْشِي النهارُ الليلَ أيضًا، فيأتِي ضوءُ النهارِ وَيغْشَى ظلامَ الليلِ فَيُذْهِبُهُ ويحل محلَّه، كما قال: (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللَّهِ – جل وعلا – الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللَّهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونِهما آيتين وكونهما نعمتين، وَبيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعني النهار.

فجعل الليلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا للسكونِ والهدوءِ وعدمِ الحركةِ ليستريحَ الناسُ من كَدِّ الأعمالِ والتعبِ في النهارِ، ثم يجعلُ النهارَ مُضِيئًا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ الناسِ في حوائجِهم واكتسابِ معايشهم في نورٍ ساطعٍ من غيرِ فتيلةٍ ولاَ زيتٍ ولاَ حاجةٍ إلى مؤنة .

- **قال الآلوسي** : وقوله تعالى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) أي : يغطيه به، يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار، فيغطيه ويلبسه، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً .
- **وقال ابن عاشور** : والإغشاء والتّغشية : جعل الشّيء غاشياً ، والغَشْي والغشيان حقيقته التّغطيّة والغمّ.

فمعنى (يغشى الليل النهار) أنّ الله يجعل أحدهما غاشياً الآخر ، والغشي مستعار للإخفاء .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) الحثيثُ: أصلُ الحثِّ لغةِ العربِ: الإسراعُ والاستعجالُ . أي: يطلبُه طَلَبًا حَثِيثًا مسرعًا غايةَ الإسراعِ فلاَ يُمْهِلُهُ دقيقةً، عندما ينتهي وقتُ النهارِ فإذا الليلُ يطلبُه طلبًا مسرعًا فيحلُّ محلَّه في أسرعِ ما يكونُ، وليس بينَهما واسطةٌ بحيث تكونُ ليست من النهارِ ولاَ من الليلِ

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**) قرأ هذا الحرفَ عامةُ القراءِ ما عدا ابنَ عامرٍ (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) بنصبِ الأسماءِ الأربعةِ؛ فقولُه (الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) معطوفاتٌ على قولِه (السَّمَاوَاتِ) (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ) وخلقَ الشمسَ والقمرَ، وخلقَ النجومَ في حالِ كونِ المذكوراتِ مسخراتٍ بِأَمْرِهِ.

والتسخيرُ: التذليلُ. فقد سَخَّرَ الشمسَ لمنافعِ هذا الْخَلْقِ؛ ولأنها آيةٌ عُظْمَى كما قال (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) يُطْلِعُهَا في كُلِّ يومٍ، ويسيرها بحسابٍ معلومٍ طرقها وسيرها بتسخيرِ رَبِّ العالمينَ دائبة. وكذلك سَخَّرَ القمرَ على سَيْرِهِ المعتادِ، وحسابِه المعروفِ، نعرفُ بهما عددَ السنين والشهورِ والحسابَ، وكذلك سَخَّرَ النجومَ ليهتديَ بها خَلْقُهُ، وليزينَ بها السماءَ، ويطردَ بها الشياطينَ. فهذه المخلوقاتُ العظامُ العلويةُ سَخَّرَهَا خالقُ السماواتِ والأرضِ للاعتبارِ بها، ولمنافعِ خَلْقِهِ منها .

(**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**) ا (ألا) حرفُ استفتاحٍ وتنبيهٍ. (له) أي: لِلَّهِ (جل وعلا) وحدَه {الْخَلْقُ} لأنه خالقُ كُلِّ شيءٍ.

وأصلُ الخلقِ في لغةِ العربِ التقديرُ، فَكُلُّ شيءٍ قَدَّرْتَهُ فقد خَلَقْتَهُ.

كما قال (الْخَالِقُ الْبَارِئُ) يعني: يَخْلُقُهَا وَيُقَدِّرُهَا ثم يبرؤها وَيَفْرِيهَا وينجزها.

(**والْأَمْرُ**) لأَنَّ اللَّهَ خالقُ كُلِّ شيءٍ، وله الأمرُ، هو الذي وحدَه له الأمرُ، يأمر بما شاءَ بأوامرِه الكونيةِ وأوامرِه الشرعيةِ، فلاَ أَمْرَ كونيًّا قدريًّا إلا له، ولا أمر شرعيًّا دينيًّا إلا له.

- (**والْأَمْرُ**) استدل أهل السنة بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق قال تعالى : (ألا له الخلق والأمر) .

فجعل الخلق غير الأمر ، والقرآن من الأمر ، لقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) .

وقال : (وذلك أمر الله نزله إليكم) .

(**تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) معناه: تَعَاظَمَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ – جل وعلا– وأصلُ تَبَارَكَ: (تفاعل) إذا كَثُرَتْ بركاتُه وخيراتُه. وَاللَّهُ – جل وعلا – هو المتعالِي المتنزهُ عن كُلِّ شيءٍ، المتقدسُ الأعظمُ، الذي يُفِيضُ الخيرَ على خَلْقِهِ.

كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) .

وفي الدعاء المأثور ، عن أبي الدرداء – وروي مرفوعا — (اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله) .

(**رَبُّ الْعَالَمِينَ**) الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

- **العالمين** : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال :

قيل : كل موجود سوى الله ، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

وقيل : أهل كل زمان عالم لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) أي من الناس .

وقيل : الجن والإنس ، لقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيراً) .

وقيل : العالَم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين .

والصحيح الأول ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما) .

- **العالمين : جمع عالَم :**

قيل : مأخوذ من العَلامة ، لأنهم عَلَمٌ على خالقهِم وصانعهم ، وهذا هو الصحيح

فإن هذا الخلق في كل فرد منه ، وفي جزء منه ، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمته وعلى انفراده بالملك .

قال الشاعر : فواعجباً كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحد الجاحدُ

وفي كـــل شـــيءٍ لـــه آيةٌ تـــدل على أنـه واحدُ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال : إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير .

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول .

وقيل : مأخوذ من العِلم ، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم .

- **العالمين** : تطلق أحياناً ويراد به الإنس والجن :

كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وأحياناً تطلق على البشر :

كقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين

الفوائد :

١-أن الخالق لكل شيء هو الله .

٢- أن الذي لا يخلق لا يستحق أن يعبد .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

٣-إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله .

٤- إثبات علو الله تعالى .

٥- قدرة الله العظيمة في جعل الليل والنهار يتعاقبان .

٦- حكمة الله في خلق الشمر والقمر والنجوم تسخيراً للناس وآية تدل على أنه المستحق للعبادة .

٧- أن كل شيء بأمر الله .

٨- بركة الله على الناس . ١ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥))

[الأعراف : ٥٥] .

(**ادْعُوا رَبَّكُمْ**) هذا أمر من الله تعالى أن نقوم بدعائه وسؤاله .

وقد أمر الله بسؤاله فقال (واسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) .

وفي الترمذي عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) .

واستحق الغضب لأمرين :

الأول : لأنه ترك محبوباً لله ، فإن الله يحب أن يسأل ، ذكر ذلك المناوي .

والثاني : لأن ترْك الدعاء دليل على الاستغناء عن الله ، ذكر ذلك المباركفوي .

وفي النهي عن سؤال المخلوق أحاديث كثيرة أيضاً ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً منهم : أبو بكر ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله .

- واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً وذلك من وجوه متعددة :

منها : أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح إلا لله وحده ، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق .

كان الإمام أحمد يقول في دعائه : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك .

ولهذا كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم كما ثبت في الصحيحين ، لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا ، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي ، فيصير عظماً بغير لحم ، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي ، فلا يبقى له عند الله وجاهة .

ومنها : أن في سؤال الله عبودية عظيمة ، لأنها إظهار للافتقار إليه ، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج ، وفي سؤال المخلوق ظلم ، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها ، فكيف يقدر على ذلك لغيره .

قال بعض السلف : إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها ؟ يعني المخلوق .

ومنها : أن الله يحب أن يُسأل ، ويغضب على من لا يسأل ، فإنه سبحانه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه ، ويحب الملحين في الدعاء ، والمخلوق غالباً يكره أن يُسأل لفقره وعجزه .

قال أبو العتاهية :

الله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنيّ آدم حين يسأل يغضب

فاجعل سـؤالك للإله فإنما في فضــل نعمــة ربنا نتقلب

- **قال ابن تيمية** : سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك .

والثانية : مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق .

والثالثة : فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة

(**تَضَرُّعًا**) تذللا واستكانة .

(**وَخُفْيَةً**) أي : ليكن دعاؤكم في خفية .

- وهذا فيه فضل الدعاء سراً .

كما قال تعالى (كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً) أي حين دعاء ربه وناجاه بصوت خفي لا يكاد يسمع ، ليكون أكمل وأتم إخلاصًا لله، وأرجى للإجابة .

- والدعاء سراً أفضل من الجهر ، **لأسباب ذكرها ابن القيم** :

أولاً : أنه أعظم إيماناً ، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي .

ثانياً : أنه أعظم في الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات .

ثالثاً : أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء .

رابعاً : أنه أبلغ في الإخلاص .

خامساً : أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

سادساً : وهو من النكت السرية البديعة جداً أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله (إذ نادى ربه نداء خفياً) فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وإنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه .

سابعاً : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه ، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعاً صوته ، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته .

ثامناً : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والأنس فشوشت عليه ولا بد ومانعته وعارضته .

تاسعاً : أن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له ، والانقطاع إليه ، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته على الحاسد .

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه .

وقد قال يعقوب ليوسف (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين) .

ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم .

(**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**) لا في الدعاء ولا في غيره .

وقد روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ (يقول إنه سيكون في هذه الآمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء) .

- **أنواع الاعتداء في الدعاء :**

الاعتداء بالدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة ، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء ، فكل سؤال يناقض حكمه الله ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به ، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء .

فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء في الدعاء مراداً بها فهو من جملة المراد ، والله لا يحب المعتدين في كل شيء دعاء كان أو غيره ، كما قال (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع بل دعاء مدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به ، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين :

أحدهما : محبوب للرب تبارك وتعالى مرض له ، وهو الدعاء تضرعا وخفية .

الثاني : مكروه له مبغوض مسخوط ، وهو الاعتداء ، فأمر بما يحبه وندب إليه وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير وهو أنه لا يحب فاعله .

وفي قوله (إنه لا يحب المعتدين) عقب قوله (ادعو ربكم تضرعا وخفية) دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من

المعتدين الذين لا يحبهم ، فقسمت الآية الناس إلى قسمين داع لله تضرعا وخفية ومعتد بترك ذلك .

الفوائد :

١- الأمر بدعاء الله .

٢- أن الله هو المستحق للدعاء لأنه الخالق القادر .

٣-التحذير من دعاء غير الله .

٤- كرم الله وغناه ، حيث يفرح بسؤال خلقه بخلاف المخلوق .

٥- من أعظم آداب الدعاء أن يدعو الإنسان بتضرع واستكانة وخشية .

٦- فضل إخفاء الدعاء .

٧- فضل الإخلاص ، فكلما كان العمل أكثر إخلاصاً كان أعظم أجراً ومثوبة ونفعاً .

٨- تحريم الاعتداء في كل شيء .

٩- تحريم الاعتداء في الدعاء .

١٠- إثبات صفة المحبة لله تعالى . ٢/رمضان/١٤٣٧هـ

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)) .

[الأعراف : ٥٦] .

(**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**) ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه .

- **قال السعدي** : فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق ، كما قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق ، والأعمال ، والأرزاق ، وأحوال الدنيا والآخرة.
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (بَعْدَ إصلاحها) أي إصلاح الله تعالى لها وخلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين وبعث فيها الأنبياء بما شرعه من الأحكام .

قال ابن عاشور : والبعدية في قوله (بعد إصلاحها) بعديةٌ حقيقيةٌ ، لأنّ الأرض خلقت من أوّل أمرها على صلاح قال الله تعالى (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها) على نظام صالح بما تحتوي عليه

- **قال صاحب المنار:** وقال- سبحانه-: وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها لأن الإفساد بعد الإصلاح أشد قبحا من الإفساد على الإفساد، فإن وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه. فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه؟ ولذا خص بالذكر وإلا فالإفساد مذموم ومنهى عنه في كل حال .
- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (ولا تفسدوا في الأرض) ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قلَّ أو كثر بعد إصلاح ، قل أو كثر ، والقصد بالنهي هو على العموم وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكم إلا أن يقال على وجهة المثال .
- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إصلاحها) معناه ولا تفسدوا شيئاً في الأرض ، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء ، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل ، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة ، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف ، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات ، وذلك لأن

المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة : النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.

- **وقال ابن تيمية** : وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ . وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ

(**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعاً**) أي : وادعوه خائفين من عقابه إياكم على مخالفتكم لأوامره ، طامعين في رحمته وإحسانه وفي إجابته لدعائكم تفضلاً منه وكرماً .

- **قال السعدي** : أي: خوفاً من عقابه ، وطمعاً في ثوابه ، طمعاً في قبولها ، وخوفاً من ردها ، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه ، ونزل نفسه فوق منزلته ، أو دعاء من هو غافل لاهٍ.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده ، لأن ذلك يتضمنه الخفية ، وإخفاؤه وإسراره ، وأن يكون القلب خائفا طامعا لا غافلا ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء ، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه .

- وَذِكْرِ الطَّمَعِ الَّذِي هُوَ الرَّجَاءُ فِي آيَةِ الدُّعَاءِ ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ مَا لَمْ يَطْمَعْ فِي سُؤَالِهِ وَمَطْلُوبِهِ لَمْ تَتَحَرَّكْ نَفْسُهُ لِطَلَبِهِ ؛ إذْ طَلَبُ مَا لَا طَمَعَ لَهُ فِيهِ مُمْتَنِعٌ .

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

والمراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .

- ينبغي على المسلم أن يكون راجياً خائفاً .

وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرهبة .

فقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ «كَيْفَ تَجِدُكَ». قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ). رواه الترمذي

وقد وصف الله المؤمنين بعمل الصالحات مع الخوف من الله .

كما قال الله تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) .

عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ : لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) رواه الترمذي .

وقد ذكر الله – تعالى – الخوف مقرونًا بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة .

قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء ٱلَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ) .

وقوله تعالى (ٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

وقوله تعالى (نَبِّىء عِبَادِي أَنّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ*وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ) .

وقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً).

وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) .

وكما في قوله – سبحانه – (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) .

ولهذا قال السَّلف – رحِمهم الله – كلِمةً مشهورةً، وهي : مَنْ عبدَ الله بالحبِّ وحده، فهو زنديق، ومَن عبدَه بالخوف وحْده، فهو حروريٌّ – أي: خارجي – ومَن عبدَه بالرَّجاء وحْده، فهو مرجئ، ومن عبدَه بالخوف والحب والرَّجاء، فهو مؤمن موحِّد .

- **قال ابن القيم** : القلب في سيره إلى الله – عزَّ وجلَّ – بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر .
- **وقال ابن القيم** : من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف .

كان الصديق يقول : وددت لو أني شعرة في جنب عبد مؤمن .

وكان يمسك بلسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان يبكي كثيراً ويقول : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وهذا عمر قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه .

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة ، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً .

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته .

وهذا علي وبكاؤه وجوفه ، وكان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق .

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرة تعضد ، وودت أني لم أخلق . (الجواب الكافي) .

- **قال الحسن البصري**: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.
- **وقال السبكي** في طبقات الشافعية الكبرى: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم مأمونوا العواقب ومع ذلك هم أشد خوفاً، والعشرة المشهود لهم بالجنة كذلك، وقد قال عمر ﷺ : لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .
- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً) جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفاً راجياً ، كما قال الله تعالى (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) فإن موجب الخوف معرفة سطوة الله وشدّة عقابه وموجب الرجاء معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه ، قال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي) ومن عرف فضل الله رجاه ، ومن عرف عذابه خافه ، ولذلك جاء في الحديث " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " إلا أنه يستحب ان يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيئات وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت لقوله ﷺ : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى .

(**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِين**) في عبادة الله ، المحسنين إلى عباد الله ، فكلما كان العبد أكثر إحساناً ، كان أقرب إلى رحمة ربه ، وكان ربه قريباً منه برحمته ، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

- **قال ابن كثير** : وقال (قَرِيبٌ) ولم يقل (قريبة) لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين.

- **قال ابن تيمية** : وَإِنَّمَا اُخْتُصَّ أَهْلُ الْإِحْسَانِ بِقُرْبِ الرَّحْمَةِ لِأَنَّهَا إحْسَانٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ وَإِحْسَانُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إنَّمَا يَكُونُ لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَكُلَّمَا أَحْسَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ أَحْسَنَ إلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِحْسَانِ فَإِنَّهُ لَمَّا بَعُدَ عَنْ الْإِحْسَانِ بَعُدَتْ عَنْهُ الرَّحْمَةُ بُعْدٌ بِبُعْدٍ وَقُرْبٌ بِقُرْبٍ فَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ تَقَرَّبَ اللَّهُ إلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ وَمَنْ تَبَاعَدَ عَنْ الْإِحْسَانِ تَبَاعَدَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَحْمَتِهِ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَيُبْغِضُ مَنْ لَيْسَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ فَرَحْمَتُهُ أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنْهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ فَرَحْمَتُهُ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنْهُ وَالْإِحْسَانُ هَاهُنَا هُوَ فِعْلُ الْمَأْمُورِ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ إحْسَانًا إلَى النَّاسِ أَوْ إلَى نَفْسِهِ فَأَعْظَمُ الْإِحْسَانِ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ وَالْإِنَابَةُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِقْبَالُ إلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ إجْلَالًا وَمَهَابَةً وَحَيَاءً وَمَحَبَّةً وَخَشْيَةً. فَهَذَا هُوَ مَقَامُ " الْإِحْسَانِ " كَمَا (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ الْإِحْسَانِ؛ فَقَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ)" فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ فَرَحْمَتُهُ قَرِيبٌ مِنْ صَاحِبِهِ؛ وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلَّا الْإِحْسَانُ يَعْنِي هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ إلَّا أَنْ يُحْسِنَ رَبُّهُ إلَيْه .

الإحسان نوعان :

إحسان في عبادة الخالق ، إحسان إلى المخلوق .

في عبادة الله ، إخلاصاً لله تعالى ، ومتابعة للرسول ﷺ ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) .

فالإحسان في عبادة الله : أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة .

والإحسان إلى المخلوق : بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة ، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك .

- **قال السعدي** : والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق .

فالإحسان في عبادة الخالق : فسرها النبي ﷺبقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وأما الإحسان إلى المخلوق : فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي) .

- وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك)

.

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقيناً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون

- **فضائل الإحسان :**

أولاً : أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه .

قال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) .

ثانياً : لهم في الدنيا حسنة .

قال تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) .

ثالثاً : رحمة الله قريبة من المحسنين .

قال تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين) .

رابعاً : لهم الجنة ونعيمها .

قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

خامساً : تبشير المحسنين .

قال تعالى (وبشر المحسنين) .

سادساً : أن الله معهم .

قال تعالى (وإن الله لمع المحسنين) .

سابعاً : إن الله يحب المحسنين .

قال تعالى : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

ثامناً : إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قال تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

تاسعاً : الإحسان سبب في دخول الجنة .

قال تعالى : (... آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) .

عاشراً : الكافر إذا رأى العذاب تمنى أن لو أحسن في الدنيا .

قال تعالى (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) .

- ينبغي للإنسان أن يعمل بالأسباب التي تنال بها الرحمة :

أولاً : رحمة الناس .

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول ﷺ .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري .

خامساً : عيادة المريض .

قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) رواه مسلم .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك .

قال رسول الله ﷺ (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) متفق عليه .

ثامناً : مجالس الذكر .

قال رسول الله ﷺ (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله ﷺ (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان .

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثاني عشر : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قال تعالى (وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثالث عشر : الاستغفار .

قال تعالى (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الفوائد :

١-تحريم الإفساد بعد إصلاحها .

٢- أن أعظم فساد في الأرض الشرك بالله ومعاداة رسله .

٣- وجوب الإصلاح في الأرض .

٤- أن الإفساد في الأرض يذهب بركاتها وخيراتها .

٥- على المسلم أن يكون خائفاً راجياً .

٦- وجوب الخوف من الله .

٧- فضل إحسان الظن بالله .

٨- فضل عظيم للمحسنين .

٩- على المسلم أن يجتهد في إحسانه في عبادة ربه بالإخلاص والمتابعة ، وفي إحسانه للمخلوقين .

١٠- أن من أحسن أحسن الله إليه .

٣ / رمضان / ١٤٣٧

(**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)**) .

[الأعراف : ٥٧] .

(**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**) لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبّر المسخّر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر -نبه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نشْرًا) أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ (بُشْرًا) كقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ) .

وقوله (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) أي: بين يدي المطر، كما قال (وَهُوَ الَّذِي يُنزلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) وقال (فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

(**حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً**) أي: حملت الرياح سحابًا ثقالا أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة .

(**سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ**) أي: إلى أرض ميتة، مجدبة لا نبات فيها، كما قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُون) .

قال الشنقيطي : بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح ، ثم يسوقه إلى حيث يشاء من بقاع الأرض ، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) الآية. وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ) إلى غير ذلك من الآيات .

(**فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى**) أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادا له – مع أنه يرى ما هو نظيره – من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.(السعدي) .

وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها .

قال تعالى (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال تعالى (نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) .

- في هذه الآية ذكر الله تعالى طريقة من طرق إثبات البعث، وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق :

الطريقة الأولى :آيات صريحة في إثبات ذلك :

قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) .وقال تعالى : (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) .وقال تعالى : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) .وقال تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .وقال تعالى : (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد :

فقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ) .

وقال تعالى : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) .

وقال تعالى : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وذم الله المكذبين بالمعاد :

فقال تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) .

الطريقة الثانية : التذكير بنشأة الإنسان الأولى :

قال تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) .

وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

الطريقة الثالثة : الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات :

قال تعالى : (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الرابعة : الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات :

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الخامسة : تنزيه الله سبحانه عن العبث .

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث ، فما فائدة الأوامر والنواهي .

قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) .

وقال تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) . أي : لا يؤمر ولا ينهى ، وقيل لا يبعث .

الطريقة السادسة : تنزيه الله عن الظلم :

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس ، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه ، والكافر لا يعرف ربه أصلاً .

قال تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) .

الطريقة السابعة : ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث .

كما في قصة قتيل بني إسرائيل .

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها .

وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة .

وقصة أصحاب الكهف ، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، قال تعالى في قصتهم : (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...) .

(**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) أي : إنما وصفنا من هذا التمثيل لكي تتذكروا ، من أحوال الثمرات التي أعيدت إلى حالها بعد تلفها ، أحوال الآخرة ، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

الفوائد :

١- قدرة الله في إرسال الرياح بشراً بين يدي رحمته .

٢- أن المطر رحمة من الله .

٣- إنبات الأرض من آيات الله العظيمة .

٤-إثبات البعث .

٥- الاستدلال على إثبات البعث بإنبات الأرض بعد موتها .

(**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)**) .

[الأعراف : ٥٨] .

(**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**) أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسناً ، كما قال (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) .

(**وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا**) أي: والبلدُ الذي خَبُثَ كالبلدِ الذي يكونُ سَبِخًا خبيثًا لاَ يخرجُ نباتُه ولو تَنَالَتْ عليه الأمطارُ (إلاَّ نَكِدًا) إلا في حالِ كونِه نَكِدًا عسيرَ الخروجِ لاَ خيرَ فيه ولا منفعةَ فيه ألبتةَ، يخرجُ بِعُسْرٍ غايةَ العسرِ، ويخرجُ مَسْلُوبًا من الخيرِ والنفعِ.

وأصلُ النَّكِدِ في لغةِ العربِ: العسيرُ، لا يخرجُ إلا في حالِ كونِه نَكِدًا، أي: عسيرَ الخروجِ، مسلوبَ الفائدةِ، لاَ يُنْتَفَعُ به في أَكْلِ الناسِ، ولاَ أَكْلِ الأنعامِ؛ إِذْ لاَ فائدةَ فيه، فكذلك قلبُ الكافرِ لاَ يُثْمِرُ إلاَّ نكدًا عسيرًا، ثمرةً لاَ فائدةَ فيها، كالأرضِ السبخةِ إذا كَثُرَتْ عليها الأمطارُ لاَ يُثْمِرُ شيئًا فيه فائدةٌ.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (والذي خبث) حملهُ جميع المفسّرين على أنّه وصف للبلد ، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطّيب ، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلاّ نباتاً لا ينفع ، ولا يسرع إنباتها ، مثل السّباخ ، وحملوا ضمير يَخْرج على أنّه عائد للنّبات ، وجعلوا تقدير الكلام : والذي خبث لا (يخرج) نباتُه إلاّ نَكِداً .
- **قال القرطبي** : قيل : معناه التشبيه ، شبَّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب ، والبَلِيدَ بالذي خَبُثَ ؛ عن النحاس.

وقيل : هذا مثل للقلوب ؛ فقلب يقبل الوعظ والذِّكْرى ، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك ؛ قاله الحسن أيضاً.

وقال قتادة : مَثَلُ للمؤمن يعمل محتسِباً متطوّعاً ، والمنافق غير محتسب ؛ قال رسول الله ﷺ : " والذِي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مِرْمَاتَيْن حسَنَتَين لشهد العِشاء" .

- **قال ابن الجوزي** : قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ؛ فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبان

أثره عليه ، فشُبّه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه ؛ وعكسه الكافر.

- **قال في الوسيط** : والمعنى: أن الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، والذي خبث من الأرض كالسبخة منها لا يخرج نباته إلا قليلا عديم الفائدة.
- القلبُ الطيبُ إذا نَزَلَتْ عليه أمطارُ القرآنِ: زواجرُه ونواهيه ومواعظُه وحلالُه وحرامُه أثمَرَ ذلك القرآنُ في ذلك القلبِ ثمراتٍ أحسنَ من ثمراتِ الأرضِ الطيبةِ إذا نزلَ عليها المطرُ، فأثمَرَ الإيمانَ باللهِ، والتطهرَ من أدناسِ المعاصِي والكفرِ، وامتثالَ أَمْرِ اللهِ واجتنابَ نواهيه.

وكلُّ خصلةٍ حسنةٍ يُثْمِرُهَا مطرُ القرآنِ في قلبِ المؤمنِ؛ كالخشيةِ من اللهِ، والتوبةِ عندَ الزلاتِ، والإنابةِ إليه ، والسخاءِ ، والشجاعةِ والرضا بقضاءِ اللهِ، والإيثارِ وعدمِ الشُّحِّ، إلى غيرِ ذلك من خصالِ الإسلامِ الكريمةِ الجميلةِ.

– عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)

وقال القرطبي في شرح هذا الحديث :

- وقال بعض العلماء : جعل الرسول ﷺ الناس في تقبلهم للعمل ثلاث درجات:

الدرجة الأولى : من تقبل ما جاء به الرسول ﷺ وعلمه وعمل بما فيه ، وعلم الناس ، فهؤلاء هم أفضل الناس لأنهم انتفعوا في أنفسهم ونفعوا غيرهم.

الدرجة الثانية: من تقبل ما جاء به الرسول ﷺ وحمله إلى الناس فانتفعوا به ، لكنه لم يتفقه فيه ، وقل اجتهاده في العمل به.

الدرجة الثالثة: من لم يستفد مما جاء به الرسول ﷺ ولم يعمل به أو ينقله إلى الناس، وهؤلاء مذمومون على لسان الرسول ﷺ.

- في هذا الحديث دليل على أن من فقه في دين الله ، وعلم من سنة رسول الله ما يعلم فإنه خير الأقسام ، لأنه علم وفقه لينتفع وينفع الناس ، ويليه من علم ولكن لم يفقه ، يعني روى الحديث وحمله لكن لم يفقه منه شيئاً ، وإنما هو رواية فقط ، وهذا يأتي في المرتبة الثانية في الفضل بالنسبة لأهل الإيمان .

والقسم الثالث : لا خير له ، رجل أصابه من العلم والهدى الذي جاء به النبي ﷺ، ولكنه لم يرفع به رأساً ولم ينتفع به ، ولم يعلمه الناس ، فكان . والعياذ بالله . كمثل الأرض السبخة التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئاً للناس ، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به .

(**كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**) أي : ننوع البراهين والحجج والآيات لإثبات الحق لقوم يشكرون نعم الله فلا يكفرونها ويطيعون ربهم .

- **قال في الوسيط** : أصل التصريف: تبديل حال بحال ومنه تصريف الرياح. والآيات: الدلائل الدالة على قدرة الله.

أي: مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الآيات الدالة على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جلية واضحة لقوم يشكرون نعمنا، باستعمالها فيما خلقت له، فيستحقون مزيدنا منها وإثابتنا عليها.

- الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه .

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ) . وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) . وتعريفه كما سبق وهو أن يستعمل نعمه في طاعة الله .

وشكر الله لعبده كقوله تعالى (ومَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

ومعنى شكر الله لعبده : هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة .

لما عقر سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره ، فأراد ألا تشغله مرة أخرى ، أعاضه عنها متن الريح .

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته ، أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

الفوائد :

١-ضرب الأمثال .

٢-تشبيه قلب المؤمن بالأرض الطيبة وتشبيه قلب الكافر بالأرض النكد .

٣-الحرص على القلب وتطهيره وتنميته بالإيمان والطاعات .

٤-تصريف الآيات وتنويعها من نعم الله التي يستحق عليها الشكر .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ (٦٤)) .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم .

- بدأ تعالى بقصص الأنبياء في السورة تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل) وفيها أيضاً تهديداً للمشركين .
- وبدأ بنوح لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم ، ويسمى نوح (آدم الأصغر) لأن البشرية كلها بعده من ذريته كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ) .
- ونوح هو أحد أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم في موضعين في كتابه :

الموضع الأول / في سورة الأحزاب .

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً) .

الموضع الثاني / في سورة الشورى .

قال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

ونوح أول الرسل .

لقوله (فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ! أنت أول الرسل إلى الأرض) .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) .

- **قال ابن كثير** : وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام . قاله ابن عباس .

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين (ودًا وسواعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسراً) فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى –وله الحمد والمنة –رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي : اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى ، وأصل العبادة في لغة العرب : الذل والخضوع ، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده ، فالعبادة : الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة ، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع ، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة ، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له ، ومن أبغض ربه هلك ، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها ، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب ، ويرتكب أموراً لا تنبغي ، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي) .

- فالعبادة تطلق على معنيين : أحدهما : التعبد : يعني التذلل لله ، كما سبق ، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية .
- وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل ، وأنها دعوة الرسل جميعاً ، وأول ما يبدا به .

(إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أي: من عذاب يوم القيامة إنْ لقيتم الله وأنتم مشركون به .

فإن قيل : كيف يعبر بالخوف عليهم مع أنهم واقع عليهم العذاب لا محالة ؟

والجواب : أن محل الخوف هو خشية الاستمرار في الكفر والضلال فيقع ويحل عليهم العذاب الذي هو جزاء كفرهم .

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ) أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم .

- قيل سُمُّوا (ملأً) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقامتِهم الوافيةِ، أو يملؤونَ صدورَ الناظرِ لأُبَّهَتِهِمْ وَجَمَالِهِمْ، أو أنهم يَتَمَالَؤُونَ على العقدِ والحلِّ فيتفقونَ عليه.

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا . وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ) ، (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) إلى غير ذلك من الآيات.

- **بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه :**

أولاً : اتهموه بالجنون .

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) .

ثانياً : اتهموه بكثرة الجدال .

قال تعالى عنهم (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

ثالثاً : اتهموه بالضلال .

قال تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) .

رابعاً : توعدوه بالرجم .

قال تعالى عنهم (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) .

خامساً : التهكم والسخرية .

قال تعالى (وَيصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

(**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**) أي: ما أنا ضال ، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه .

(**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) هذا شأن الرسول ، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله ، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً : أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

- **قال ابن عاشور** : والنّصح والنّصيحة كلمة جامعة ، يعبّر بها عن حسن النّيّة وإرادة الخير من قولٍ أو عملٍ ، وفي الحديث : " الدّين النّصيحة " وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم.

ويكثر إطلاق النّصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضّر.

وضدّه الغشّ.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ) وفيه وجوه :

الأول : واعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان.

الثاني : واعلم أنه يعاقبكم في الآخرة عقاباً شديداً خارجاً عما تتصوره عقولكم.

(**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**) أي : لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجَب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم، لإنذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به .

- **قال الشنقيطي** : أَنْكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ ، وَقَوْمِ هُودٍ عَجَبَهُمْ مِنْ إِرْسَالِ رَجُلٍ ؛ وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) ، وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) .

وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) .

قال تعالى (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) .

وَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذَا الْعَجَبَ مِنْ إِرْسَالِ بَشَرٍ مَانِعٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ ب:

فقالِ تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا).

وَقَوْلُهُ (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) .

وشُبْهَتُهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللَّهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أَيْ : لَا مَلَائِكَةً .

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) .

- **فائدة: وجْهَ الْجَمْعِ** بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ).

وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

- **قال الشنقيطي** : ....أَنَّ الْمَانِعَ الْمَذْكُورَ فِي سُورَةِ «الْإِسْرَاءِ» مَانِعٌ عَادِيٌّ يَجُوزُ تَخَلُّفُهُ ؛ لِأَنَّ اسْتِغْرَابَهُمْ بَعْثَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ مَانِعٌ عَادِيٌّ يَجُوزُ تَخَلُّفُهُ لِإِمْكَانِ أَنْ يَسْتَغْرِبَ الْكَافِرُ بَعْثَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ ثُمَّ يُؤْمِنَ بِهِ مَعَ ذَلِكَ الِاسْتِغْرَابِ ، فَالْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) ، حَصْرٌ فِي الْمَانِعِ الْعَادِيِّ ، وَأَمَّا الْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ هُنَا (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا) ، فَهُوَ حَصْرٌ فِي الْمَانِعِ الْحَقِيقِيِّ ؛ لِأَنَّ إِرَادَتَهُ جَلَّ وَعَلَا عَدَمُ إِيمَانِهِمْ ، وَحُكْمُهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، وَقَضَاءُهُ بِهِ مَانِعٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ وُقُوعِ غَيْرِهِ .

(**فَكَذَّبُوهُ**) أي استمروا على تكذيبه وأصروا بعد أن قال لهم ما قال ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل

وقد مكث نوح في قومه كثيراً كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) .

ولقد اجتهد اجتهاداً عظيماً في دعوتهم .

فقد بالغ في دعوتهم من غير تعب .

قال تعالى عنه (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً) .

ونوع في دعوتهم :

فمرة بالسر ومرة بالجهر .

كما قال تعالى عنه (ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً) .

ومرة بالترغيب .

كما قال تعالى عنه (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

ومرة بالترهيب :

كما قال تعالى عنه (ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) .

ومرة بأنه ناصح لهم مخلص .

قال تعالى عنه أنه قال لهم [أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون] .

(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ**) وهم قليل كما قال تعالى في موضع آخر (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

- (**فِي الْفُلْكِ**) وهي السفينة، كما قال (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ) .

وقال تعالى في موضع آخر (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) والمراد بأهله من آمن منهم ، أما من لم يؤمن فقد غرق مع من غرق كابنه

- أمره الله لما أراد الله أن يهلكهم ببناء سفينة لينجو بها :

قال تعالى (أُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) .

وقال تعالى (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) .

[**اصنع الفلك**] يعني السفينة .[**بأعيننا**] أي بمرأى منا .[**ووحينا**] أي تعليمنا لك ما تصنعه .

- وأمره تعالى أن يحمل معه ثلاثة أشياء :

أولاً : قال تعالى (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) .

والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى .

ثانياً : قال تعالى (وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) .

والمراد ابنه وزوجته فقد كانا كافرين حكم الله عليهما بالهلاك .

ثالثاً : قال تعالى (وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

فائدة :

قال تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) .

قال بعضهم إن المراد بنهيه عن مخاطبته فيهم أن يخاطبه في إمهالهم ، لأن ما قدره الله عليهم قد مضى ولا محالة ، وهذا الوجه بعيد ، لأن نوحاً قد ألح في دعائه لربه أن يهلكهم ، فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك ، فإنه قد كتب وحان .

(**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ**) أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

كما قال (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا) .

وقد طلبوا العذاب (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

- ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له .

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ) .

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

- فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم
- وقد دعاء نوح على قومه ونادى ربه :

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) .

وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)

وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ) .

- **فإن قيل لماذا دعاء نوح على قوه :**

دعاء نوح على قومين لأمرين :

الأمر الأول : أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل .

كما قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) .

الأمر الثاني : أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم .

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً) .

قال قتادة : أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء [أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن] فعند ذلك دعا عليهم .

- ونجى الله نوحاً ومن آمن .

كما قال تعالى (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) والمراد بأهله من آمن منهم ، أما من لم يؤمن فقد غرق مع من غرق كابنه ، كما قال تعالى (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ . وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

- أهلك الله قوم نوح بالغرق :

كما قال تعالى (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ) .

وقال تعالى (مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا) .

وقال تعالى (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) .

- وكفر من أهل نوح امرأته وابنه :

قال تعالى (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .

وقال سبحانه (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) .

قوله (**فَخَانَتَاهُمَا**) ليس المراد في فاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، قال ابن عباس : أما خيانة امرأت نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأت لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

الفوائد :

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام .

فضائل نوح :

أولاً : ثناء الله عليه .

قال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

ثانياً : أول رسول للبشر .

لحديث أبي هريرة – حديث الشفاعة – قال ﷺ (... فيأتون نوحاً فيقولون أنت أول رسول إلى البشر، وسماك الله عبداً شكوراً) .

ثالثاً : أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب .

رابعاً : استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب .

قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) .

٢- أن دعوة الرسل جميعاً هي التوحيد ، وهي عبادة الله وحده وترك الشرك .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ ، .. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) .

(الأنبياء أولاد عَلاّت) أولاد العلات : هم الأخوة للأب من أمهات شتى .

معنى الحديث : أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة ، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف .

٣-وجوب عبادة الله عز وجل ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك :

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) .

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) .

- وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) .
- بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .
- وأمر الله بها جميع رسله :

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ) ، وكذلك قال هود ، وصالح ، وشعيب ، وغيرهم .

- وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

- ووصف ملائكته بذلك .

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ) .

٤- دائماً أهل الغنى والترف هم من يقفون في وجه الرسل ودعوتهم .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) .

وقال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) .

٥- عامة أتباع الرسل من الضعفاء .

كما في حديث ابن عباس (أن هرقل سأل أبو سفيان : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : هم أتباع الرسل) .

وقال تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا له (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) .

وقال تعالى (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) .

وقال تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا له (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُون) .

٦- دائماً أهل الشر والكفر هم الأكثر ، وأهل الإيمان هم الأقل . (الكثرة لم ترد في القرآن إلا في مقام الذم) .

كما قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) .

وقال تعالى (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) .

وقال ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) متفق عليه .

فقال : (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وقال عز وجل : (... وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) .

وقال أيضاً تبارك وتعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) .

قال الإمام الشاطبي : وهذه سنة الله في الخلق : أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وقليل من عبادي الشكور) ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم وذلك حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً وتصير السنة بدعة والبدعة سنة .

وقال ابن القيم : ولما رأى المنافقون ومَن في قلبه مرض قِلَّة حزبِ الله وكثرةَ أعدائه، ظنُّوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا (غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ) ، فأخبر سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يُغالَب، حكيم ينصر مَن يستحق النصر، وإن كان ضعيفاً ، فعزتُه وحكمتُه أوجبت نصرَ الفئةِ المتوكِّلَةِ عليه .

قال ابن مسعود : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك .

وعن الفضيل بن عياض : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين واياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين .

قال أبو شامة : وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به لزوم الحق وإتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً ، لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفي السنن : إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها). والتجديد إنما يكون بعد الدروس، وذاك هو غربة الإسلام.

وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ. قال تعالى: (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إليكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ) إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام .

وقال الإمام الشوكاني : عند قوله تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، ومنهم الطائفة التي تزال على الحق ولا يضرها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ .

قال العلامة ابن باز : وليحذر كل مسلم أن يغتر بالأكثرين ، ويقول : إن الناس قد ساروا إلى كذا ، واعتادوا كذا ، فأنا معهم ، فإن هذه مصيبة عظمى ، قد هلك بها أكثر الماضين ، ولكن أيها العاقل ، عليك بالنظر لنفسك ومحاسبتها والتمسك بالحق وإن تركه الناس ، والحذر مما نهى الله عنه وإن فعله الناس ، فالحق أحق بالاتباع ، كما قال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وقال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال بعض السلف رحمهم الله : (لا تزهد في الحق لقلة السالكين ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين .

قال العلامة الألباني : فالمؤمن لا يستوحش من قلة السالكين على طريق الهدى ولا يضره كثرة المخالفين .

٧- أن التكذيب بالأنبياء سبب للهلاك .

وقال تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ

وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

قال تعالى (وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) .

وقال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

فالتكذيب والكفر بالله والشرك سبب لهلاك جميع الأمم :

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

وقال تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

٧- أن العمل الصالح وليس النسب هو وسيلة النجاة .

فابن نوح غرق مع المغرقين ، وكذلك زوجته لأنهما كانا كافرين .

فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح لا بالأحساب ولا بالأنساب .

قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقال ﷺ (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (قال تعالى : من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)

وفي كتاب الله إخبار عن [أبي لهب] وأن مصيره إلى النار لكفره ، ولم يغن عنه كونه عم رسول الله ﷺ .

عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) .

ولهذا لم يُثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلاً : لا على ولد نبيّ، ولا على أبي نبيّ ، وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم .

وإذا ذكر صنفاً وأثنى عليهم ، فلما فيهم من الإيمان والعمل ، لا لمجرد النسب ، ولما ذكر الأنبياء – ذكرهم في الأنعام – وهم ثمانية عشر ، قال (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم ، لا بنفس القرابة .

٨- أنه ينبغي للداعية الصبر على الدعوة إلى الله وتحمل مشاقها ، فقد صبر نوح في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وقد قال تعالى لنبيه (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)

- وإنما أمره بالصبر لأمور :

أولاً : لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر) .

ثانياً : أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات .

ثالثاً : وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

رابعاً : وليكون قدوة لغيره .

٩- أن الله ينجي وينصر رسله وأولياءه ويهلك أعداءه .

قال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ) .

وقال تعالى (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) .

١٠- على الداعية أن يكون مخلصاً ناصحاً في دعوته لكي ينتفع الناس بدعوته .

ومن النصح ألا يأخذ على دعوته وتعليمه مالاً أو عوضاً .

قال نوح لقومه (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الْآيَةَ .

وهذا هُوَ شَأْنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ .

قال تعالى عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) .

وَقَوْلِهِ فِيهِ أَيْضًا فِي آخِرِ «سُورَةِ ص» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الطُّورِ» ، وَ «الْقَلَمِ» (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْفُرْقَانِ» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْأَنْعَامِ» (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ عَنْ هُودٍ فِي «سُورَةِ هُودٍ» (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) .

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّعَرَاءِ» عَنْ نُوحٍ ، وَهُودٍ ، وَصَالِحٍ ، وَلُوطٍ ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا) .

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا عَلَى تَعْلِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ .

١١- أن مصاحبة المؤمنين لا تفيد إذا لم يكن المصاحب مؤمناً .

٦ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ (٧٢)**) .

[الأعراف : ٦٥- ٧٢] .

(**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً**) يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا.

- وهذه الأممُ يَقُصُّ اللهُ خبرَها على هذه الأمةِ لتستفيدَ من ذلك فوائدَ عظيمةً (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) فيخافُ المكذبونَ للرسلِ الجاحدونَ بآياتِ اللهِ أن ينزلَ بهم مِثْلُ ما نَزَلَ بأولئك من الْمَثُلاَتِ، ومن عذابِ اللهِ المستأصلِ المتصلِ بعذابِ النارِ، وكذلك يُعَلِّمُ الناسَ الآدابَ، وآدابُ الدعاةِ إلى اللهِ في لِينِهِمْ وَعَطْفِهِمْ، وَلِينِ كَلاَمِهِمْ، وكرمِ مخاطبتِهم، وعدمِ بذاءتِهم وكلامِهم بكلامِ الجاهلين؛ هذا نبيُّ اللهِ نوحٌ لَمَّا قالوا له (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) هو يعلمُ أنهم هم الضالونَ، وأنه هو المهتدِي، والذي يَعِيبُكَ ويلمزُك بعيبٍ أنتَ تعلمُ أنه فيه هو، وأنك أنتَ بَرِيٌّ منه هذا مما يستدِعي الغضبَ، والكلامَ الشديدَ، والردَّ العنيفَ، فَنَبِيُّ اللهِ نوحٌ لم يَقُلْ لهم شيئًا من ذلك، ولم يَرُدَّ عليهم رَدًّا عنيفًا، وإنما رَدَّ بأكرمِ العبارةِ، وألطفِ الردِّ، فقال (يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) فلم يَقُلْ: أنتم هم الكفرةُ الفجرةُ الضُلاَّلُ، ولم يقذع فيهم بلسانِه، بل بالعباراتِ اللطيفةِ اللينةِ، وهذا تعليمٌ من اللهِ لخلقِه أن الداعيَ المتبعَ لآثارِ الرسلِ إذا قَابَلَهُ الجهلةُ ببذاءةِ اللسانِ وَعَابُوهُ وتكلموا له بالقبيحِ أنه لا يقابلهم إلا بالقولِ اللَّيِّنِ اللطيفِ، والحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، كما هي عادةُ الرسلِ في خطاباتِهم لأُمَمِهِمْ.
- وعاد قبيلة عظيمة ، وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) .

قال ابن كثير : هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل [صلوات الله عليهم إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

- قوله تعالى (أخا عاد) أي : أخاهم في النسب لا في الدين خلافاً لمن زعم أن أصله ليس منهم .
- **قال الرازي** : اتفقوا على أن هوداً ما كان أخاً لهم في الدين.

- والسر في التعبير بالأخوة لهم : ليزداد التشنيع عليهم ، لأنه منهم يعلمون صدقه وثقته وشرفه .
- **قال الآلوسي** :وحكمة كون النبي يبعث إلى القوم منهم أنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله.

(**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**) كل دعوات الرسل هي مضمون (لا إله إلا الله) التي قام عليها أمر السماوات والأرض ، وخلقت من أجلها الجنة والنار ، ولهذا كل رسول يبدأ قومه بالدعاء إليها (مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي : ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره ، لأنه الخالق الرازق المدبر .

(**أَفَلاَ تَتَّقُونَ**) أي : أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه.

قال أبو حيان: وفي قوله (أَفَلا تَتَّقُونَ) استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى ، ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم: أَفَلا تَتَّقُونَ. والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا، فقوله: أَفَلا تَتَّقُونَ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة .

(**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ**) –والملأ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم –

(**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**) أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

- كان رَدُّ الكفارِ مُتَشَابِهًا لِتَشَابُهِ قلوبِهم في الكفرِ، كما قال تعالى (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) فقومُ نوحٍ قالوا له (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ) وقوم هود قالوا له (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) والسفاهةُ: (فَعَالة) من السَّفَهِ، وأصلُ السفهِ في لغةِ العربِ هو: الخفةُ والطيشُ، فكلُّ شيءٍ خفيف طائش تُسَمِّيهِ العربُ سفهًا .

وهو في الاصطلاحِ المشهورِ: هي خفةُ العقلِ وطيشُ الحِلْمِ، بحيث يكونُ السفيهُ لا يهتدي إلى مصالحِه، ولا يعرفُ مضارَّه من مصالحِه، لا يميزُ بينَ الضارِّ والنافعِ، ولا الحسنِ ولاَ القبيحِ لِخِفَّةِ عقلِه وطيشِه وعدمِ رجاحتِه ، ولذا كان السفيهُ يجبُ التحجيرُ عليه، وجَعْلُ مالِه تحتَ يَدَيْ وَلِيٍّ يحفظُ له مالَه .

- وفي موضع آخر ذكر الله عنهم أنهم قالوا (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ) .
- والسخرية والاستهزاء سنة ماضية من قِبل أعداء الإسلام لأهله ، فقد سخر واستهزأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَءُوا بِرُسُلٍ قَبْلَ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَنَّهُمْ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُفَصِّلْ هُنَا كَيْفِيَّةَ اسْتِهْزَائِهِمْ ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الْعَذَابِ الَّذِي أُهْلِكُوا بِهِ ، وَلَكِنَّهُ فَصَّلَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ ، فِي ذِكْرِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ ، وَهُودٍ وَقَوْمِهِ ، وَصَالِحٍ وَقَوْمِهِ ، وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ ، وَشُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

فَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ نَجَّارًا) .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) ، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةَ) .

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ..) ، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ..) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ...) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ .

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) .

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) أي: ليست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ) فهو لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل قابلها بالحلم والإغضاء ولم يزد على قوله (لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ) وذلك يدل على أن ترك الانتقام أولى كما قال (وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً) .
- **وقال ابن الجوزي** : (قال يا قوم ليس بي سَفاهة) هذا موضع أدب للخلق في حسن المخاطبة ، فانه دفع ما سبُّوه به من السفاهة بنفيه فقط .

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة.

التبليغ : ؟؟؟

- وهكذا الأنبياء إنما عليهم البلاغ والإنذار كما قال تعالى عن نبيه مُحَمَّد ﷺ أنه قال (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) . وقال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) . وقال تعالى (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) .
- النصح : وهو عدم الغش والخداع ، وكُلُّ خالصٍ لا شائبةَ فيه يُسَمِّيهِ العربُ (ناصحًا) والناصحُ: هو السالمُ من جميعِ الغشِّ والخديعةِ.
- أمين : لا أكذب فيما أقول لكم .

ومن النصح أن لا يأخذ على دعوته أجراً ، ولهذا قال تعالى عن هود في موضع آخر (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) .

قال تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا الْآيَة) .

- **قال ابن عاشور** : وأُتبع (ناصح) بـ (آمين) وهو الموصوف بالأمانة لردّ قولهم له (لنظنّك من الكاذبين) لأنّ الأمين هو الموصوف بالأمانة ، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره ، وتمنعه من إضاعته ، أو جعله لنفع نفسه ، وضدّها الخيانة.

والأمانةُ من أعزّ أوصاف البشر ، وهي من أخلاق المسلمين ، وفي الحديث (لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أمان له) وفي الحديث (إنّ

الأمانة نزلت في جذر قلوب الرّجال ثم عَلِمُوا من القرآن ثمّ عَلِمُوا من السُّنَّة ثمّ قال يَنام الرجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه إلى أن قال فيقال : إنّ في بني فلان رَجُلاً أميناً ويقال للرّجل ما أعْقَله وما أظرفه وما أجْلَده وما في قلبه مثقالُ حبّة من خَرْدَلٍ من إيمان) فذَكَر الإيمان في موضع الأمانة.

(**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**) أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم .

- **قال أبو السعود** : قوله تعالى (لِيُنذِرَكُمْ) أي : يحذرَكم عاقبةَ ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي .

(**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**) أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه .

- **قال القرطبي** : منّ عليهم بأن جعلهم سُكَّان الأرض بعد قوم نوح.
- **وقال ابن الجوزي** : ذكَّرهم النعمة حيث أهلكَ من كان قبلهم ، وأسكنهم مساكنهم.

(**وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً**) أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: في قصة طالوت (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْم) .

- والبسطُ: أصلُه الزيادةُ. والمعنَى: زَادَكُمْ في خلقِ أجسامِكم بسطةً ، أي: زيادةً على خَلْقِ الناسِ في الطولِ وَعِظَمِ الأبدانِ وقوتِها وبدانتِها ، قولُ بعضِ العلماءِ: إنهم – قَبَّحَهُمُ اللَّهُ – زعموا أنه لا يمكنُ أن نقهرَهم قوةً ولو قوةَ اللَّهِ ، كما يأتي قولُ مَنْ قال بذلك في قولِه (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) مَنْ هو الذي يكونُ أشدَّ منا قوةً حتى يقهرنا؟ ثم إن اللَّهَ بَيَّنَ أن اللَّهَ الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوةً. وَلَمَّا أرسلَ عليهم الريحَ العقيمَ علموا أنهم ضعافٌ غايةَ الضعفِ إذا جاءتهم قوةُ رَبِّ العالمين التي يهلكهم بها ويسلطها عليهم، وهذا معنَى قولِه (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً) .
- **قال في الوسيط** : أي زادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة، أو زادكم بسطة في قوة أبدانكم وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الاستخلاف وتلك القوة ، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين.

وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهي روايات ضعيفة لا يعتد بها، ولذا أضربنا عنها، ويكفينا أن القرآن الكريم قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما في قوله تعالى (وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) وكما في قوله (كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة) .

(**فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ**) أي: فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك إلا بعبادتكم له وحده– عز وجل–.

- من الصحة والعافية وقوة الأبدان ، وما يسر لهم من الأرزاق والرفاهية في الدنيا .
- وممن قال لهم أيضاً (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) قوله تعالى (فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ) عموماً ، باللسان ثناء وحمداً ، وبالقلب اعترافاً وإقراراً ، وبالأركان بصرفها في طاعة الله .

أي : اذكروا باللسان وبالقلب والجوارح ، نعمة الله عليكم حتى تقوموا بشكرها ، فإن الغفلة عن ذكر النعم سبب لعدم الشكر .

وذكرهم بالنعم لأمرين :

الأول : أن كثرة النعم توجب عظم المعصية فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن.

والثاني : أن تذكير النعم الكثيرة يوجب الحياء عن إظهار المخالفة.

- **قال ابن عاشور** : وإنّما أمرهم بالذّكر (بضمّ الذّال) لأنّ النّفس تنسى النّعم فتكفر المنعم ، فإذا تذكّرت النّعمة رأتْ حقاً عليها أن تشكر المنعم .

(**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) أي : لأجل أن تفلحوا .

- الفلاح في لغة العرب يطلق إطلاقين مشهورين :

الإطلاق الأول : أن العرب تقول (أفلح فلان) إذا فاز بمطلوبه الأكبر ، فكل إنسان كان يحاول مطلوباً أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح .

الإطلاق الثاني : أن المراد بالفلاح : الدوام والبقاء السرمدي في النعيم ، فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب (نال الفلاح) .

- **قال ابن عاشور** : ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأنّ ذكر النّعم يؤدّي إلى تكرير شكر المنعم ، فيحمِل المنعم عليه على مقابلة النّعم بالطّاعة.
- **قال السعدي** : فوعظهم وذكرهم ، وأمرهم بالتوحيد ، وذكر لهم وصف نفسه ، وأنه ناصح أمين ، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم ، وذكرهم نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم ، فلم ينقادوا ولا استجابوا.

(**قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**) لما نصحَ نَبِيُّ اللَّهِ هودٌ قومَه هذا النصحَ الكريمَ، وذكَّرهم بآلاءِ اللهِ وَنِعَمَهُ، وأشارَ لهم إلى أن اللهَ أَهْلَكَ مَنْ كان قبلَهم لَمَّا عَصَوْا وتمردوا، وكان قد خَوَّفَهُمْ قبلَ هذا وهددهم بأنهم إن لم يؤمنوا باللهِ أَهْلَكَهُمُ اللهُ وَعَذَّبَهُمْ، قالوا له هذا الجوابَ الخبيثَ الذي هو في غايةِ الخبثِ وبذاءةِ اللسانِ والعتوِّ والتمردِ على اللهِ (قَالُوا) أي: قال: قومُ هودٍ لهود (أَجِئْتَنَا) يا هودُ بهذه الدعوى التي جئتَ بها، وَالدِّينِ الذي تَزْعُمُ وتدعو إليه لِتَصْرِفَنَا عن آلهتِنا التي كنا نعبدها (لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ) نعبد إِلَهًا واحدًا لا نشرك به شيئًا آخَرَ من الآلهةِ (وَنَذَرَ) أي: ونتركَ (مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) من الآلهةِ.

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ...) الظاهر أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا الله بالعبادة مع اعترافهم بالله حبّاً لما نشؤوا عليه وتآلفاً لما وجدوا آباءهم عليه ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم (لنعبد الله وحده) أي على قولك يا هود ودعواك قاله ابن عطية ، وقال التأويل الأوّل أظهر فيهم وفي عباد الأوثان ولا يجحد ربوبية الله من الكفرة إلا من ادّعاها لنفسه كفرعون ونمرود .

(**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) كما قال الكفار من قريش (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

- ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له .

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ) .

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

- وهذا يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله. إذا استمروا على شركهم، ويدل- أيضاً- على تصميمهم على الكفر، واحتقارهم لأمر هودعليه السلام واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدي، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبداً.

وإزاء هذا التحدي السافر من قوم هود له ولدعوته ولوعيد الله لهم، ما كان من هود- عليه السلام- إلا أن جابههم بالرد الحاسم الذي تتجلى فيه الشجاعة التامة، والثقة الكاملة بأن الله سينصره عليهم وينتقم له منهم.

(**قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ**) أي : قال هود لقومه بعد أن لجوا في طغيانهم: قد حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد.

الرجز هنا العذاب ، والمعنى وقع عليكم عذاب وغضب من ربكم .

- **قال ابن عطية** :أعلمهم بأن القضاء قد نفذ وحل عليهم الرجس وهو السخط والعذاب .
- **قال ابن عاشور** : والجمهور فسّروا الرّجس هنا بالعذاب .
- وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه قَدْ وَقَعَ مبالغة في تحقيق الوقوع، وأنه أمر لا مفر لهم منه.

وعطف الغضب على الرجس، للإشارة إلى ما سينزل بهم من عذاب هو انتقام لا يمكن دفعه، لأنه صادر من الله الذي غضب عليهم بسبب كفرهم، وبعد أن أنذرهم هددهم بوقوع العذاب عليهم، ووبخهم على مجادلتهم إياه بدون علم .

(**أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم**) أي: أتجادلوني وتخاصموني في شأن أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذي خلق كل شيء، أما هذه الأصنام التي زعمتم أنها آلهة فهي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

فأنت ترى أن هوداً- عليه السلام- قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئاً وراء الاسم الذي يطلق عليها، وهذا أعمق في الإنكار عليهم، والاستهزاء بعقولهم.

(**مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا**) أي : من عبادتها واستحقاقها للعبادة (مِن سُلْطَانٍ) أي : حجة واضحة ، بل أنزل الله من الحجج القاطعة منع عبادتها وكفر عابدها .

- إن من يستحق العبادة هومن يخلق ، من يبصر ويسمع وينفع ويضر .

قال تعالى (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

- ففيها أن المستحق للعبادة هو من يخلق ، أما من هو عاجز عن الخلق فلا يستحق أن يكون معبوداً ، وقد جرت العادة في القرآن الكريم في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود ، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود ، ويوجدكم بعد أن كنتم عدماً هو هذا ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده ، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

- قال بعض العلماء : إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن

العزيز العليم) ، وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم .

وقال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً) .

فقوله (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً) أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً .

قال بعض العلماء : لقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل ، واحتج عليه أبدع احتجاج ، بحسن أدب وخلق جميل ، لئلا يركب متن المكابرة والعناد .

فإذا كان المعبود لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئاً فما الفائدة من عبادته ؟؟ وهو أنقص وأعجز ممن عبده ! وهذا من أقوى الأدلة على بطلان هذه العبادة .

(**فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**) وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه .

(**فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ**) وقد قال الله تعالى (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

- **قال الآلوسي** : والدابر الآخر أي أهلكناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم.
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) قيل : إنّ الله تعالى أمر هوداً ومن معه بالهجرة إلى مكّة قبل أن يحلّ العذاب بعادٍ ، وإنّه توفي هنالك ودفن في الحِجْر ولا أحسب هذا ثابتاً لأنّ مكّة إنّما بناها إبراهيم وظاهر القرآن في سورة هود أنّ بين عاد وإبراهيم زمناً طويلاً ، والأظهر أنّها بالأمر بالهجرة إلى مكان بعيد عن العذاب ، وروي عن عليّ أنّ قَبْر هود بحضر موت وهذا أقرب.
- وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم .

فقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ) .

وقال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) .

وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) .

وقال تعالى (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(رِيحاً صَرْصَراً) أي : ريحاً شديدة البرودة ، شديدة الصوت .وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها كما قال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) .

(العقيم) التي لا تنتج خيراً .

(كالرميم) أي : كالشيء البالي الفاني .

(سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً) سبع ليال وثمانية أيام حسوماً : أي متتابعات بلا انقطاع مشؤومات نحسات .

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) أي : كأنهم جذوع وسيقان النخل التي قطعت رؤوسها الخاوية ، الساقط بعضها على بعض

-(خاوية) ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس .

الفوائد :

١- التأكيد على التوحيد وأن جميع الرسل دعوتهم التوحيد .

٢- الحكمة من إرسال الرسل :

أولاً : التبشير للمؤمن والإنذار للكافر .

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

ثانياً : رحمة للناس .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

ثالثاً : البلاغ المبين .

قال تعالى (وإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

وقال تعالى (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وقال تعالى (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) .

رابعاً : الدعوة إلى الله .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

خامساً : إقامة الحجة .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) .

وعندما يصيحون بالنار بعد أن يحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة جهنم :

كما قال تعالى (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) .

٣-أن هلاك الأمم متنوع ، فكل أمة أهلكت بعقوبة تختلف عن الأخرى لحكمة يريدها الله .

كما قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

٤-عدم أخذ أجرة على الدعوة ، فكل الرسل ليس فقط هود قالوا ذلك لأقوامهم .

وَبَيَّنَ تعالى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ شَأْنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ .

قال تعالى عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) .

وَقَوْلِهِ فِيهِ أَيْضًا فِي آخِرِ «سُورَةِ ص» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الطُّورِ» ، وَ «الْقَلَمِ» (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْفُرْقَانِ» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْأَنْعَامِ» (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ عَنْ هُودٍ فِي «سُورَةِ هُودٍ» (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) .

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّعَرَاءِ» عَنْ نُوحٍ ، وَهُودٍ ، وَصَالِحٍ ، وَلُوطٍ ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا) .

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا عَلَى تَعْلِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ .

٥-فضل النصيحة وأنها من وظائف الرسل ومهمتهم ، وللنصيحة فضائل :

أولاً : أنها مهمة الرسل .

قال تعالى إخباراً عن نوح (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم) .

ثانياً : أن منزلتها عظيمة .

كما في حديث (الدين النصيحة) .

ثالثاً : أنها من علامات كمال الإيمان .

كما قال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) .

رابعاً : أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم .

قال ﷺ : (للمؤمن على المؤمن ست خصال : ... وينصح له إذا غاب أو شهد) .

ينبغي أن تسود النصيحة بين المسلمين ، فإنها من أعظم مكملات الإيمان .

سئل ابن المبارك : أي الأعمال أفضل ؟ قال : النصح لله .

وقال الفضيل : المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير .

وقال أيضاً: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

قال أبو بكر المزني : ما فاق أبو بكر أصحاب رسول الله بصوم ولا بصلاة ، ولكن بشيء كان في قلبه ، قال ابن علية : الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة في خلقه " .

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبّبون الله تعالى إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى .

٥- أن الريح من جنود الله تسير بأمر الله ، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً) وقال تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

والرياح : لمن تأملها تدل على قدرة الله وعظيم تدبيره وتصريفه ، فمنها ما يكون لينا سهلاً لطيفاً تنعم به الأجسام ومنها ما يكون عنيفاً شديداً يدمر كل شيء كريح عاد (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) وسماها بالريح العقيم ، فهي لا تلقح السحاب ولا النبات وإنما تستأصل حتى جعلتهم أعجاز نخل خاوية لا تبق ولا تذر .ومنها ما يكون حاراً ومنها ما يكون بارداً ، ومنها ما لها صوت ومنها ما لا صوت لها ، ومنها ما يهب من جهة المشرق وهي الصَّبا ومن جهة المغرب وهي الدبور ومنها الجنوب ، ومنها ما يأتي بالنصر ، كما فعل الله بالمشركين حيث هزمهم بالريح ، ومنها ما يسوق السحاب ومنها ما يلقحه ، ومنها ما يلحق النبات ، فهي أنواع كثيرة جداً .

٦- أن الله لا يعاقب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) .

٧-الحذر من صفات الكفار .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)) .

[الأعراف : ٧٣- ٧٩] .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد ، وينهاهم عن الشرك والتنديد .

- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) .

- **قال الرازي** : قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثموداً لقلة مائها من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

عن ابْنَ عُمَرَ قَالَ (مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ». ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا.

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) دعوته عليه السلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين ، الأمر بعبادة الله ، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله .

- **قال ابن عاشور** : يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين ، وقد صُرح بذلك في آيات سورة هود وغيرها ، والظّاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد ، لأنّ ثمود وعاداً أبناء نسب واحد ، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة.

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: خارق من خوارق العادات ، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها .

- **قال ابن عاشور** : والبيّنة : الحجّة على صدق الدّعوى ، فهي ترادف الآية .

- ثم فسرها تعالى بقوله :

(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف ، لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله (لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) وكان عندهم بئر كبيرة ، وهي المعروفة ببئر الناقة ، يتناوبونها هم والناقة ، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها ، ولهم يوم يردونها ، وتصدر الناقة عنهم ، وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) فلا عليكم من مئونتها شيء ، (وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ) أي: بعقر أو غيره (فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (نَاقَةُ اللَّهِ) قال ابن كثير : أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله : بيت الله .
- **قال الرازي** : فإن قيل : ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله ؟

قلنا : فيه وجوه : قيل أضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً كقوله : بيت الله ، وقيل : لأنه خلقها بلا واسطة ، وقيل : لأنها لا مالك لها غير الله ، وقيل : لأنها حجة الله على القوم.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (لكم آية) أي : علامة تدل على قدرة الله ؛ وإنما قال (لكم) لأنهم هم الذين اقترحوها ، وإن كانت آية لهم ولغيرهم.

وفي وجه كونها آية قولان.

أحدهما : أنها خرجت من صخرة ملساء ، فتمخَّضت بها تمخُّضَ الحامل ، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.

والثاني : أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم ، وتسقيهم اللبن مكانه.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) أي ليس عليكم رزقها ومؤونتها.
- **وقال أبو حيان** : قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله ، إذ الأرض وما أنبت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم ، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله ينال خيرها من غير مشقّة تكلف علف ولا طعمة ، وهو شأن الإبل كما جاء في الحديث قال فضالة الإبل ، قال مالك : ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها .
- وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية .

قال تعالى عنهم أنهم قالوا (فأتنا بآية إن كنت من الصادقين) .

وفي سورة الشعراء (فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

وقال تعالى (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا) .

أي أن قوم ثمود طلبوا من صالح آية ناقة تخرج من صخرة عينوها ، فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا .

- مبصرة : أي أن هذه الآية مبصرة : أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحاً لا لبس فيه ، دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها .

(**فَظَلَمُواْ بِهَا**) أي كفروا بها وعقروها فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم .

كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

وقال تعالى (فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) .

واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صمَاء عَيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر،

- **قال ابن كثير** : وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ، واشاروا إلى صخرة هناك ، ناقة من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء [أي مضى على حملها عشرة أشهر] طويلة من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم نبيهم صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله ما قدر له

ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا أو على الصفة التي نعتوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم .

- **ونهاهم نبي ﷺ صالح عن قتلها .**

قال تعالى: (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وقال تعالى في سورة هود (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) .

وقال تعالى في سورة الشعراء (وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

أي : لا تتعرضوا لها بأي نوع من أنواع الضرر ، لا بالعقر ولا بالضرب ، ولا بغيرهما ، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعليكم .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء) نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم) .

والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك. انتهى .

وسبب نهيهم : هو خوفه عليهم أن يكون سبباً في هلاكهم ، ولعل الداعي له إلى نهيهم عن التعرض لها ، هو معرفة نبي الله صالح أن القوم متمردون مصرون على كفرهم .

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ) ذكرهم صالح عليه السلام بما أنعم الله عليهم لعلهم يعتبروا ويتوبوا :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء) في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم .

(مِن بَعْدِ عَادٍ) الذين أهلكهم الله ، وجعلكم خلفاء من بعدهم .

(وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ) أي : مكن لكم فيها وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون .

(تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا) أي : من الأراضي السهلة التي ليست بجبال .

(وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) كما هو مشاهد إلى الآن ، من آثارهم التي في الجبال من المساكن والحجر ونحوها ، وهي باقية ما بقيت الجبال .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتًا) أي : تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتاً تسكنون فيها ، وقد كانوا لقوّتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها ، كهوفاً يسكنون فيها ، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم.

- **قال ابن عاشور** : ومحلّ الامتنان هو أن جعل منازلهم قسمين : قسم صالح للبناء فيه ، وقسم صالح لنحت البيوت ، قيل : كانوا يسكنون في الصّيف القصور ، وفي الشّتاء البيوتَ المنحوتة في الجبال.

وذكر مثل ذلك في سورة هود فقال (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ) .

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ) أي : إن كنتم الآن ترون أنفسكم قد ركبتم من جسم بعظام ولحم ودم ومفاصل فاعلموا أن أصلكم من هذا التراب ، فالذي أوجدكم وأوصلكم إلى هذه الحال هو الذي لا يليق بكم أن تعبدوا غيره .

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) قيل : من العمارة ضد خلاء ، أي : جعلكم عمارها وسكانها ، وقيل : من العمر ، والمعنى أطال الله

أعماركم فيها .

(**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**) أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي ، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع ، وقد أخلت ديارهم منهم ، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم .

(**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ**) أي : قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح ، للمؤمنين المستضعفين من أتباعه .

(**أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ**) أي : أن الله أرسله إلينا وإليكم ، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء .

(**قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ**) أي : أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته .

- **قال الآلوسي** : والاستفهام في قوله جل شأنه (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مّن رَّبّهِ) للاستهزاء لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر كما حكى سبحانه عنهم بقوله (قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) فإن الجواب الموافق لسؤالهم نعم ، أو نعلم أنه مرسل منه تعالى.

ومن هنا قال غير واحد : إنه من الأسلوب الحكيم فكأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون.

- **وقال ابن عاشور** : ووَصْفُهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم إياهم.

وللتّنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه.

- **وقال رحمه الله** : والاستفهام في (أتعلمون) للتشكيك والإنكار ، أي : ما نظنّكم آمنتم بصالحٍ عليه السّلام عن علم بصدقه ، ولكنّكم اتَّبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين ، كما قال قوم نوح عليه السلام (وما نَراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وفي ذلك شَوب من الاستهزاء.

(**قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**) أي : قال المستكبرون : نحن كافرون بما صدقتم به ، من نبوة صالح ، وإنما لم يقولوا (إنا بما أرسل به كافرون) إظهارا لمخالفتهم إياهم وردا لمقالتهم .

- **قال الرازي** : وقال المستكبرون : بل نحن كافرون بما جاء به صالح ، وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى ، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه ، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما ، فبين تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد ، والإباء ، والإنكار ، والكفر وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان ، والتصديق والانقياد ، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى .

– إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه العمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق (فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ) .

(**فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**) أي : نحروا الناقة ، واستكبروا عن امتثال أمر الله (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) أي : جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به ، إن كنت حقاً رسولاً ، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً .

- **قال ابن كثير** : فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه :

منها : أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية .

ومنها : أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين : أحدهما : الشرط عليهم في قوله [ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب] ، والثاني : استعجالهم على ذلك .

ومنها : أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه ، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم .

- فعقروا الناقة : كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

وقال تعالى في سورة الشعراء (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) .

- **الذي تولى قتلها منهم** ، هو قدار بن سالف .

قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)) .

قال الشيخ السعدي :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) أي : بسبب طغيانها .

(إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) أي : أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف لعقرها حين اتفقوا على ذلك .

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ) صالح عليه السلام محذراً :

(نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) أي احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها .

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِم) أي : دمر عليهم وعمهم بعقابه ، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأصبحوا جاثمين على ركبهم لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً .

- **فإن قال قائل : لماذا قال (فعقروا الناقة) مع أن الذي تولى عقرها واحد ؟**
- **قال القرطبي** : إنما اضيف العقر إلى الكل ، لأنه كان برضى الباقين .
- **وقال ابن كثير** : وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم .
- **وقال الرازي** : واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة العظيمة : أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم .
- **وقال ابن عاشور** : ومقصدهم من نيّتهم إهلاك النّاقة أن يزيلوا آية صالح عليه السّلام لئلا يزيد عدد المؤمنين به ، لأنّ مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشِربها ، ولأنّ في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بتحفزهم للإضرار بصالح عليه السّلام وبمن آمن به بعدَ ذلك وليُرُوا صالحاً عليه السّلام أنّهم مستخفّون بوعيده إذ قال لهم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) .
- قالهم صالح لما عقروها ما أخبر تعالى عنه أنه قال (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .
- لما سمعوا هذا التهديد قرروا قتل صالح .

قال تعالى (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)) .

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ) أي : وكان في مدينة صالح – وهي الحِجْر _ تسعة رجال من أبناء أشرافهم .

(يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ) أي : شأنهم الإفساد ، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة .

(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) أي : قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله .

(لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) أي : لنقتلن صالحاً وأهله ليلاً .

(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) أي : ثم نقول لولي دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله .

(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) أي : ونحلف لهم إنا لصادقون .

(وَمَكَرُوا مَكْرًا) أي : دبروا مكيدة لقتل صالح .

(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) أي : جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم .

- **قال ابن كثير** : وذلك أن الله أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم .

(**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**) واعدهم صالح عليه السلام بالعذاب بعد ثلاثة أيام .

كما تعالى (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) .

- **قال ابن كثير** : وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه – عياذاً بالله من ذلك – لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب ، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من اسفل منهم ، ففاضت الأرواح وأزهقت النفوس في ساعة واحدة [فأصبحوا في دارهم جاثمين] أي صرعى لا أرواح فيهم .

قال تعالى (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) .

وقال تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) .

وقال تعالى (فأخذتهم الصيحة مصبحين) .

وقال تعالى (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) .

- **قال ابن كثير** : أي بادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية وخمدوا وهمدوا كما يهمد ييبس الزرع والنبات .
- قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج : هي الزلزلة الشديدة.
- **قال الشنقيطي** : الرجفة هي الاضطراب الشديد ، أي : رجفت بهم الأرض واضطربت اضطراباً شديداً .

ولا منافاة : فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعاً .

ونجى الله صالحاً ومن معه :

قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) .

(**فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**) قال ابن كثير : هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه ، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى ، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم ، تقريعاً وتوبيخاً .

- **قال ابن عاشور** : والتّولي الانصراف عن فراق وغضب .
- قوله تعالى : (فتولى عنهم) فيه قولان :

الأول : أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا .

والدليل عليه أنه تعالى قال (**فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**) والفاء تدل على التعقيب ، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم .

- **قال السمرقندي** : ويقال : إنما قال ذلك بعد إهلاكهم ، قال على وجه الحزن ، إني قد أبلغتكم الرسالة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن الله تعالى لم يهلك قوماً ما دام الرسول فيهم فإذا خرج من بين ظهرانيهم أتاهم ما أوعد لهم.

والثاني : أنه عليه السلام تولى عنهم قبل موتهم .

بدليل : أنه خاطب القوم (وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) وذلك يدل على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قال لهم (يا قوم) والأموات لا يوصفون بالقوم ، لأن اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام ، وذلك في حق الميت مفقود.

والثاني : أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك وخطاب الميت لا يجوز.

والثالث : أنه قال (ولكن لا تحبون الناصحين) فيجب أن يكونوا بحيث يصح حصول المحبة فيهم .

- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (فتولى عَنْهُمْ) أي عند اليأس منهم.

(وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم.

ويحتمل أنه قاله بعد موتهم .

كقوله عليه السلام لِقَتْلَى بَدْر (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً" فقيل : أتكلم هؤلاء الجِيَف؟ فقال : "ما أنتم بأسمَع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب) .

والأوّل أظهر.

يدل عليه (وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين) أي لم تقبلوا نُصْحِي .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (لا تحبون الناصحين) عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي ، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي ينصح ، ولذلك تقول العرب أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك .

وقال أبو حيان : قوله تعالى (لا تحبون الناصحين) أي : من نصح لك من رسول أو غيره أي : ديدنكم ذلك لغلبة شهواتكم على عقولكم.

وجاء لفظ (الناصحين) عامّاً أي : أيّ شخص نصح لكم لم تقبلوا في أي شيء نصح لكم وذلك مبالغة في ذمّهم.

الفوائد .

١- أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة . وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك .

ولذلك من كذب واحداً من الرسل فقد كذب جميع الرسل .

ولهذا يقول تعالى في كل قصة (كذبت قوم نوح المرسلين) .مع أن قوم نوح لم يأتهم إلا نوح .

وكذلك قال تعالى في عاد (كذبت عاد المرسلين) .

وكذلك في ثمود (كذبت ثمود المرسلين) .

٢- أن الضعفاء هم أتباع الرسل .

كما قال تعالى عن الكبراء أنهم كانوا يجادلون صالح (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه) .

والسبب في ذلك :

مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى بِأَنْ يَسْبِقَ الْفُقَرَاءُ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى إِجَابَةِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَاتِّبَاعِهِمْ وَإِلَى كُلِّ دَعْوَةِ إِصْلَاحٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا لِغَيْرِهِمْ وَأَنْ يَكْفُرَ بِهِمْ أَكَابِرُ الْقَوْمِ الْمُتَكَبِّرُونَ ، وَالْأَغْنِيَاءُ الْمُتْرَفُونَ ؛ لِأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَرْءُوسِينَ ، وَأَنْ يَخْضَعُوا لِلْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي تُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْإِسْرَافَ الضَّارَّ . وَتُوقِفُ شَهَوَاتِهِمْ عِنْدَ حُدُودِ الْحَقِّ وَالِاعْتِدَالِ . وَعَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ جَرَى الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ صَالِحٍ فِي قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قِيلَ : إِنَّ السُّؤَالَ لِلتَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاء .

٣- أن من أساليب الدعوة التذكير بنعم الله .

فقد قال صالح لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها وقصورها وتنحتون الجبال بيوتاً ...) .

وقال لهم (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ...) .

٤- كما أن أهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان ، فكذلك أهل الشر والفساد يتفاضلون في الشر والفساد .

فمع أن أكثر قوم صالح كانوا كافرين مفسدين إلا أن تسعة منهم كانوا أكثرهم شراً وفساداً .

ولذلك عجل الله لهم العقوبة قبل قومهم .

٥-أن أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه ، فصالح كان محبوباً عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك (قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) .

وهذا فيه دليل على خطر طلب المحمدة والمنزلة عند الناس ، لماذا ؟

لان من يطلب ذلك لا بد أن يتنازل عن كثير من أمور الشرع .

يتنازل عن توضيحها وبيان تحريمها ، لأنه اذا فعل ذلك أبغضوه وهو يريد المنزلة والجاه .

صدق من قال : ما صد عن دين الله مثل طلب المحامد .

قال ﷺ (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِه) .

وقد ذكر العلماء : أن من أعظم علامة الزهد استواء المدح والثناء ، وأن الإنسان لا يبالي بمدح أو ذم في دين الله .

عن يونس بن ميسرة ، قال : ليس الزَّهادة في الدُّنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدُّنيا أنْ تكونَ بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأنْ يكونَ حالك في المصيبة وحالُك إذا لم تُصب بها سواءً ، وأنْ يكون مادحُك وذامُّك في الحقِّ سواء .

ففسر الزهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء كُلُّها من أعمال القلوب، لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان يقول: لا تَشْهَدْ لأحدٍ بالزُّهد ، فإنَّ الزُّهد في القلب . (جامع العلوم) .

وقد قال تعالى (وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً) أي لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية ، فإنهم يعتقدون أن هذه المناصب – كالرياسة والمال والجاه والمآكل – تنقطع إذا آمنوا بالله ورسوله .

سئل الحسن البصري عن قوله تعالى (**ثَمَناً قَلِيلاً**) قال : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها .

- فالثمن القليل : يشمل المال والمنصب والجاه والشهرة والرفعة ، فإن أحبار اليهود لو آمنوا بمحمد ﷺ لذهبت عنهم بعض ما هم فيه من المكانة والمنزلة والرفعة .

وقد صدق من قال من السلف : من أحب أن يعرف ذهب دينه .

قال الحسن رحمه الله : عقوبة العالم موت القلب، قيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة (جامع بيان العلم وفضله).

٦- **أن** الآيات مهما كانت واضحة فإنها لا تهدي القوم المجرمين .

كما قال تعالى عن قوم ثمود لما جاءتهم الناقة وهي من أوضح الآيات (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي واضحة جلية في دلالتها على وحدانية الله تعالى .

٧- ينبغي الوثوق بنصر الله .

فقد دمر الله الأمم المكذبة وآبادهم عن آخرهم .

قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

ثامناً : ينبغي الاعتبار والاتعاظ عند المرور بديار المعذبين . وقد أسرع النبي ﷺ لما مر بديار ثمود .

١١ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)) .

[الأعراف : ٨٠- ٨٤] .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ)يقول تعالى: وَقَدْ أَرْسَلْنَا لُوطًا .

- ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل (سَدُوم) وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل "سَدُوم" عليهم لعائن الله.
- **قال القرطبي** : بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم ، وكان ابن أخي إبراهيم.

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) يعني أتفعلون الفعلة الخسيسة التي هي غاية في القبح وكانت فاحشتهم إتيان الذكران في أدبارهم .

- **قال ابن عطية** : والفاحشة هنا إتيان الرجال في الأدبار ، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم.
- **قال القرطبي** : ذكرها الله باسم الفاحشة ليبيّن أنها زِنًى ؛ كما قال تعالى (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) .

(مَا سَبَقَكُم بِهَا) يعني : لم يعمل بمثل عملكم .

(مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ) قبلكم .

قال عمرو بن دينار: قوله (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) قال: ما نزا ذَكَر على ذَكَر، حتى كان قوم لوط.

قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا.

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء) يعني أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء .

- **قال ابن عاشور** : والشّهوة : الرّغبة في تحصيل شيء مرغوب .

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) والمسرف : المجاوز ما أُمر به.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) قال قتادة : عابوهم واللَّهِ بغير عَيْب.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) أي : الباقين في الهلاك .

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا) أي : أنه تعالى أمطر عليهم حجارة من السماء بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مّن سِجّيل) .

(**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**) وإن كان هذا الخطاب للنبي ﷺ لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الأفعال القبيحة والفواحش الخبيث .

هذا اختصار القصة ، وتفصيلها :

- **إلى من أرسل لوط ، وبما أرسل ؟**

أرسل الله لوطاً عليه السلام إلى قومه وهم قرية سدوم ليأمرهم بعبادة الله وينهاهم عن الشرك ، وينهاهم عن الفاحشة العظمى وهي اللواطة .

ولوطٌ: هو لوطُ بنُ هارانَ ابنُ أَخِي إبراهيمَ.

أرسل إلى بلدُ سدوم والقرى التي حَوْلَهَا، وهي المعروفةُ بالمؤتفكاتِ؛ لأن المؤتفكاتِ قُرَى قومِ لوطٍ، والمؤتفكةُ بالإفرادِ يمكنُ أن يكونَ المرادُ بها جميعُ القُرَى؛ لأن مثلَ ذلك يُطْلَقُ عليه ما يُطْلَقُ على المؤنثةِ المفردةِ المجازيةِ التأنيثِ.

وقيل لقرى قومِه: (المؤتفكات) لأن جبريلَ عليه السلام أَفَكَهَا أي: قَلَبَهَا بهم فَاقْتَلَعَهَا من الأرضِ وَرَفَعَهَا إلى السماءِ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) وجَعْلُ العالِي هو السافلَ هو معنَى القلبِ والأَفْكِ؛ لأن العربَ تقولُ: أَفَكَ الشيءَ يأفكه إذا قَلَبَهُ، ومنه سُمِّيَ أسوأُ الكذبِ (إِفْكًا) لأنه قلبٌ للحقيقةِ عن ظاهرِها الصحيحِ إلى شيءٍ آخَرَ بَاطِلٍ.

- **ماذا قال لهم لوط عليه السلام ؟**

نهاهم عن الشرك ، وعن فعل الفاحشة القبيحة (اللواط) .

قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

وقال تعالى عنه أنه قال لهم (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) .

وقال تعالى في سورة النمل (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) .

وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...) .

- والفاحشةَ في لغةِ العربِ أنها كُلُّ خصلةٍ متناهيةٍ في القبحِ تُسَمِّيهَا العربُ فاحشة، وكلُّ شيءٍ بالغٍ نهايتَه تُسَمِّيهِ العربُ فاحشاً.

وهذه الخصلةُ الخسيسةُ القبيحةُ هي فاحشةُ اللواطِ – قَبَّحَهَا اللَّهُ وقبحَ مرتكبَها .

ولذا أَنْكَرَهَا نبيُّ اللهِ لوطٌ عليهم، وَبَيَّنَ أنه مُبْغِضٌ لها غايةَ البغضِ في قولِه (إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) أَيْ: من الْمُبْغِضِينَ الكارهين أَشَدَّ البغضِ والكراهيةِ.

- فهي فاحشةٌ خسيسةٌ قبيحةٌ لم يَسْبِقْ إليها أحدٌ قَوْمَ لُوطٍ، كما قال هنا: (مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) .
- قوله تعالى في سورة النمل (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) اختلف في معنى (وأنتم تبصرون)
- **قال الرازي** : ففيه وجوه :

أحدها : أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل .

وثانيها : أن المراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته .

وثالثها : تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم .

- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم.

وقيل : يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه.

وكانوا لا يستترون عتوّاً منهم وتمرّداً.

- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) .

قيل : معناه تبصرون بقلوبكم أنها معصية وقيل : تبصرون بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض ، وقيل : تبصرون آثار الكافر قبلكم وما نزل بهم من العذاب

- **قال ابن عاشور** : وجملة (وأنتم تبصرون) حالٌ زيادة في التشنيع ، أي تفعلون ذلك علَناً يبصر بعضكم بعضاً ، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.

(**شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء**) لأَنَّ النساءَ هُنَّ أزواجُكم اللاتِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ لكم، لِتَتَمَتَّعُوا بهن تَمَتُّعًا نزيهًا طاهرًا يكونُ عنه النسلُ وبقاءُ الجنسِ الآدميّ، فَتَرَكْتُمْ هذا الأمرَ الطيبَ الكريمَ وهو إتيانُ النساءِ، وهي الأزواجُ التي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، كما قال تعالى عنهم: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) .

(**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**) والإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ؛ لأن اللَّهَ خَلَقَ لهم النساءَ وجعلَ فيهن الجمالَ، وركبَ فيهن الشهوةَ؛ لأن اللَّهَ إنما رَكَّبَ الشهوةَ في الرجالِ والنساءِ، الحكمةُ الكبرى في ذلك أن يقعَ التناسلُ ويبقى نوعُ الإنسانِ؛ لأن المرأةَ إذا كانت لا تَشْتَهِي الجماعَ لا يمكنُ أن تَقْبَلَهُ بحالٍ أبدًا، فلا يمكنُ أن يُرْغِمَهَا على قبولِ جماعِ الرجلِ لها إلا شهوتُها في ذلك الفعلِ، فلو كانت لا تشتهيه ألبتةَ لَمَا قَبِلَتْهُ أبدًا وَلَتَمَنَّعَتِ النساءُ عن ذلك الفعلِ فَانْقَطَعَ نسلُ بَنِي آدمَ، وكذلك الرجلُ إن كان لم يُرَكَّبْ فيه شهوةُ هذا الفعلِ لاَ يقبلُ ذلك الفعلَ أبدًا. فجعلَ اللَّهُ الشهوةَ في الرجالِ إلى النساءِ، وفي النساءِ إلى الرجالِ؛ لتجتمعَ الشهوةُ والشهوةُ فيقعُ بذلك التناسلُ، ويبقَى نوعُ الإنسانِ. فَمَنْ صَرَفَ الشهوةَ إلى غيرِ محلِّها وجعلَها في الذَّكَرِ أَسْرَفَ؛ لأنه جَاوَزَ الحدَّ وَوَضَعَ الأمرَ في غيرِ مَوْضِعِهِ؛ لأنه لو اقْتَصَرَ الرجالُ على الرجالِ وتركوا النساءَ لاَنْقَطَعَ النسلُ وانقطعَ بَنُو آدمَ وخرب الْعَالَمُ كُلُّهُ؛ ولذا قال: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

- **بماذا وصف الله قوم لوط ؟**

وقد وصفهم الله بأوصاف عظيمه تدل على شدة تمردهم وطغيانهم ، كالفسق ، والظلم ، والإسراف ، والخبث .

فقال تعالى كما هنا في سورة الأعراف (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ **مُّسْرِفُونَ**) .

وقال تعالى (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت **تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ** إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ **فَاسِقِينَ**) .

وقال تعالى عن لوط (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ **الْمُفْسِدِينَ**) .

وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا **ظَالِمِينَ**) .

- **ماذا قالوا للوط لما نهاهم عن فعلهم القبيح ؟**

هددوه بالإخراج .

قال تعالى في سورة الشعراء (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) .

وقال تعالى في سورة الأعراف (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) .

وقال تعالى في سورة العنكبوت (... فمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(**إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**) قال قتادة، عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضًا.

- **قال قتادة** : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء.
- قال الشوكاني : ووصفهم بالتطهر ، يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة ، فلا يساكنونا في قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء
- قريتكم : إغراء لإخراجه ، لأن لوط جاءكم وليس من قريتكم .
- **ماذا فعل قوم لوط لما سمعوا بمجيء ضيفان إليه ؟**

جاءوا مسرعين يظنونهم بشر ليفعلوا بهم الفاحشة – نعوذ بالله – وهم الملائكة جاءوا لإهلاكهم .

قال تعالى (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) .

(**وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا**) وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا إبراهيم بالولد عليهم السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله .

(**هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ**) اختلف العلماء في معنى ذلك :

قيل : بناته من صلبه .

وقيل : أشار بقوله (بَنَاتِي) إلى النساء جملة ؛ إذ نبيّ القوم أب لهم ؛ ويقوّي هذا أن في قراءة ابن مسعود : "النبي أَوْلَى بِالمؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهم وَّأَزواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم".

قال الخازن : وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه : أن بنات لوط كانتا إثنتين وليستا بكافيتين للجماعة ، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار .

وقيل : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه ؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة ؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا.

وقال عِكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

- **هل آمن أحد مع لوط ؟**

نعم ، آمن معه بناته فقط .

قال تعالى (فأنجينا لوطًا وأهله) .

- **قال ابن كثير** : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم .

- **ماذا طلب لوط من ربه ؟**

طلب أن ينجيه وأهله من هؤلاء الكفرة .

قال تعالى في سورة الشعراء (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ) .

وقال تعالى (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) .

- **كيف أهلك الله قوم لوط ؟**

رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود .

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) .

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) .

- (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللَّهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.

(مَّنضُودٍ) أي : مجعول بعضه فوق بعض .

(مسومة) أي : مجعولاً فيها علامة تميزها ، قيل : على كل حجر اسم من يرمي به .

- **بما وصف الله تعالى الحجارة التي رمى بها قوم لوط ؟**

وصفها بثلاثة صفات :

الصفة الأولى : كونها من سجيل .

الصفة الثانية : منضود .

الصفة الثالثة : مسومة .

قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) .

(من سجيل) قال الآلوسي: والسجيل الطين المتحجر لقوله تعالى في الآية الأخرى (حِجَارَةً مّن طِينٍ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللَّهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ. (الشنقيطي) .

(مَّنضُودٍ) أي : مجعول بعضه فوق بعض عند نزوله عليهم .

(مسومة) أي : مجعولاً فيها علامة تميزها ، قيل : على كل حجر اسم من يرمي به .

- **ما المراد بقوله (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) ؟**

اختلف العلماء على قولين :

القول الأول : أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش) ، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون .

والثاني : الضمير يعود على الحجارة ، أي : وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم .

ورجحه ابن عطية .

- **ماذا أمر الله بعد هلاك قوم لوط ؟**

أمر بالنظر والاعتبار .

قال تعالى (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) .

- **قال الشنقيطي** : العاقبةُ: هي ما يَؤُولُ إليه الأمرُ عقبَ الأمرِ الأولِ، وتؤولُ إليه الحقيقةُ في ثانِي حَالٍ.

والمجرمونَ جمعُ المجرِمِ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذنبُ الذي يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ، (فَانْظُرْ كَيْفَ) الحالُ التي يَؤُولُ إليها أمرُ المجرمينَ وعاقبتُهم، وهو الدمارُ والنكالُ، والعذابُ المستأصلُ المتصلُ بعذابِ الآخرةِ.

- **ماذا أمرت الملائكة لوطاً عندما أرادوا إهلاك قومه ؟**

بالخروج هو وأهله ليلاً .

قال تعالى في سورة هود (قالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

وقال تعالى في سورة الحجر (فأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) .

- وقد جرت سنة الله أنه إذا أراد إهلاك قوم نبي عصوه أن يأمره بالخروج والانفصال عنهم ، لينجيه ويستأصلهم .

(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) يذكر أن لوطاً عندما وعده الملائكة بهلاك قومه بقوله (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) استعجل نزول العذاب ، فقال لهم : الآن ، الآن ، فقالوا له (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) .

- وقد بين في آية اخرى أنه نزل بهم وقت الإشراق كما قال تعالى (فأخذتهم الصيحة مشرقين) .

- **هل كفر أحد من أهل لوط ؟**

نعم ، زوجته ، وهلكت مع قومها .

قال تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) .

قال تعالى (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)

وقال تعالى (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

- (مِنَ الْغَابِرِينَ) أي: من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم وعلى طريقتهم، في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها .

قال ابن كثير : إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم .

(وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ) يحتمل على قراءة النصب أن يكون مستثنى من قوله (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها ، ويحتمل أن يكون من قوله (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ) أي : فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم .

قال ابن كثير : والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم .

الفوائد :

١- تحريم اللواط .

قال في المغني : أجمع أهل العلم على تحريم اللواط ، وقد ذمه الله في كتابه وعاب على من فعله ، وذمه رسول الله ﷺ فقال الله

تعالى (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) .

وقد نقل الذهبي الاتفاق عل أنه من كبائر الذنوب .

وجريمة اللواط لم يعملها أحد من العالمين قبل قوم لوط ، وقد ذكر الله تعالى السور التي فيها عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سور من القرآن الكريم .

قال ابن القيم : لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء ، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه ﷺ قال : (اقتلوا الفاعل والمفعول به) .

- **ما عقوبة جريمة اللواط ؟**

اختلف العلماء في عقوبة اللواط على أقوال :

القول الأول : أنه عقوبته كالزاني (الرجم إن كان محصناً والجلد لغير المحصن) .

قال ابن القيم : وذهب الحسن ، وعطاء ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم النخعي ، وقتادة ، والأوزاعي ، والشافعي في ظاهر مذهبه ، والإمام أحمد في الرواية الثانية عنه إلى أن عقوبته وعقوبة الزنا سواء .

أ–قالوا : لأن الله سماه فاحشة (أتأتون الفاحشة) كما سمى الزنا فاحشة في قوله (وَلا تَقْرَبُوا الزنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) واشتراكهما في الاسم يدل على اشتراكهما في الحكم .

ب– ولأن كلاً منهما إيلاج محرم في فرج محرم ، فيعطى حكمه .

القول الثاني : أن فيه التعزير .

وهذا مذهب أبي حنيفة .

قالوا : لأنه معصية من المعاصي لم يُقدِّر الله ولا رسوله فيه حداً مقدراً فكان فيه التعزير .

القول الثالث : أن عقوبته القتل مطلقاً (محصناً أم غير محصن) .

وهو رواية عن الإمام أحمد .

قال ابن القيم : إنها أصح الروايتين ، وهو مذهب مالك .

قال ابن القيم : فذهب أبو بكر الصديق وعلي وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر والزهري وربيعة الرأي ومالك وإسحاق بن راهوية ... إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا ، وعقوبته القتل بكل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

لحديث الباب (مَنْ وَجَدتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ فَاقتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ به) .

قال ابن القيم : إن الإمام أحمد احتجَّ بهذا الحديث .

وقد نقل ابن قدامة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم إجماع الصحابة على قتله .

قال ابن القيم : اتفق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله ، ولم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة ﷺ ، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع .

والراجح أن عقوبته القتل مطلقاً .

- **واختلف الصحابة في كيفية قتله :**

فقيل : يحرق .

وهذا قول أبي بكر وعلي وابن الزبير .

قال ابن القيم: حرق باللوطية أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي، وعبد الرحمن بن الزبير، وهشام بن عبد الملك.

وقيل : يرجم بالحجارة حتى الموت .

وهو قول عمر ، وعلي ، وابن عباس .

وقيل : يرمى من أعلى بناء في البلد ثم يتبع بالحجارة .

وهو مروي عن أبي بكر ، وابن عباس .

والأظهر أن ذلك راجع إلى اجتهاد الإمام ، حسب مصلحة الردع والزجر .

٢- أن كل رسول يرسل إلى قومه ، ولم يرسل أحد لعموم الناس إلا نبينا ﷺ .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) .

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ.

وَقَال تعالى (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) .

وَقَالَ تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

وَقَالَ ﷺ (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، ...، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّة) متفق عليه .

وقال ﷺ (وأرسلت إلى الخلق كافة) رواه مسلم .

وفي رواية (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) .

قيل : المراد بالأحمر العجم ، والأسود العرب ، **وقيل** : الأحمر الإنس ، والأسود الجن

وَقَالَ ﷺ (لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّار) رواه مسلم .

٣- بيان وجوب الإنكار على من أتى هذه الفاحشة .

٤- أن الفاحشة تعظم بما يقرن بها لقوله (وأنتم تبصرون) .

٥- بمجرد الإيمان يؤذى أهل الإيمان ويطردون .

كما قال تعالى هنا (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

وقال تعالى (وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) .

وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ » . قَالَ نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ) .

٦- سنة الابتلاء للأنبياء والإخراج من أوطانهم .

٧- بيان ما عليه هؤلاء القوم من المظهر الاجتماعي المنحط .

٨- أن هذه الفعلة من السفه العظيم .

٩- بيان عتو هؤلاء المكذبين للوط ، وأنهم لم يقتصروا على رد دعوته بل اتفقوا على طردهم من البلد .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)) .

[الأعراف : ٨٥ – ٩٣] .

(**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**) أي : أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ، فهو معطوف على قوله (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) .

- واختلفوا في مدين فقيل : إنه اسم البلد ، وقيل : إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام ، ومدين صار اسماً للقبيلة .
- وكانت ديارُ مدينَ بأرضِ مَعَانٍ من أطرافِ الشامِ مما يلي الحجازَ، قريبًا من بحيرةِ قومِ لوطٍ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: (مَدْيَنُ) اسمُ بلدةٍ.
- وَغَلِطَ بعضُ العلماءِ وبعضُ المؤرخين ، فَزَعَمَ أن شعيبًا كان بعد مُوسَى ، وهذا لا شَكَّ أنه غَلَطٌ؛ لأن شُعَيْبًا قَبْلَ موسى، وقد دَلَّتْ عليه آياتُ القرآنِ في سورةِ الأعرافِ هذه وغيرِها؛ لأن اللَّهَ في سورةِ الأعرافِ هذه لَمَّا ذكرَ قصةَ نوحٍ وقصةَ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ مع قومِهم قال بعدَ ذلك في الآياتِ الآتيةِ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا) فَدَلَّ على أن بعثَ موسى بآياتِ اللهِ بعدَ هؤلاءِ الرسلِ وَأُمَمِهِمْ، كما هو نَصُّ القرآنِ العظيمِ. وزعمَ بعضُ العلماءِ أن شعيبًا ابنُ بنتِ لوطٍ.

وقال بعضُ العلماءِ: هو مِمَّنْ آمَنَ مع إبراهيمَ لَمَّا نَجَا مِنَ النارِ، وهاجرَ معه . وَكُلُّهَا أقوالٌ لا دليلَ عليها، وغايةُ ما يفيدُه القرآنُ: أن اللَّهَ بعثَ نبيَّه شعيبًا إلى أهلِ مدينَ. وذكر اللهُ في آياتٍ أُخْرَى متعددةٍ – كما سيأتي في سورةِ «الحجراتِ»، وفي سورةِ «الشعراء»، وفي سورةِ «ص» وغيرِ ذلك – أن شعيبًا أرسلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيكةِ، كما سيأتي في قولِه (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّهَ سماهم مرةً بنسبهم (مدين) ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.

والذين قالوا : إنهما أُمَّتَانِ قالوا : في (مدين) قال : إنه أَخُوهُمْ حيث قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنه أخوهم بل قال (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ولم يقل: أخوهم شعيبٌ.

وَأُجِيبَ عن هذا بأنه لَمَّا ذَكَرَ مَدْيَنَ ذَكَرَ الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ وَمِنْ جُمْلَتِهَا شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه

(أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) فمعناه: أنهم يعبدونَها، وَلَمَّا ذَكَرَهُمْ في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللَّهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم وَاللَّهُ أعلمُ.

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)) .

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة -هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم .

- **قال ابن كثير** : وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ، وكانوا من أسوإِ الناس معاملة ؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقس.

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر اكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد ، وهو الولي الحميد.

(**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**) هذه دعوة الرسل كلهم ، فدعاهم إلى التوحيد وحذرهم من الشرك .

كما قال تعالى في سورة هود (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء).

(**قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**) أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به .

- المراد بالبينة ههنا المعجزة ، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها ، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً ، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه.

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مّن رَّبِّكُمْ) أي : معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم.

ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء عليهم السلام فيه ، والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الفاء في قوله سبحانه (فَأَوْفُواْ الكيل والميزان) لترتيب الأمر على مجيء البينة ، واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد ، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس .

(**فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ**) أي: فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .

قال تعالى في سورة الشعراء (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) قال ابن كثير : يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه -إذا كان لكم -تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

وقال تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

(ويل للمطففين) أي هلاك وعذاب ودمار ، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان ، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيا كاملا لأنفسهم (وإذا كالوهم أو وزنوهم

يخسرون) أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصون الكيل والوزن .

(**وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**) أي : ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات.

يقال: بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه. وظلمه فيه «وتبخسوا» تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثاني أشياءهم.

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

- **قال الآلوسي**: وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقا فإنهم كانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوة. وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم. قيل ويدخل في ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ما هو عليه للسائل عنه. وكثير ممن ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا البخس .

(**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**) أي : لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل .

(**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) أي: ما أمرتكم به من اخلاص العبادة لله وايفاء الناس حقوقهم، وترك الفساد في الأرض، خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي .

(**وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ**) ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) أي: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، والأول أظهر؛ لأنه قال (بِكُلِّ صِرَاطٍ) وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله (وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...) .

(**وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**) أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة .

(**وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ**) أي: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عَدَدكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك.

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وَاذْكُرواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ) حكى الزجاج فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كثر عددكم بعد القلة قال ابن عباس : وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين منها.

والثاني : كثركم بالغنى بعد الفقر.

والثالث : كثركم بالقوة بعد الضعف.

وذكر بعض المفسرين وجهاً رابعاً : أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من قبل.

- **قال ابن عاشور** : ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوّى فيهم قوّة التّناسل ، وحفظهم من أسباب الموتَان ، ويَسَّر لنسلهم اليفاعة حتّى كثُرت مواليدهم وقلّت وفياتُهم ، فصاروا عدداً كثيراً في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم ، فيُعد منعهم النّاس من الدّخول في دين الله سعياً في تقليل حزب الله ، وذلك كفران لنعمة الله عليهم بأنّ كثَّرهم ، وليقابلوا اعتبار هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى من الذين غضب عليهم ، إذْ استأصلهم بعد أن كانوا كثيراً فذلك من تمايز الأشياء بأضدادها.

فلذلك أعقبه بقوله (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) .

(**وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**) أي : وانظروا نظر اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الأمم إليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من

السماء لما عصوه وكذبوا رسله. أ هـ

(**وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ**) أي : قد اختلفتم علي .

(**فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا**) أي: انتظروا حتى يفصل بيننا .

- **قال ابن عطية** : وفي قوله (فَاصْبِرُواْ) قوة التهديد والوعيد ، هذا ظاهر الكلام وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار .
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا) خطاب للكفار ووعيد لهم أي تربصوا لتروا حكم الله تعالى بيننا وبينكم فإنه سبحانه سينصر المحق على المبطل ويظهره عليه ، أو هو خطاب للمؤمنين وموعظة لهم وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله تعالى بينهم وينتقم لهم منهم.

ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم فيميز الخبيث من الطيب ، والظاهر الاحتمال الأول.

- **وقال ابن عاشور** : وحكم الله أريد به حكم في الدّنيا بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين ورضاه على الذين خالفوهم ، فيظهر المحقّ من المبطل ، وهذا صدر عن ثقة شّعيب عليه السلام بأنّ الله سيحكم بينه وبين قومه استناداً لوعد الله إياه بالنَّصْر على قومه ، أو لعلمه بسنّة الله في رسله ومَن كذّبهم بإخبار الله تعالى إياه بذلك ، ولولا ذلك لجاز أن يتأخر الحكم بين الفريقين إلى يوم الحساب ، وليس هو المراد من كلامه لأنّه لا يناسب قوله (فاصبروا) إذا كان خطاباً للفريقين ، فإن كان خطابا للمؤمنين خاصة صحّ إرادة الحُكمين جميعاً.

(**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**) فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

- **قال الشنقيطي** : بَيَّنَ تَعَالَى حُكْمَهُ الَّذِي حَكَمَ بِهِ بَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) ، وَقَوْلِهِ (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ، وَقَوْلِهِ (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ) ، وَقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ الْآيَةَ) .

(**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**) هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبي الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في مِلّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة .

(**قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**) أي أتجبروننا على الخروج من الوطن ، أو العودة في ملتكم ولو كنا كارهين لذلك ؟ والاستفهام للإنكار

(**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**) أي : إن عدنا إلى دينكم ، بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان ، وبصرنا بالهدى ، نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب ! ! وهذا تيئيس للكفار من العودة إلى دينهم .

- **قوله** (**إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم**) أي : رجعنا إليها ، وهذا بالنسبة إلى غير شعيب (**إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**) قرينةٌ على أنه عودٌ بعدَ ملابسةٍ سابقةٍ لقولِه (بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا) لأَنَّ الجماعةَ الذين آمنوا لشعيبٍ كانوا كَافِرِينَ .
- بيّن تعالى في هذه الآية بأن قوم شعيب توعدوه بالإخراج من الوطن أو الرجوع لدينهم ، وهذا ديدنة الكفار : كقوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .

بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْكُفَّارَ تَوَعَّدُوا الرُّسُلَ بِالْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ ، وَالنَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِنْ لَمْ يَتْرُكُوا مَا جَاءُوا بِهِ وَقَوْلِهِ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) .

وَقَوْلِهِ عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) .

وَقَوْلِهِ (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) .

- وفي هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ معروفٌ مشهورٌ؛ لأن ظاهرَ القرآنِ هنا أن شعيبًا قد دَخَلَ في ملتهم سابقًا يومًا؛ لأَنَّ قولَهم مخاطبونَ له: (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وقول شعيبٍ مُجِيبًا لهم (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا) يدلُّ بظاهرِه على أنه قد كان فيها سابقًا يومًا ما. وأكثرُ العلماءِ يقولونَ: إن الأنبياءَ (صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم) معادنُ وَحْيٍ، ومحلُّ الخيرِ، واللهُ يقول (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) فلا يكفرونَ بالله لأَنَّ فِطْرَتَهُمْ التي وُلدوا عليها لا يُبَدِّلُهَا اللَّهُ بالكفرِ لمكانتهم عنده .

وأكثرُ الأصوليين وعلماءِ التفسيرِ أن شعيبًا لم يكن كافرًا يومًا ما. ويجابُ عن ظاهرِ الآيةِ بِجَوَابَيْنِ :

أحدُهما: أن العربَ تطلقُ لفظةَ (عَادَ) تُطلقه إطلاقين:

أحدُهما: عَادَ إلى أمرٍ كان فيه سَابِقًا.

والثاني: تقولُ العربُ: «عَادَ كذا كذا» بمعنَى (صار) إلى كذا من جَدِيدٍ ، ومنه قولُهم: عادَ الطينُ خزفًا، وعادَ الخمرُ خَلاًّ ، ولا شَكَّ أن هذا الاستعمالَ موجودٌ في (عَادَ) .

الوجهُ الثاني: وبه قال غيرُ واحدٍ: أن نَبِيَّ اللَّهِ شُعَيْبًا كان معه جماعةٌ من قومِه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومِه كانوا كُفَّارًا على ملةِ قومِهم، وهم عددٌ كثيرٌ، وهو رجلٌ واحدٌ فعُبِّر باسمِ العددِ الكثيرِ وَغَلَّبُوهُ على ذلك الواحدِ، والتزمَ معهم شعيبٌ في هذا الخطابِ تَغْلِيبًا لقومِه الأكثرين

- **قال ابن الجوزي** : فإن قيل : كيف قالوا : "لتعودن" ، وشعيب لم يكن في كفر قط ، فيعود إليه؟ فعنه جوابان.

أحدهما : أنهم لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً ، ثم آمن ، خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه ، وغلَّبوا لفظهم على لفظه ، لكثرتهم ، وانفراده.

والثاني : أن المعنى : لتصيرُنّ إلى ملتنا ؛ فوقع العَود على معنى الابتداء ، كما يقال : قد عاد عليَّ من فلان مكروه ، أي : قد لحقني منه ذلك ؛ وإن لم يكن سبق منه مكروه.

قال الشاعر :

فانْ تكنِ الأيَّامُ أحَسنَّ مَرةً . . .إليَّ فقد عَادَتْ لَهُنَّ ذُنوْبُ .

(**وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا**) أي : ما يصح ، وما ينبغي ، ولا يمكن أن نرجع إليها .

إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّنَا) فَنَبِيُّ الله شعيبٌ لما تَبَرَّأَ من الملةِ الكافريةِ، وقال إنهم إن عَادُوا إليها فقد افْتَرَوْا على اللَّهِ كَذِبًا، فَوَّضَ جميعَ أَمْرِه إلى اللَّهِ، وَبَيَّنَ أن الأمورَ كُلَّهَا بيدِ الله، فهو الذي بيدِه الهدايةُ وإليه الضلالُ، فإن نَبِيَّ اللَّهِ شعيبًا وإن كان من خيارِ المرسلين لاَ يهديه ويوفقُه إلا رَبُّهُ – جل وعلا – وهذه عادةُ العارفينَ بالله يعلمونَ أنه لاَ توفيقَ إلا بتوفيقِ اللَّهِ (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) ونحو ذلك من الآياتِ (**إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا**) يريدُ رَبُّنَا بمشيئتِه الكونيةِ القدريةِ شيئًا فلا مَفَرَّ ولاَ مَوْئِلَ عما شَاءَ وَقَدَّرَ.

(**وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**) أي : وسع علمه كل شيء .

فهو (جل وعلا) يعلمُ الموجوداتِ والمعدوماتِ والجائزاتِ والمستحيلاتِ، فإنه بإحاطةِ عِلْمِهِ ليعلمُ المعدومَ الذي سَبَقَ في سابقِ عِلْمِهِ أنه لا يوجدُ، وهو يعلمُ أن ذلك المعدومَ الذي لا يُوجَدُ أن لَوْ وُجِدَ كيف يكونُ، فهو يعلمُ مثلاً: أن أبا لَهَبٍ لَنْ يُؤْمِنَ، ومع ذلك يعلمُ لو آمَنَ أبو لهبٍ أيكونُ إيمانُه تَامًّا أو ناقصًا، كما لا يَخْفَى، وكونُه (جل وعلا) يعلمُ المعدومَ الذي لا يوجدُ أن لو وُجِدَ

كيفَ يكونُ، دَلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ من كتابِ اللهِ، من الآياتِ الدالةِ على ذلك: أن الكفارَ يومَ القيامةِ إذا رَأَوُا النارَ، وَعَايَنُوا صدقَ ما جاءت به الرسلُ، وندموا وقد فَاتَتِ الْفُرْصَةُ نَدِمُوا حيث لا ينفعُ الندمُ، وَتَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا مرةً أخرى ليُصدقوا الرسلَ، واللَّهُ يعلمُ أنه لا يَرُدُّهُمْ إلى الدنيا مرةً ثانيةً، فقد بَيَّنَ في سورةِ الأنعامِ أن هذا الردَّ الذي عَلِمَ أنه لا يكونُ، بَيَّنَ أنه لو كان لَعَلِمَ كيفَ يكونُ؛ وَلِذَا قال (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فهو يعلمُ أنهم لا يُرَدُّونَ ويعلمُ لو رُدُّوا ماذا يكونُ، كما صَرَّحَ بقولِه (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والمتخلفونَ عن غزوةِ تبوكَ لا يَحْضُرُونَهَا أبدًا؛ لأَنَّ اللَّهَ هو الذي ثَبَّطَهُمْ عنها بإرادتِه لحكمةٍ، كما بَيَّنَهُ بقولِه (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروجُ الذي لاَ يكونُ قد عَلِمَ (جل وعلا) أَنْ لو كان كيفَ يكونُ، كما صَرَّحَ به في قولِه (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

أما الخلقُ فإنهم لا يعلمونَ من العلومِ إلا ما عَلَّمَهُمْ خالقُ السماواتِ والأرضِ (جل وعلا).

(**عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا**) أي : على الله لا على غيره توكلنا واعتمدنا في جميع أمورنا .

والتوكل إسناد الأمور وتفويضها إلى الله ، مع العلم أنه لا يقع من الخير إلا ما شاء الله ، ولا يصيب العبد من الشر إلا ما كتب .

وله فضائل ستأتي بالفوائد إن شاء الله .

(**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ**) أي : احكم بيننا وبين قومنا بالحق .

(**وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**) أي : الحاكمين .

(**وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ**) يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا (لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) .

(**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**) الرجفة : الزلزلة القوية التي تؤدي إلى تحريك قوي عنيف . (**جَاثِمِينَ**) أي : موتى ، كل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده .

فَإِنْ قِيلَ: الْمَلَاكُ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ شُعَيْبٍ ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ رَجْفَةٌ، وَذَكَرَ فِي هُودٍ أَنَّهُ صَيْحَةٌ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَذَكَرَ فِي الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، قال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم) .

فَالْجَوَابُ: مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ: وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ. اهـ مِنْهُ.

قال ابن كثير : أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة "هود" فقال (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [هود:٩٤] والمناسبة في ذلك -والله أعلم -أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم (أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) فجاءت الصيحة فأسكتتهم ، وقال تعالى إخبارا عنهم في سورة الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ [إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة،" وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولَهَب (٤) ووهَج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة

من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين) .

(الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا) أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

- **قال الخازن** : قوله تعالى (الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوماً من الدهر يقال : غنيت بالمكان أي أقمت به.
- **وقال الشوكاني:** ومعنى الآية : الذين كذبوا شعيباً كأن لم يقيموا في دارهم ، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب .
- **قال ابن عطية:** قوله تعالى (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا) لفظ فيها للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم والتنبيه على العبرة بهم.
- **وقال الشنقيطي** : المعنَى: الذين كَذَّبُوا شعيبًا دَمَّرَهُمُ اللَّهُ وأهلكهم إهلاكًا مستأصلاً حتى كأنهم لم يُقِيمُوا في دارهم يومًا من الدهرِ أبدًا ولم يُوجَدُوا، والذي زَالَ زَوَالاً كُلِّيًّا تقولُ العربُ: كأنه لم يكن يومًا ما .

(**الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ**) ابتداء خطاب ، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه.

ولما قالوا : من اتبع شعيباً خاسِر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول .

(**فَتَوَلَّى عَنْهُمْ**) فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه السلام .

(**وَقَالَ**) معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم:

(**يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي**) أي: أوصلتها إليكم ، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، وخالطت أفئدتكم .

(**وَنَصَحْتُ لَكُمْ**) فلم تقبلوا نصحي ، ولا انقدتم لإرشادي ، بل فسقتم وطغيتم.

(**فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ**) أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم. فعياذاً بك اللهم من الخزي والفضيحة ، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم ؟

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (فكيف آسى على قوم كافرين) مخاطباً نفسه على طريقة التجريد ، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم لأنهم اختاروا ذلك لأنفسهم ، ولأنه لم يترك من تحذيرهم ما لو ألقاه إليهم لأقلعوا عما هم فيه فلم يبق ما يوجب أسفه وندامته كقوله تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) .

الفوائد :

١- التأكيد على أهمية التوحيد .

٢-أن لكل نبي آية تدل على صدقه ونبوته .

٣- حكمة الله تعالى في عدم ذكر آية نبي الله شعيب .

٤-أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً ، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

٥-أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم ، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب لقومه (إِنِّيَ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ) أي: بنعم كثيرة، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.

٦-دائماً أعداء الإسلام يحاولون بكل الطرق في جعل دين الإسلام معوجاً أمام الناس .

٧- أن من أساليب الدعوة الترغيب والترهيب كما فعل شعيب عليه السلام .

٨- الحث على الرضا بما أعطى الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.

٩-وجوب التوكل على الله ، وتفويض الأمور إليه ، وخاصة في نصرة الحق ومحاربة أهل الزيغ والفساد .

والتوكل على الله له فضائل :

أولاً : أنه سبب لدخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال ﷺ (... يدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ... وعلى ربهم يتوكلون) .

وقال ﷺ (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير) .

حكى النووي في هذا الحديث : أن المراد بهؤلاء القوم هم المتوكلون .

ثانياً : أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل .

قال تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين) .

ثالثاً : التوكل من شيم أنبياء الله ورسله وأوليائه .

قال تعالى في نوح (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ).

وقال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

رابعاً : أهل التوكل هم أهل الإيمان .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي : وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون .

قال ابن القيم : فجعل التوكل شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد .

خامساً : التوكل على الله مجلبة للرزق .

عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)

سادساً : المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل .

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

سابعاً : المتوكلون الله حسبهم وكافيهم .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال (ومن يتوكل على الله

فهو حسبه) ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره . (بدائع الفوائد)

ثامناً : أهل التوكل على الله هم أهل العزة والاستعلاء .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

- والتوكل لا ينافي فعل الأسباب .

قال تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها .

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

(يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ) محافظة عليهم من العين ثم قال (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

فقد أخذ بالسبب والحيطة ، وصرح بان الاعتماد على الله وحده .

قال ابن القيم أيضاً : فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك ، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وقال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله .

قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربعة :

علمت أن رزقي لا يأكله غيري ... فاطمأنت به نفسي . وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ... فأنا مشغول به .

وعلمت أن الموت يأتي بغتة ... فأنا أبادره . وعلمت أني لا أخلو من عين الله ... فأنا مستحيٍ منه .

قال بعض العلماء لا تتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه .

قال منصور بن عمار : قلوب المتوكلين أوعية الرضا .

وقال بعضهم : علامة التوكل انقطاع المطامع : أي في الخلق والأسباب .

وقال آخر : التوكل إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى العلائق .

ومنها: أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس له: أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين؛ لقول شعيب: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) .

١٠–ذم من يأمر الناس بالطاعة والبر ولا يفعل ذلك .

قال تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) .

عن أسامة . قال : قال رسول الله ﷺ (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) رواه البخاري ومسلم .

عن أنس بن مالك ﷺ ، قال: قال رسول الله ﷺ : (مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء ؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) رواه أحمد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٩٥)) .

[الأعراف : ٩٤ – ٩٥] .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ) فكذبوه أهلها .

(إِلاَّ أَخَذْنَا) أي : عاقبنا .

(أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء) ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام.

(وَالضَّرَّاء) ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك .

(لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا ، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم .

- **قال السمرقندي** : لكي يتضرعوا ، فأدغمت التاء في الضاد وأقيم التشديد مقامه ، ومعناه : لكي يدعوا ربهم ويؤمنوا بالرسل ويعرفوا ضعف معبودهم .
- **قال ابن الجوزي** : ومقصود الآية : إعلام النبي ﷺ بسنَّةِ الله في المكذِّبين ، وتهديد قريش .
- **قال أبو السعود** قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مّن نَّبِيّ) إشارةٌ إجمالية إلى بيان أحوالِ سائرِ الأمم إثرَ بيان أحوالِ الأممِ المذكورة تفصيلاً .

(ثُمَّ) إذا لم يفد فيهم ، واستمر استكبارهم ، وازداد طغيانهم .

(بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا) أي: حولَّنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا **(حَتَّى عَفَوْا)** أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر .

- **قال الرازي** : ثم بين تعالى أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد ، وإنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب فقال (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة) لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر، والمعنى : أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة ، وبالرخاء أخرى.

(وَقَالُوا) من جهلهم وغفلتهم .

(قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ) يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيح (عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، وإن أصابته سَراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيراً له) فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء .

- **قال السعدي** : أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب
- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وَّقَالُوْا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّآءُ) أي : الشدة والرخاء يعنون ليس البأساء والضراء عقوبة على تكذيبك وإنما هي عادة الله في خلقه أن بعد كل خصب جدباً وبعد كل جدب خصباً .
- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء) فنحن مثلهم ، يصيبنا ما أصابهم ، يعني : أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر ، وليس بعقوبة .

(**فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**) أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة .

قال القرطبي : قوله تعالى (فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي فجأة ليكون أكثر حسرة.

الفوائد :

١- إثبات أرسال الرسل للأمم لتبليغهم وإقامة الحجة .

٢- أن الله يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة ، وبالرخاء أخرى.

٣- رحمة الله بعباده حيث ينوع لهم الآيات ويصرفها لعلهم يرجعون .

٤- ذم من لم يعتبر ولا يتعظ ، وينسب ذلك للزمان والدهر .

٥- على المسلم أن يعتبر بما يرى ويسمع مما يحل بالمكذبين .

٦- وعليه أيضاً أن يعتبر فيشكر النعم التي أنعم الله عليه .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٩٦))

[الأعراف : ٩٦] .

(**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا**) أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) أي: قطر السماء ونبات الأرض.

(**وَلَكِنْ كَذَّبُوا**) أي : ولكن كذبوا رسله .

(**فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) أي : فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

١- أن من أسباب الرزق وحلول البركات الإيمان والتقوى ، وهناك أسباباً للرزق :

أولاً : التوكل .

قال ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير) .

ثانياً : الاستغفار والتوبة .

قال تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

وقال تعالى (ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) .

قال القرطبي : في هذه الآية والتي في هود دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار .

ثالثاً : التقوى .

قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

رابعاً : التفرغ للعبادة .

عن أبي هريرة . عن النبي ﷺ قال (إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم ! تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يدك شغلاً ولم أسد فقرك) رواه الترمذي .

خامساً : المتابعة بين الحج والعمرة .

عن عبد الله بن مسعود . قال : قال ﷺ (تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة) رواه الترمذي .

سادساً : صلة الرحم .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) متفق عليه .

سابعاً : الإنفاق في سبيل الله تعالى .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

قال ابن كثير : أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث .

وقال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) .

قال ابن عباس في تفسير الآية : اثنان من الله ، واثنان من الشيطان (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) يقول : لا تنفق مالك وأمسكه لك فإنك تحتاج إليه ، (وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ) على هذه المعاصي (وَفَضْلاً) في الرزق .

ثامناً : المهاجرة في سبيل الله .

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين : أولهما : مراغماً كثيراً ، وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

٢- قال السمرقندي : ففي الآية دليل على أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكراً ، وتكون عقوبة له إذا لم يكن شاكراً.

٣- أن التكذيب سبب لهلاك الأمم وعذابها .

٤- أن الله لا يهلك أحداً إلا بسبب ذنبه .

٥- وجوب التصديق بالرسل .

٦- شدة انتقام الله من المكذبين .

(**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)**) .

[٩٧ – ٩٩] .

ثم قال تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره :

(**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى**) أي: الكافرة .

- **قال الخازن** : قوله تعالى (أفأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر ، والمراد بالقرى مكة وما حولها ، وقيل : هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا .

(**أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا**) أي: عذابنا ونكالنا .

(**بياتا**) أي: ليلاً .

(**وَهُمْ نَائِمُونَ**) أي : في غفلة .

(**أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى**) الضحى وقت ارتفاع النهار .

(**وَهُمْ يَلْعَبُونَ**) أي: في حال شغلهم وغفلتهم .

والمعنى : أن الله (جل وعلا) قادر على إهلاكهم في الليل في حالة نومهم، وإهلاكهم في أول النهار في حالة لهوهم ولعبهم، كيف يأمنون مكره مع الكفر به ... وتكذيب رسله وقدرته على إهلاكهم ؟

(**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**) أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ، والاستفهام إنكاري ؟

(**فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**) ولهذا قال الحسن البصري، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

- الأمن من مكر الله : هو الغفلة عن عقوبته مع الإقامة على موجبها وهي المحرمات .
- حكم الأمن من مكر الله : حرام ، ودلالته من هذه الآية من وجهين :

أولاً : (**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**) لأنه استفهام إنكاري يتضمن ذمهم على ما اقترفوه ، والذم دليل على التحريم .

ثانياً : (**إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**) لأنه جعله سبباً لخسرانهم ، وما أنتج خسراً فهو محرم مبائن لتعظيم الله .

- **قال السعدي** : وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفا وجلا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد – ولو بلغت به الحال ما بلغت – فليس على يقين من السلامة.

الفوائد :

١- وجوب الخوف من مكر الله .

٢-الحذر من النعم التي يجعلها الله للعبد ، لئلا تكون استدراجاً .

٣-الأمن من مكر الله سبب للهلاك .

٤-تحريم الأمن من مكر الله .

٥- وجوب الخوف من الله ، ومن عقابه وانتقامه .

١٦ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (١٠٠)) [الأعراف : ١٠٠] .

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا) يقول تعالى: أو لم نبيّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم .

(أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم .

- **قال السعدي** : أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟ أو لم يهتدوا أن الله، لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

كما قال تعالى (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) .أي: هل ترى لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا؟

(وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) يقول: ونختم على قلوبهم .

والطبع : معناه الختم عليه والاستيثاق منه حتى لا يصل إليه خير ، كالقارورة إذا ختمتها وطبعت عليها لا يخرج شيء مما فيها ، ولا يصل إليها شيء آخر .

- فإن قيل كيف يطبع الله على قلوبهم ؟ نقول هذا بسبب ذنوبهم وكفرهم .

قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) .

وقال تعالى (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً) .

وقال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

وفي هذا أن الكفر والمعاصي سبب للطبع على القلب والرين ، والحسنات والطاعات سبب للهدى .

- **قال ابن القيم** : فالعبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً وقبِل أوامره وصدق بأخباره ، كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل ، فإن الهداية لا نهاية ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) فهداهم أولاً للإيمان ، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية ، ونظير هذا قوله تعالى (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً).

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل .

(**فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**) موعظة ولا تذكيرًا.

- السمع في القرآن وفي اللغة يُطلق إطلاقين: يُطلق السمع على ما سمعه الإنسان وسَمِعَتْهُ أُذُنُه فوَعَاهُ قَلْبُهُ. ويُطلق السمع على القبول والاستجابة، ومن إطلاق السمع على القبول والاستجابة: قوله في الصلاة: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أي: لمن أطاعه فاستجاب له.

فالعرب تقول: سمعًا وطاعة. أي: إجابة وقبولاً، ومنه هذه الآية. فقوله (فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ) السمع المنفي هنا هو سمع الطاعة والقبول. أي: إن الله إذا طبع على القلوب فالأسماع تسمع ولكن ذلك السمع لا ينشأ منه طاعة ولا قبول، والله (جل وعلا) بين أنه إذا وقع على القلوب مثل هذا الطبع وما جرى مجراه أنهم لا يستطيعون أن يسمعُوا. ونفي الاستطاعة ذكره في آيات :

كقوله (مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ) فنفى عنهم استطاعة السمع.

وكقوله: (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) .

وقال (جل وعلا) في الفرقان (فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) وهذه الاستطاعة نفيها إنما هو بحسب مشيئة الله من معاقبة الإنسان على ذنب .

الفوائد :

١- تهديد ووعيد للأمم التي استمرت على تكذيبها وكفرها ، وأنه الله قادر أن يوقع بها ما أوقع بالأمم الماضية .

٢- حكمة الله في إهلاك كل من كذب وطغى .

٣- أن من فتح الله على قلبه بالنور والهدى ، فإنه يتعظ ويعتبر بما وقع للأمم الماضية من العذاب .

٤- حكمة من حكم ذكر قصص الأنبياء وهي الاعتبار والتحذير .

٥- رحمة الله بعباده ، حيث يخوفهم ليتوبوا وينيبوا إلى الله قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) .

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)) .

[الأعراف : ١٠١ – ١٠٢] .

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى:

(**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ**) أي: يا مُحَمَّد

(**مِنْ أَنْبَائِهَا**) أي: من أخبارها .

- **قال السعدي** : ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.
- **وقال القرطبي** : وهي تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين.
- الأنباء جمع النبأ وهو الخبر، والنبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم .

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم

مثل ما وقع من الأوَّلين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا) .

- مباحث تتعلق بإهلاك الله للقرى المكذبة :

أولاً : أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى .

قال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً) .

وقال تعالى (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً) .

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) .

ثانياً : أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم .

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ) .

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً) .

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

ثالثاً : أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل .

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) .

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) .

رابعاً : أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ .

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) .

خامساً : أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

سادساً : أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

(**وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**) أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ

رَسُولا) وقال تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم) .

- البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبسًا، ومنه (البينات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبسًا، فالبينات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبسًا. ومعنى (البينات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبيًّا قط إلا ومعه معجزة تُقارب التحدِّي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما خرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عَنّي. فهو تصديق من الله، ولذا سُمِّيَ مُعْجِزَة؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر . (الشنقيطي) .

(**فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ**) الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون) . (ابن كثير) .

وقد اختلف العلماء في معنى الآية :

قيل : أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير.

قال الطبري : وأولى الأقوال بالصواب قول أبيّ بن كعب والربيع بن أنس وذلك أن من سبق في علم الله أنه لا يؤمن به فلا يؤمن أبداً وقد كان سبق في علم الله لمن هلك من الأمم الذين قص خبرهم في هذه السورة أنهم لا يؤمنون أبداً فأخبر عنهم أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجيء الرسل عند مجيئهم إليهم .

وقيل : فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذَّبوا قبل رؤيتها .

ورجح الشنقيطي ما ذكره ابن كثير رحمه الله فقال : أن الله إذا أرسل الرسل إلى خلقه قام المتَنَطِّعون الكفرة فبادروا إلى الكفر وتكذيب الرسل ، والمبادرة إلى ذلك التكذيب يكون ذنبًا عظيمًا يمنعهم الله بسببه أن يؤمنوا بعد ذلك ، فيزيغ قلوبهم ويطبع عليها ويختم ، ويبعدهم عن الخير نتيجة لمسارعتهم إلى ذلك الشر.

وإنما قلنا: إن هذا الوجه هو أظهر الأوجه لدلالة القرآن عليه لأمرين:

أحدهما : القرينة المقترنة به هنا، وهو أنه قال (فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ) أي: لأن الله طبع على قلوبهم بسبب تكذيبهم السابق؛ ولذا قال بعده مقترنًا به (كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) كذلك الطبع الذي منعهم من أن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك الطبع يطبع الله على قلوب الكافرين، وقد صرح (جل وعلا) في آيات من كتابه أن هذا الطبع يقع بسبب كفر سابق كما قال (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) فبين أن الطبع بسبب كفر سبقه. وكذلك قال (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) .

ومن أوضح ما يوضح هذا المعنى آية الأنعام، وهي قوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

- في هذا الحذر من رد الحق ، قال ابن القيم حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء :

أحدهما : رد الحق لمخالفته هواك .

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك .

قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوّلَ مَرّةٍ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك .

والثاني : التهاون بالأمر إذا حضر وقته .

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك .

قال تعالى (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) .

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة . (بدائع الفوائد) .

(**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**) أي : ونحن نطبع على قلوبهم .

(**وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم**) أي: لأكثر الأمم الماضية .

(**مِّنْ عَهْدٍ**) أي : وما وجدنا لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا مُحَمَّد من وفاء بالعهد الذي عهدناه إليهم وأوصيناهم به .

- العهد ما تجب المحافظة عليه .
- **قال الماوردي** : وفي المراد بالعهد هنا ثلاثة أقاويل.

أحدها : الميثاق الذي أخذه الله عليهم في ظهر آدم قاله أبو جعفر الطبري.

والثاني : ما جعله الله في عقولهم من وجوب شكر النعمة ، وأن الله هو المنعم ، قاله علي بن عيسى.

والثالث : أنه ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، قاله الحسن .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم من عهدٍ) أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره ، قاله أبو العالية عن أبي بن كعب ، ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوبة ولا شكروا نعم الله ولا قادتهم معجزات الأنبياء ، لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهود ينبغي أن يوفى بها ، وأيضاً فمن لدن آدم تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية وبه فسر الحسن هذه الآية فيجيء المعنى : وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة .
- **ويُفهم من قوله (لأَكْثَرِهِم)** أن هنالك عددًا قليلاً لهم عهد. وهذا هو ظاهر الآية؛ لأن الذين هم الأكثر لا عهد لهم.

بين تعالى أن أكثر الناس لا عهد لهم ، لأن من لا عهد له لا خير فيه؛ لأن كل التكاليف عهود. ومن لا يفي بعهد لا يطيع الله في شيء، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تبين أن أكثر الخلق لا خير فيهم كقوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) إلى غير ذلك من الآيات. (الشنقيطي) .

(**وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ**) أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه عليهم هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك،

- والفسق هو الخروج عن طاعة الله ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد ، ويطلق ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) .

ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ) .

الفوائد :

١- أن الله أهلك كثيراً من القرى .

٢- أن الله يقص على نبيه ﷺ أخبار الأمم المكذبة وما وقع لها تسلية له وتثبيتاً .

٣- أن كل رسول يرسله الله لقوم يأتي بآية تدل على صدقه ونبوته .

٤- رحمة الله بعباده ، حيث يرسل مع كل رسول بآية تدل على صدقه ليؤمنوا وينقادوا .

٥- التحذير من رد الحق ، وأنه سبب للطبع على القلب .

٦- خطر الذنوب والمعاصي .

٧- وجوب الوفاء بالعهد .

٨- أن إخلاف العهد من صفات الكفار .

٩- أن أكثر أهل الأرض على باطل وضلال ، وهذه سنة الله وحكمته . ١٧/رمضان/١٤٣٧هـ

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)) .

[الأعراف : ١٠٣ – ١٢٦] .

(**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ**) أي: الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

(**مُوسَى**) ابن عمران ، أفضل أنبياء بني إسرائيل ، وأحد أولي العزم من الرسل .

(**بِآيَاتِنَا**) أي: بحججنا ودلائلنا البينة .

(**إلى فِرْعَوْنَ**) وهو ملك مصر في زمن موسى .

(**وَمَلَئِهِ**) أي: قومه .

(**فَظَلَمُوا بِهَا**) أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً كقوله تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

(**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**) أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر –يا مُحَمَّد –كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله –موسى وقومه – من المؤمنين به .

- **قال الرازي** : اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ، وذكر في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص ، لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء ، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام.

واعلم أن الكناية في قوله (مّن بَعْدِهِمْ) يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم ، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم بإهلاكهم .

وقوله : (**بِآيَاتِنَا**) هذه الآية تدل على أن النبي لا بد له من آية ومعجزة بها يمتاز عن غيره ، إذ لو لم يكن مختصاً بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

والبحث الثاني : هذه الآية تدل على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة ، ومعجزات كثيرة.

وأما قوله : (فَظَلَمُواْ بِهَا) أي فظلموا بالآيات التي جاءتهم ، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه فلما كانت تلك الآيات قاهرة ظاهرة ، ثم إنهم كفروا بها فوضعوا الإنكار في موضع الإقرار والكفر في موضع الإيمان ، كان ذلك ظلماً منهم على تلك الآيات.

- قوله تعالى (**بِآيَاتِنَا**) قال تعالى في سورة النمل (فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) . وقال تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) .

(**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**) أي: أرسلني الذي هو خالقُ كل شيء وربه ومليكه.

(**رب العالمين**) الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثان .الرب: المالك المتصرف، والعالمين: كل من سوى الله ، وسموا بذلك لأنهم علم على خالقهم ، فكل ما في الكون علامة ودليل على ربوبية الله .

- الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .
- ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول : السيد ، المالك ، المصلح للشيء القائم عليه .
- **العالمين** : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال: أصحها: كل موجود سوى الله، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما) .

- **قال ابن عاشور** : والظاهر أن خطاب موسى فرعونَ بقوله (يا فرعون) خطاب إكرام لأنه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمته فليس هو بترفع عليه لأن الله تعالى قال له ولهارون (فقولا له قولاً ليّناً) ، والظاهر أيضاً أن قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون كما دلت عليه سورة طه.

(**حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**) قال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحري به.

وقالوا: و(الباء) و(على) يتعاقبان، فيقال رميت بالقوس(و) على القوس ، و"جاء على حال حسنة" و "بحال حسنة".

وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق.

(**قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**) أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم **به** .

(**فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) أي: أطلقهم من أسْرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم صلوات الرحمن .

- **قال الشوكاني** : قول تعالى (فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إسرائيل) أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه ، ويرجعون إلى أوطانهم ، وهي الأرض المقدّسة ، وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم .

(**قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمطيعك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقًا فيما ادعيت.

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) لما عرض موسى عليه السلام رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه وهو مجيئه بالبينة والخارق المعجز استدعى فرعون منه خرق العادة الدالّ على الصدق وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتحويزه ذلك ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرّر في ذهن فرعون أن موسى لا يقدر على الإتيان ببينة والمعنى إن كنت جئت بآية من ربك فاحضرها عندي لتصحّ دعواك ويثبت صدقك.

(**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**) أي : وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً ، أي حية عظيمة من ذكور الحيات ، ومعنى (مُّبِينٌ) أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه.

- في هذه الآية شبه العصا بالثعبان وهو لا يطلق إلا على الكبير من الحيات ، وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) الآية ، لأن الجان هو الحية الصغيرة ، والجواب عن هذا أنه شبهها بالثعبان في عظم خلقتها ، وبالجان في اهتزازها وخفتها وسرعة حركتها فهي جامعة بين العظم وخفة الحركة على خلاف العادة.
- وهذه العصا كان فيها أربع آيات :

أولاً : أنه يلقيها فتكون حية تسعى ، ثم يأخذها فتعود عصا .

ثانياً : أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيوناً .

ثالثاً : أنه ضرب بها البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

رابعاً : أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون .

(**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ**) هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف .

- قوله (للناظرين) أي بياضاً يراه الناظرون رؤية تعجب من بياضها.

كما قال تعالى في سورة النمل (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي : من غير بَرَص ولا مرض .

قال الحسن البصري : أخرجها – والله – كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقي ربه.

- **قال ابن عطية** : و" الجيب " الفتح في الثوب لرأس الإنسان
- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) أي : جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن .

- من غير سوء : لأنه قد تكون اليد بيضاء لمرض أو نحو ذلك .
- **قال ابن عطية** (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي : من غير برص ولا علة وإنما هي آية تجيء وتذهب .
- **قال ابن عاشور** : والمقصود من ذلك أن يعجل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله تعالى إياه عند لقاء فرعون .

(**قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**) أي: قال الملأ -وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون- موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه رَوْعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء .

كما قال تعالى (فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)..

- **فإن قيل** : قوله (إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ) حكاه الله تعالى في سورة الشعراء أنه قاله فرعون لقومه ، وحكى ههنا أن قوم فرعون قالوه ، فكيف الجمع بينهما ؟ وجوابه من وجهين :

الأول : لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم ، فحكى الله تعالى قوله ثم ، وقولهم ههنا.

والثاني : لعل فرعون قاله ابتداء فتلقنه الملأ منه فقالوه لغيره أو قالوه عنه لسائر الناس على طريق التبليغ ، فإن الملوك إذا رأوا رأياً ذكروه للخاصة وهم يذكرونه للعامة ، فكذا ههنا.

وقال أبو حيان : قوله تعالى (قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم) وفي الشعراء (قال للملإ حوله إنّ هذا لساحر عليم) والجمع بينهما : أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام فحكى هنا قولهم وهناك قوله ، أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصّة ثم تبلغه الخاصة العامة .

- قوله (**فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**) قيل : هو من قول فرعون مجيباً لهم (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) واحتجوا على صحة هذا القول بوجهين :

أحدهما : أن قوله (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) خطاب للجمع لا للواحد ، فيجب أن يكون هذا كلام فرعون للقوم.

أما لو جعلناه كلام القوم مع فرعون لكانوا قد خاطبوه بخطاب الواحد لا بخطاب الجمع.

الثاني : أنه تعالى لما ذكر قوله (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) قال بعده (قَالُواْ أَرْجِهْ) ولا شك أن هذا كلام القوم، وجعله جواباً عن قولهم (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) فوجب أن يكون القائل لقوله (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) غير الذي قالوا أرجه، وذلك يدل على أن قوله (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) كلام لغير الملأ من قوم فرعون.

والقول الثاني : أن قوله (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) من بقية كلام القوم .

- **قال الشوكاني** : ولا تنافي بين نسبة هذا القول إلى الملأ هنا ، وإلى فرعون في سورة الشعراء ، فكلهم قد قالوه ، فكان ذلك مصححاً لنسبته إليهم تارة وإليه أخرى .
- قال تعالى في سورة طه (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى.قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى.فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى.قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى).

قوله (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى) أي يوماً نجتمع فيه نحن وأنت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين .

ومعنى (سوى) أي مكان وسط تستوي أطراف البلد فيه لتوسطها بينها ، ليتمكن الجميع من الحضور (قَالَ) أي موسى لهم (

مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) هو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية .

- (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ) جميعهم (ضُحًى) أي ضحوة من النهار
- **قال ابن كثير** : ليكون أظهر وأجلى وأبين واوضح ، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى

(**قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ**) أي : أخّره. وقال قتادة: احبسهُ.

وكان موسى طلب من ربه أن يرسل معه هارون .

كما قال تعالى (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) .

وقال تعالى (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)) .

(**وَأَرْسِلْ**) وابعث .

(**فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ**) أي: في الأقاليم ومعاملة ملكك .

(**حَاشِرِينَ**) أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

(**يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**) وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً ، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) .

(**وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**) يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

(**قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**) هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، في قولهم (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) أي: قَبْلك. كما قال في الآية الأخرى (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى) فقال لهم موسى، عليه السلام (أَلْقُوا) أي: أنتم أولا قبلي.

- **قال ابن كثير** : والحكمة في هذا –والله أعلم –ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرِغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) .

- **وقال القاسمي** : وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءاً لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقةً بما كان بصدده من التأييد الإلهي ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً .

(**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ**) يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ) أي: تأكل (مَا يَأْفِكُونَ) أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) أي : فألقاها فصارت حية فإذا هي الخ ، وإنما حذف للإيذان بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء .

(**فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) أي : ظهر الحق وبان ، وبطل ما كانوا يعملون من السحر .

(**فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ**) أي: في ذلك المقام .

(**وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ**) أي : حقيرين قد اضمحل باطلهم ، وتلاشى سحرهم ، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

(**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**) فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجداً وقالوا (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) .

- قوله تعالى (قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ) الظاهر أن قائل ذلك جميع السحرة ، وقيل : بل قاله رؤساؤهم .
- **قال السعدي** : وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر ، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ، ما لا يعرفه غيرهم ، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها .
- **وقال الشنقيطي** : وَاعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ السِّحْرِ مَعَ خِسَّتِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا يَضُرُّ ، وَلَا يَنْفَعُ ، قَدْ كَانَ سَبَبًا لِإِيمَانِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ . لِأَنَّهُمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِالسِّحْرِ عَرَفُوا مُعْجِزَةَ الْعَصَا خَارِجَةً عَنْ طَوْرِ السِّحْرِ ، وَأَنَّهَا أَمْرٌ إِلَهِيٌّ فَلَمْ يُدَاخِلْهُمْ شَكٌّ فِي ذَلِكَ . فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ الَّذِي لَا يُزَعْزِعُهُ الْوَعِيدُ ، وَالتَّهْدِيدُ . وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ عَالِمِينَ بِالسِّحْرِ جِدًّا ، لَأَمْكَنَ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ مَسْأَلَةَ الْعَصَا مِنْ جِنْسِ الشَّعْوَذَةِ . وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .
- **قال ابن عاشور** : والإلقاء : مستعمل في سرعة الهُوِي إلى الأرض ، أي : لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريث ولا تردد.

(**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ**) كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان والأقوال ، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع ، وأمره نافذ فيهم ، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه ، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها ، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها ، ولهذا قال الله عنه (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) وقال هنا (آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عَليَّ.

(**إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ**) يعني : صنعاً صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة .

- **قال ان كثير** : أي: إن غَلَبَه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ).

(**لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) يعني : إنكم أردتم أن تخرجوا الناس من مصر بسحركم.

- **قال ابن كثير** : وهو يعلم وكلّ من له لب ، أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من "مَدْين" دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه،

وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) فإن قوما صدّقوه في قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

- **وقال السعدي** : وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال ، أن موسى عليه السلام لم يجتمع بأحد منهم ، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله ، وأن ما جاء به موسى آية إلهية ، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى ، حتى عجزوا ، وتبين لهم الحق ، فاتبعوه.

(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) يعني : تعلمون ماذا أفعل بكم .

(**لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ**) يَعْنِي الْيَدَ الْيُمْنَى ، وَالرِّجْلَ الْيُسْرَى مَثَلًا . لِأَنَّهُ أَشَدُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ قَطْعِهِمَا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ قَطْعُهُمَا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ يَبْقَى عِنْدَهُ شِقٌّ كَامِلٌ صَحِيحٌ ، بِخِلَافِ قَطْعِهِمَا مِنْ خِلَافٍ .

(**ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**) وقال في الآية الأخرى (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) أي: على الجذوع.

- الصلب أن يقتل المرء مشدوداً على خشبة .
- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ..) لما ظهرت الحجة عاد إلى عادة ملوك السوء إذا غلبوا من تعذيب من ناوأهم وإن كان محقّاً .

قوله (أَجْمَعِينَ) أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد ، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

(**قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ**) أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله .

- **قال السمرقندي** : أي : لا نبالي من عقوبتك وفعلك فإن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة.
- **قال ابن عطية** : هذا تسليم من مؤمني السحرة ، واتكال على الله ، وثقة بما عنده.
- **قال أبو حيان** : وفي قولهم (إلى ربنا) تبرؤ من فرعون ومن ربوبيته وفي الشعراء لا ضير .
- **قال ابن عاشور** : والانقلابُ : الرجوع وقد تقدم قريباً.

وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنه وعيد لا يضيرهم ، لأنهم يعلمون أنهم صائرون إلى الله رب الجميع ، وقد جاء هذا الجواب موجزاً إيجازاً بديعاً لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون ، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم ، ويرجون العقابَ لفرعون على ذلك

(**وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا**) أي : وما تعيب علينا ، وما تنكر منا إلا إيماننا بالله تعالى.

(**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا**) أي: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه .

- **قال السعدي** : ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا (رَبَّنَا أَفْرِغْ) أي: أفض (عَلَيْنَا صَبْرًا) أي: عظيماً ، كما يدل عليه التنكير ، لأن هذه محنة عظيمة ، تؤدي إلى ذهاب النفس ، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير ، ليثبت الفؤاد ، ويطمئن المؤمن على إيمانه ، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

(**وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**) أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام.

- **قال ابن عاشور** : ودعوا لأنفسهم بالوفاة على الإسلام إيذاناً بأنهم غير راغبين في الحياة ، ولا مبالين بوعيد فرعون ، وأن همتهم لا ترجو إلاّ النجاة في الآخرة ، والفوزَ بما عند الله ، وقد انخذل بذلك فرعون ، وذهب وعيده باطلاً ، ولعله لم يحقق

ما توعدهم به لأن الله أكرمهم فنجاهم من خزي الدنيا كما نجاهم من عذاب الآخرة.

والقرآن لم يتعرض هنا ، ولا في سورة الشعراء ، ولا في سورة طه ، للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة ، وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنّة.

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال في سورة النازعات (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية.

والظاهر أن فرعون أفحم لما رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يُرد جواباً.

- هذا ما قاله السحرة هنا في سورة الأعراف :

وقالوا كما قال تعالى في سورة طه :

(قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)) .

وقالوا كما في سورة الشعراء (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) .

مباحث :

أولاً : اختلف العلماء هل فعل بهم فرعون ذلك أم لا على قولين :

قيل : إنه فعل بهم ذلك .

واختاره ابن كثير .

لأن هذا هو الظاهر ، ولأن الله لم يذكر أنه لم يقتلهم ، وأيضاً الأصل أن الطاغية يفعل ذلك

كما فعل الطغاة في كثير من الأزمان بالمسلمين ، ولأنه لم يرد دليل على أنه لم يفعل بهم .

قال ابن عباس : كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء.

وقيل : لم يفعل .

واختاره الشنقيطي ، وقال : وَأَظْهَرُهُمَا عِنْدِي : أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُمْ مِنْهُ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ بِاللَّهِ تَعَالَى . لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ (أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

ثانياً : قوله تعالى (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) .

قَال الشنقيطي : يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْبُرْهَانِ الَّذِي عَايَنُوهُ . كَأَنَّهُمْ أَمْسَكَهُمْ إِنْسَانٌ وَأَلْقَاهُمْ سَاجِدِينَ بِالْقُوَّةِ لِعِظَمِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي عَايَنُوهَا . وَذَكَرَ فِي قِصَّتِهِمْ أَنَّهُمْ عَايَنُوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي سُجُودِهِمْ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نَوْعِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ .

ثالثاً : وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ السَّحَرَةِ فِي حَالِ سُجُودِهِمْ لِلَّهِ مُؤْمِنِينَ بِهِ نَظَرًا إِلَى حَالِهِمُ الْمَاضِيَةِ . كَقَوْلِهِ (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) فَأَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ الْيُتْمِ بَعْدَ الْبُلُوغِ نَظَرًا إِلَى الْحَالِ الْمَاضِيَةِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَحَلِّهِ .

رابعاً : قال هنا في الأعراف (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) وفي طه (رب هارون وموسى) .

قيل : قدم هارون هنا على موسى لمراعاة فواصل الآيات .

وقيل : إن بعضهم قالوا كذا ، وبعضهم قال كذا ، لأنهم كثير ، وكل قال قولاً يظهر أنه مؤمن برب موسى وهارون ، لكن كل بمعرفته ، والله أعلم .

خامساً : قال تعالى عن فرعون (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى) اختلف في المراد :

فقيل (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا) يعني أنا ، أم رب موسى أشد عذاباً وأبقى .

واقتصر على هذا القرطبي .

وَعَلَيْهِ فَفِرْعَوْنُ يَدَّعِي أَنَّ عَذَابَهُ أَشَدُّ وَأَبْقَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) ، وَقَوْلِهِ (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وَقَوْلِهِ (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) .

وقيل (لتعلمن أينا) يعني أنا ، أم موسى أشد عذاباً وأبقى .

وعَلَى هَذَا فَهُوَ كَالتَّهَكُّمِ بِمُوسَى لِاسْتِضْعَافِهِ لَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ يُطِعْهُ . كَقَوْلِهِ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَعْلَمُ .

سادساً : قولهم (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا) أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين.

(وَالَّذِي فَطَرَنَا) : قيل : معطوفة على ما سبق أي : لن نختارك على ما جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا : أي خلقنا وأوجدنا من العدم .

وقيل : هو قسم أَيْ : وَالَّذِي فَطَرَنَا لَا نُؤْثِرُكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَاقْضِ مَا أَيِ : اصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ . فَلَسْنَا رَاجِعِينَ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَيْ : إِنَّمَا يَنْفُذُ أَمْرُكَ فِيهَا .

سابعاً : قولهم (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) فإن قيل : كيف قالوا : وما أكرهتنا عليه من السحر ، مع أنه دلت آيات أخرى أنهم فعلوا ذلك طائعين غير مكرهين ؟

قيل : إنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر .

وقيل : أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم ، وهذا أصح .

ثامناً : ما معنى (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

أكثر الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى : أَنَّ ثَوَابَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَعَدَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ (قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) . وَأَبْقَى : أَيْ : أَدْوَمُ . لِأَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ فِرْعَوْنُ زَائِلٌ ، وَثَوَابُ اللَّهِ بَاقٍ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) وَقَالَ تَعَالَى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

الفوائد :

١-أن القلوب بين يدي الله تعالى يقلبها كيف يشاء .

سبحان الله لو تأملنا لوجدنا أن السحرة قبل إيمانهم كانوا يعدون العدة لمحاربة موسى عليه السلام حتى إنهم أقسموا في بداية المعركة بعزة فرعون إنهم كانوا في غاية الكفر والضلال ، لكن سبحان مقلب القلوب لما رأوا كيف نصر الله موسى عليه السلام بعصاه التي تحولت الى حية تسعى تلقف ما صنعوا من سحر عظيم ، إنه نصر الله؛ إنها قدرة الله جل وعلا.

حينها انقلبت قلوبهم وتحولت من منتهى الكفر والضلال الى منتهى اليقين والايمان؛ نعم إنهم آمنوا مع ما كانوا عليهم من كفر.

٢- الثبات على المبدأ حتى الممات .

٣- إن موقف هؤلاء السحرة يذكرنا بحديث الرسول ﷺ (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) .

٤-رغم شدة الإغراءات التي تعرض لها السحرة وتنوعها ما بين مال طائل(إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين) ، وجاه ومنصب

وقرب من السلطان (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) ، ورغم شدة التخويف الذي توعدهم به فرعون) فلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) لكن كل هذا الترغيب والترهيب لم يثن عزمهم ولم يفتنهم عن دينهم فجاء ردهم ثابتاً قوياً قاطعاً لا مجال فيه لتردد أو تذبذب (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

٥- إن من أكبر العقبات أمام النفس في طريقها إلى الله وتحصيل محبته ورضوانه واتباع شرعه : مطامع النفس ورغباتها المتنوعة من المال والولد والنساء والجاه والرياسة ، ومخاوف النفس على الحياة والأهل والولد والوظيفة والتجارة والجاه وما أشبه ذلك .

٦-عظم منزلة الصدق ، وإيثار محبة الله على ما سواه ، حيث نطق هؤلاء السحرة بهذه الكلمات العظيمة ، من تحقير للدنيا ، وتعظيم للآخرة .

٧- سؤال الله الصبر على الإيمان حتى الممات . الخميس / ١٧ رمضان ١٤٣٧هـ

(وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)) .

[الأعراف : ١٢٧- ١٢٩] .

(وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ) مخاطبين له بعدما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ما شاهدوا.

- **قال ابن عاشور** : فإنهم لما رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإفحامَه ، وأنه لم يَحْرْ جَوَاباً ، راموا إيقاظ ذهنه ، وإسعارَ حميته ، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون ، ولعلهم رأوا منه تأثراً بمعجزة موسى وموعظة الذين آمنوا من قومه وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده ، فهذه الجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة (قال موسى لقومه استعينوا بالله) ، والاستفهام في قوله (أتذر موسى) مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه والإنكار على الإبطاء بإتلافهم، وموسى مفعول (تذر) أي تتركه متصرفاً ولا تأخذ على يده.
- **قال الرازي** : اعلم أن بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض فرعون لموسى ولا أخذه ولا حبسه ، بل خلى سبيله فقال قومه له (أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض) .

واعلم أن فرعون كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف ، فلهذا السبب لم يتعرض له إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك ، فحملوه على أخذه وحبسه.

- **قال الماوردي** : فإن قيل : فما وجه إقدامهم على الإنكار على فرعون مع عبادتهم له؟ قيل : لأنهم رأوا منه خلاف عادته وعادة الملوك في السطوة بمن أظهر العناد وخالف ، وكان ذلك من لطف الله بموسى.

(أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ) أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ) من وجهين :

أحدهما : ليفسدوا فيها بعبادة غيرك والدعاء إلى خلاف دينك.

والثاني : ليفسدوا فيها بالغلبة عليها وأخذ قومه منها.

(**وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**) فإن قيل : فما وجه قولهم ذلك له وهم قد صدقوه على قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)؟ قيل الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كان يعبد الأصنام وكان قومه يعبدونه ، قاله الحسن.

والثاني : أنه كان يعبد ما يستحسن من البقر ولذلك أخرج السامري عجلاً جسداً له خوار وقال هذا إلهكم وإله موسى ، وكان معبوداً في قومه ، قاله السدي.

و**الثالث** : أنها كانت أصناماً يعبدها قومه تقرباً إليه ، قاله الزجاج.

- **قال السمرقندي** : قوله تعالى (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) ذلك أن فرعون كان قد جعل لقومه أصناماً يعبدونها، وكان يقول لهم هؤلاء أربابكم الصغار ، وأنا ربكم الأعلى ، فذلك قوله تعالى (وَيَذَرَكَ وَءالِهَتَكَ) يعني: يدعك ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها.

(**قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ**) يعني أبناء بني إسرائيل ومن آمن بموسى عليه السلام ، أي : كل من يولد لهم قتلناه .

(**وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**) أن نترك بناتهم .

- **قال الماوردي** : الأظهر أن معناه : نستبقيهن أحياء لضعفهن عن المنازعة وعجزهن عن المحاربة.
- وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لأنه علم أنه لا يقدر عل قتل موسى إما لقوته وإما تصوره أنه مصروف عن قتله ، فعدل إلى قتل الأبناء ليستأصل قوم موسى من بني إسرائيل فيضعف عن فرعون .
- **قال القرطبي** : ولم يقل سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه.
- واختلف المفسرون ، فمنهم من قال : كان يفعل ذلك كما فعله ابتداء عند ولادة موسى ، ومنهم من قال بل منع منه واتفق المفسرون على أن هذا التهديد وقع في غير الزمان الأول .
- **قال الشنقيطي** : وهذه الآية الكريمة تدل على أن فرعون ذبح أولاد بني إسرائيل تذبيحتين:

التذبيحة الأولى التي كانت سببًا لجعل أم موسى موسى في التابوت، كما سيأتي خبرها مفصَّلاً في سور من كتاب الله، حيث قال لها: (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) وخوفها عليه أي من قتل فرعون للأولاد حذرًا من ذلك الغلام الذي سيزول ملكه عليه.

وقال تعالى في سورة البقرة (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) .

سبب ذلك : قيل أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة ، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر

وتذبيح الأولاد الثاني: هو بعد أن جاءهم موسى نبيًّا من الله، كما صَرَّحَ الله به هنا، وأوضحه في سورة المؤمن في قوله (فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) .

- **فإن قال قائل : إن بقاء البنت حية أفضل من موتها ، فما وجه جعل ذلك من إهانتهم ؟**

إبقاء الإناث يعتبر عار وتعذيب ، لأن موت البنت أرحم من بقائها عند عدو يذلها ويهينها .

- **قال الشنقيطي** : ... فبقاؤهن [أي الإناث] تحت يد العدو يفعل بهن ما يشاء من الفاحشة والعار ويستخدمهن في الأعمال الشاقة نوع من العذاب، وموتهن راحة من هذا العذاب وقد كان العرب يتمنون موت الإناث خوفاً من مثل هذا .

(**وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**) أي : فوقية مكانة ومنزلة ، قاهرون لهم ، مذللون تحت سلطاننا .

اعتذار من فرعون للملإ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه ، أي : هم لا يقدرون أن يفسدوا في البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتي والقاهر : الغالب بإذلال.

(**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا**) أمرهم بأمرين : الاستعانة بالله والصبر .

كما قال ﷺ (وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ) .

وهذا منتزع من قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهي كلمة عظيمة جامعة يقال : إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها .

وفي استعانة الله فائدتان :

إحداهما : أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات .

والثانية : أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ، فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله الله فهو المخذول .

وفي الحديث (احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز) .

وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا (الحمد لله نستعينه ونستهديه) .

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول : (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وينبغي الاعتناء بهذا الدعاء لثلاثة أمور : لأنه وصية ، ولأن النبي ﷺ قال لمعاذ فيه : إني أحبك ، ولأنه دعاء جامع شامل .

وفي دعاء القنوت (اللهم إنا نستعينك ..) .

وقال موسى لقوم (استعينوا بالله واصبروا) .

ولما بشر ﷺ عثمان بالجنة على بلوى تصيبه قال : الله المستعان .

ومن كلام بعض العارفين : يا رب عجبت لمن يعرفك يرجو غيرك ، عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك

وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز : لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه .

قال الشيخ السعدي : وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى ، فإنه إن لم يعنه الله ، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي .

(**وَاصْبِرُوا**) أي : احبسوا أنفسكم على المكروه حتى يخلصكم الله بفضله .

والصبر : هو حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عما حرم الله .

فأمر الله : الطاعات : أن يصبر على فعلها ، والسيئات : أن يصبر عنها ، والمصائب : أن يصبر عليها ويحتسب .

قال تعالى (اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين) .

أي : (**وَاسْتَعِينُوا**) أي اطلبوا العون على أموركم الدنيوية والأخروية (**بِالصَّبْرِ**) على فعل الطاعات ، وبالصبر عن المعاصي ، وبالصبر على أقدار الله المؤلمة ، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره الله ، فلا نجاح في الدنيا ، ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

- وفضائل الصبر كثيرة :

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

ثالثاً : إطلاق البشرى لهم .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما قال ﷺ (والصبر ضياء) .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

- **قال السعدي :** قوله تعالى (اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا) وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج.

(**إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**) أي : يجعلها في آخر الأمرين لمن يشاء أن يجعلها له من عباده .

وَالْعَاقِبَةُ) أي : الحال الحسنة التي تكون في آخر الأمرين ، وما يؤول إليه الحال .

(**لِلْمُتَّقِينَ**) الذين يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

- التقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي : أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وهذا من أجمع التعاريف ، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى .

قال علي : التقوى: الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال ابن مسعود : حقيقة تقوى الله : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

قال ابن القيم : وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى ؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال: نعم ، قال : فما عملت ؟ قال: تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

قال ابن المعتز :

خل الذنوب صغيرها　　وكبيـرهــا فهــو التقى

كن مثل ماش فــوق　　أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقــرن صــغيرة　　إن الجبـــال من الحصــى

- فضائل التقوى :

أولاً : أنها سبب لتيسير الأمور .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) .

ثانياً : أنها سبب لإكرام الله .

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ثالثاً : العاقبة لأهل التقوى .

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

رابعاً : أنها سبب في دخول الجنة .

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

خامساً : أنها سبب لتكفير السيئات .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) .

سادساً : أنها سبب لحصول البشرى لهم .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا) .

سابعاً : أنها سبب للفوز والهداية .

قال تعالى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

ثامناً : أنها سبب للنجاة يوم القيامة .

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) .

تاسعاً : أنها سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

عاشراً : أنها سبب للخروج من المأزق .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

الحادي عشر : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

الثاني عشر : أنها سبب للاهتداء بالقرآن .

قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) .

الثالث عشر : بالتقوى تنال معية الله .

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

الرابع عشر : أنها خير زاد .

قال تعالى (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) .

الخامس عشر : أنها من أسباب نيل الأجر العظيم .

قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

السادس عشر : أن الآخرة خير من الدنيا للمتقين .

قال تعالى (والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) .

السابع عشر : أنها سبب لقبول الأعمال .

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

الثامن عشر : أن لباس التقوى خير لباس .

قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

التاسع عشر : أنها من أسباب الرحمة .

قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

العشرون : أنها من أسباب ولاية الله .

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

- قال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سموا متقين ، لأنهم اتقوا ما لا يُتقى .

- **قال ابن القيم** : مراتب التقوى :

التقوى ثلاث مراتب :

إحداها : حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات ، **والثانية** : حميّتها عن المكروهات ، **والثالثة** : الحمية عن الفضول وما لا يعني .

فالأولى تعطي العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

(**قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**) أي أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً ، وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده (وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) رسولاً بقتل أبنائنا الآن.

وقيل : المعنى أوذينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل (ومن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (قالوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا) أي : في ابتداء ولادتك بقتل الأبناء واسترقاق النساء (وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) أي : والآن أُعِيد علينا ذلك ؛ يعنون الوعيد الذي كان من فرعون.

وقيل : الأذى من قبلُ تسخيرهم لبني إسرائيل في أعمالهم إلى نصف النهار ، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم.

والأذى من بعدُ : تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب ؛ قاله جُوَيْبر.

وقال الحسن : الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد ، وهو أخذ الجزية.

(**قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**) يعني فرعون وقومه .

(**ويستخلفكم في الأرض**) يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم .

قال تعالى (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) بأبصاركم ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم .

(**فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**) يعني : يبتليكم بالنعمة كما ابتلاكم بالشدة ، فيظهر عملكم في حال اليسر والشدة ، لأنه قد وعد لهم بقوله تعالى (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين) .

- **قال ابن عاشور** : ومعنى (فينظر كيف تعملون) التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله تعالى ، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين ، تذكيراً لهم بأنه عليم بما يعملونه.
- **قال الشنقيطي** : وهذه الآية الكريمة فيها وعيد شديد، وتخويف عظيم، لمن استخلفه الله في الأرض بعد عدوِّه الذي كان يقاومه وبسط يده بالأرض

الفوائد :

١-شدة عذاب فرعون لبني إسرائيل .

٢-أن أهل الباطل يدعون أن ما يقوم به أهل الخير والصلاح إفساداً .

٣-خطر بقاء البنت عند عدوها .

٤- رعب أهل الباطل من الحق ولو كان قليلاً .

٥- وجوب الاستعانة بالله في جميع الأمور .

٦- أن من استعان بالله أعانه الله .

٧- أن الصبر من أعظم ما يقود للنصر والنجاح .

٨- أن من لم يصبر على فعل الطاعات ، وعلى ترك المكروهات فإنه لا يفلح .

٩- أن الأرض لله ، والله له الحكمة الكاملة في إعطائها لمن يشاء .

١٠- فضل التقوى ، وأن العاقبة للمتقين .

١١- حكمة الله في الابتلاء .

١٢- أن إهلاك العدو من أعظم النعم .

١٣- خطر من استخلفه الله في الأرض ومكنه ولم يقم بما يجب عليه من طاعة الله وشكره .

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)) .

[الأعراف : ١٣٠- ١٣١] .

(**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**) أي: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم .

- **قال ابن عاشور** : هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه ، وجعلها آيات لموسى ، ليلجئ فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج ، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة ، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده إبقاء على بني إسرائيل ، لأنهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون .

(**بِالسِّنِينَ**) المراد بالسنين: الجدب والقحط حتى تقل بسببه الأرزاق .

(**وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ**) أي: وأخذناهم بنقص من الثمرات بحيث لا تثمر أشجارهم. قال بعضهم: كانت النخلة قد تكون فيها تمرة واحدة.

(**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**) أي : لعلهم يتعظون ويعتبرون .

- قال بعض العلماء : أن كل (لعل) في القرآن هي بمعنى التعليل إلا التي في سورة الشعراء (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) قالوا : هي بمعنى : كأنكم تخلدون .

(**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ**) أي: من الخصب والرزق .

(**قَالُوا لَنَا هَذِهِ**) أي: هذا لنا بما نستحقه .

(**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**) أي: جدب وقحط

(**يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ**) التطير : هو التشاؤم .

أي : إذا جاءهم قحط، وكان في الأرض جدب، وقلَّت أرزاقهم، وجاءتهم الأمراض. والمعنى: أن الله إذا قلَّل عليهم الأرزاق، وأمسك عنهم المطر، وجاءتهم الأمراض، إن جاءتهم هذه البلايا ، يَتَشَاءموا بموسى ومن معه، ويقولون: هذا الجدب، وهذه قلة الأرزاق، وهذه الأمراض ما جاءنا إلا بسبب شؤمكم، وسبب ما جئتم به من دين موسى، كل هذه البلايا بسبب شؤمكم.

وهذه عادة الكفار إذا تَمَرَّدوا على الله، وعصوا الله، وكذبوا

كما قال الكفار لنبيّنا ﷺ مثل ذلك لما ذكره الله عنهم في سورة النساء في قوله (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ) .

وكما قال عن الرسل المذكورين في يس إن قومهم قالوا (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُم) .

وكما ذكر عن قوم صالح أنهم قالوا له (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) .

(**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة: أن الله لما ذكر أنهم يكفرون به، ويتمردون ويعارضون رسله، وأنهم مع ذلك يزعمون أن الذي يصيبهم؛ إنما هو بسبب شؤم نبيهم موسى عليه السلام ومن معه من

المؤمنين، فأكذبهم الله (أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ) أي: الطائر المشؤوم التي جاءتهم البلايا منه عند ربهم وذلك إنما جاءهم بسبب كفرهم بالله ومعصيتهم لله؛ لأن الكفر بالله ومعصية الله هو الطائر المشؤوم الذي يأتي صاحبه بسببه كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة.

الفوائد :

١- أن الله يبتلي عباده بالمصائب ليتوبوا ويرجعوا .

٢- أن قلة الأمطار عقوبة .

٣- أن قلة الأرزاق والنقص من الثمرات بسبب الذنوب والمعاصي .

٤- أن طاعة الله وتقواه سبب للأرزاق وحلول الخيرات .

٥- تحريم التطير والتشاؤم .

٦- شدة تمرد فرعون وقومه ، فبدلاً من أن يرجعوا إلى الله عند المصيبة ، نسبوها إلى موسى ومن معه . ٢١/ رمضان/ ١٤٣٧هـ

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥)) .

[الأعراف : ١٣٢- ١٣٥] .

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تَمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم (مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به .

- قيل : بقي موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّداً عشرين سنة يريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون ، فكان هذا قولهم .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ) اختلف في معناه :

فقيل : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. .

وقيل : هو كثرة الموت.

وقال مجاهد (الطُّوفَانَ) الماء، والطاعون على كل حال.

- قال الزجاج : الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً محيطاً مطبقاً بالقوم كلهم ، كالغرق الذي يشمل المدن الكثيرة ، فإنه يقال له طوفان ، وكذلك القتل الذريع طوفان ، والموت الجارف طوفان.

(وَالْجَرَادَ) فأكل ثمارهم ، وزروعهم ، ونباتهم .

(وَالْقُمَّلَ) قيل : السوس الذي يخرج من الحنطة.

وقيل : إنه الدبى ، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له .

- **قال السعدي** : والظاهر أنه القمل المعروف .

(وَالضَّفَادِعَ) فملأت أوعيتهم ، وأقلقتهم ، وآذتهم أذية شديدة ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا

طعامًا إلا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه.

(**وَالدَّمَ**) إما أن يكون الرعاف .

وقال بعض العلماء : أن ماءهم الذي يشربون ، انقلب دماً ، فكانوا لا يشربون إلا دماً .

قال ابن الجوزي : وفي الدم قولان.

أحدهما : أن ماءهم صار دماً ، قاله الجمهور.

والثاني : أنه رعاف أصابهم ، قاله زيد بن أسلم.

(**آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ**) أي : علامات فيها عبر وعظات ، ومع ذلك استكبروا عن الإيمان .

(**فَاسْتَكْبَرُوا**) عن الإيمان .

(**وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ**) المجرمين : جمع مجرم ، وهو مرتكب الجريمة ، والجريمة الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال .

(**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ**) أي : العذاب بهذه الأمور .

- **قال ابن عطية** : والظاهر من الآية أن المراد بالرجز هاهنا العذاب المتقدم الذكر من الطوفان والجراد وغيره ، وقال قوم من المفسرين : الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم مات منهم في ليلة واحدة سبعون ألف قبطي .

(**قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ**) قيل : بما أوصاك أن تدعوه به.

وقيل : بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك.

وقيل : بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن .

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (ادع لنا ربك) وإضافة الرب إلى موسى عدم إقرار بأنه ربهم حيث لم يقولوا ادعُ لنا **ربنا** .

(**لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ**) أي : نصدّقك بما جئت به.

(**وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) حتى يذهبوا حيث شاؤوا .

- في هذا دلالة على أنه طلب منهم الإيمان كما أنه طلب منهم إرسال بني إسرائيل وقدّموا الإيمان لأنه المقصود الأعظم الناشئ منه .

(**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ**) بدعوة موسى .

(**إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ**) يعني إلى الوقت الذي أجل لهم وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليم .

وقيل : المراد بالأجل ما عينوه لإيمانهم .

(**إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ**) يعني إذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به.

- وأعظم سبب لعدم التضرع عند البلاء قسوة القلب وغلظته .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) .

قوله (لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) لعل : للتعليل ، أي : لأجل أن يتضرعوا إلى الله عز وجل ويخشونه ويخشعون .

(فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) أي فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه .

(وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) أي : أصابهم القسوة ، وقسوة القلب : غلظته وشدته بحيث لا يعتبر ولا يتعظ .

وقد حذر الله من قسوة القلب فقال تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وهو من صفات أهل الكتاب فقال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فوصف أهل الكتاب بالقسوة ، ونهانا عن التشبه بهم .

- **قال ابن القيم** : ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله .
- أسباب قسوة القلب .

أولاً : نقض العهد مع الله .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

قال ابن عقيل يوماً في موعظته: يا من يجد في قلبه قسوة، احذر أن تكون نقضت عهداً، فإن الله يقول (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...).

الثاني : طول الأمل .

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

ولذلك طول الأمل ينسي الآخرة ، كما قال علي : أخوف ما أخاف عليكم اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى ، فطول الأمل ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل) .

الفوائد :

١- شدة عناد وكفر فرعون وقومه .

٢- أن الله عز وجل يرسل الآيات ويخوفهم بأنواع العقوبات لعلهم يتضرعون .

٣- ذم الكبر ، وأنه سبب في الصد عن الحق .

٤- أن الآيات التي أرسلها واضحات مفصلات .

٥- علمهم بأن موسى صادق ، ولذلك طلبوا منه أن يدعو لهم أن يرفع عنهم البلاء .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)) .

[الأعراف : ١٣٦- ١٣٧] .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) أي : فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر .

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) أي : بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها ، وعدم مبالاتهم بها .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا) أي : وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يستذلون بالخدمة أرض الشام ، وملكناهم جميع جهاتها ونواحيها : مشارقها ومغاربها

- قوله تعالى (الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ....) المراد من ذلك الاستضعاف أنه كان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ويأخذ منهم الجزية ويستعملهم في الأعمال الشاقة .
- قوله تعالى (مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا) اختلفوا في معنى مشارق الأرض ومغاربها .

فبعضهم حمله على مشارق أرض الشام ، ومصر ومغاربها ، لأنها هي التي كانت تحت تصرف فرعون لعنه الله وأيضاً قوله (التي

بَارَكْنَا فِيهَا) المراد باركنا فيها بالخصب وسعة الأرزاق وذلك لا يليق إلا بأرض الشام.

والقول الثاني : المراد جملة الأرض وذلك لأنه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان قد ملك الأرض ، وهذا يدل على أن الأرض ههنا اسم الجنس.

(**الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**) بالخيرات وكثرة الثمرات .

(**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا**) أي : تم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل في الأرض ، ونصره إياهم على عدوهم ، بسبب صبرهم .

- وكلمته الحسنى هي قوله جل ثناؤه (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) .

وقال تعالى (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (بِمَا صَبَرُواْ) أي إنما حصل ذلك التمام بسبب صبرهم ، وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج .

(**وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ**) أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع .

(**وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**) قال الزجاج : يقال عرش يعرش ويعرش إذا بني ، قيل : وما كانوا يعرشون من الجنات ، ومنه قوله تعالى (جنات معروشات) وقيل (وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ) يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء ، كصرح هامان وفرعون.

الفوائد :

١- شدة انتقام الله من المكذبين .

٢- أن الله تعالى يهلك المكذبين به بأنواع العقوبات ، مرة بالغرق ، ومرة بالرجفة ، ومرة بالريح .

٣- التكذيب بآيات الله سبب للهلاك .

٤- أن الأرض لله يورثها من يشاء .

٥- أن الله يكافئ عباده الصابرين بأن يمكنهم في الأرض .

٦- فضل الصبر والحث عليه .

٧- أن الاستخلاف والإيمان ومجاهدة الأعداء تحتاج إلى صبر .

٨- قوة الله بتدمير فرعون وما كان يصنع من المساكن والمزارع .

(وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

[الأعراف : ١٣٨- ١٤١] .

(**وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ**) هذا شروع في بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه.

- **قال ابن كثير** : يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم

سلطانه ما رأوا .

(**فَأَتَوْا**) أي: فمروا .

(**عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ**) قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم.

- العكوف الإقامة ، أي : يقيمون ملازمين عبادة الأصنام .
- قال الزجاج : ومعنى (يعكفون على أصنام لهم) يواظبون عليها ويلازمونها ، يقال : لكل من لزم شيئاً وواظب عليه : عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ.

(**قَالُواْ**) أَيْ: بَنُو إِسْرَائِيلَ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ لِتِلْكَ التَّمَاثِيلِ .

(**يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**) أي : صنما كَائِنًا كَالَّذِي لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ .

- بعد هذه الآيات والعبر والعظات والنعم العظيمة يطلبون من نبيهم عبادة الأوثان .
- **قال ابن عطية** : والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله ، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى : اجعل لنا صنماً نفرده بالعبادة ونكفر بربك ، فعرفهم موسى أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) نظيره " قول جُهّال الأعْراب وقد رأُوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أنْوَاط يعظّمونها في كل سنة يوماً : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنْوَاط.

فقال عليه الصلاة والسلام : "الله أكبر ، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى (اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، لتركَبُنّ سنَن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة حتى إنهم لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه) وكان هذا في مَخْرَجه إلى حُنَين ، على ما يأتي بيانه في "براءة" إن شاء الله تعالى.

(**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**) أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

- **قال الشوكاني** : وَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ لِأَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا يَزْجُرُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عِلْمٍ عَنْ طَلَبِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، أَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدُّ خَلْقِ اللَّهِ عِنَادًا وَجَهْلًا وَتَلَوُّنًا. وَقَدْ سَلَفَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بَيَانُ مَا جَرَى مِنْهُمْ مِنْ ذَلِك.
- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (قال إنكم قوم تجهلون) تعجب موسى عليه السلام من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ووصفهم بالجهل المطلق وأكده بأن لأنه لا جهل أعظم من هذه المقالة ولا أشنع وأتى بلفظ (تجهلون) ولم يقل جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل.

(**إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ**) أي: هالك .

- **قال الشوكاني** : لتَّبَارُ: الْهَلَاكُ، وَكُلُّ إِنَاءٍ مُنْكَسِرٍ فَهُوَ مُتَبَّرٌ، أَيْ: أَنَّ هَؤُلَاءِ هَالِكٌ مَا هُمْ فِيهِ مُدَمَّرٌ مُكَسَّرٌ، وَالَّذِي هم فيه: هو عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْهِ هَالِكٌ مُدَمَّرٌ لَا يَتِمُّ مِنْهُ شَيْءٌ.

(**وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أيْ ذَاهِبٌ مُضْمَحِلٌّ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ مَعَ عِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ.

كما قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا) .

(**قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**) الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيْ: كَيْفَ أَطْلُبُ لَكُمْ غَيْرَ اللَّهِ إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ وَقَدْ شَاهَدْتُمْ مِنْ آيَاتِهِ الْعِظَامِ مَا يَكْفِي الْبَعْضُ مِنْهُ؟ وَالْمَعْنَى: أَنَّ هذا الذي طلبتم لا يكون أَبَدًا .

(**وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**) وَالْحَالُ أَنَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِكُمْ، بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ، مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّكُمْ، وَاسْتِخْلَافِكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَإِخْرَاجِكُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ إِلَى الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ، فَكَيْفَ تُقَابِلُونَ هَذِهِ النِّعَمَ بِطَلَبِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟

- **قال ابن عاشور** : والمرادُ بالعالمين : أممُ عصرهم ، وتفضيلهم عليهم بأنهم ذرية رسول وأنبياءَ ، وبأن منهم رسلاً وأنبياء ، وبأن الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه ، وبأنه جعلهم أحراراً بعد أن كانوا عبيداً ، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيدهم بنصره وآياته ، وبعث فيهم رسولاً ليقيم لهم الشريعة.

وهذه الفضائِل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذٍ ، ومن جملة العالمين هؤلاء القوم الذين أتوا عليهم ، وذلك كناية عن إنكار طلبهم اتخاذَ أصنام مثلهم ، لأن شأن الفاضل أن لا يقلد المفضول ، لأن اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافاً بأنه أرجح رأياً وأحسن حالاً ، في تلك الناحية.

- ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين ، بينما المعروف أن مُحَمَّد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق ، والجواب عن هذه الآية :

الجواب الأول : أن الله فضل بني إسرائيل على عالم زمانهم ، بينما الأمة المحمدية مفضلة على سائر الأمم .

وهذا قول جمهور المفسرين .

قال أبوة العالية : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

قال ابن كثير : ويجب الحمل على هذا ، لأن هذه الأمة أفضل منهم .

لقوله تعالى، خطاباً لهذه الأمة (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

ولقوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) .

وقال رسول الله ﷺ (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) رواه أحمد .

ولقوله ﷺ (أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء ، ... وسميت أحمد ، وجعلت أمتي خير الأمم) رواه أحمد .

ولقوله ﷺ (يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً ، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) رواه البخاري .

ومن الآيات المبينة لفضل أمة مُحَمَّد ﷺ على أمة موسى أنه قال في أمة موسى (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) فجعل أعلى مراتبهم الفئة المقتصدة ، بخلاف أمة مُحَمَّد ﷺ فقسمهم إلى ثلاث طوائف ، وجعل فيهم طائفة أكمل من الطائفة المقتصدة وذلك في قوله في فاطر (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فجعل فيهم سابقاً بالخيرات ، وهو أعلى من المقتصد ، ووعد الجميع بظالمهم ومقتصدهم وسابقهم بجنات عدن في قوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

الجواب الثاني : أن بني إسرائيل أفضل من العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء ، وإلى هذا أشار الرازي والقرطبي والشوكاني .

قال ابن كثير : وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومُحَمَّد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه .

الجواب الثالث : أن المراد بالعالم الجمع الكثير من الناس ، فيكون المعنى : فضلتكم على الكثير من الناس لا الكل ، وهذا قول الزمخشري في الكشاف ، وضعفه الرازي ، **والصحيح الأول** .

(**وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ**) يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون .

(**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**) أي : خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أي

يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وأشده وأفظعه .

يسومونكم : يذيقونكم ويلزمونكم إياه ، **وقيل** : يديمون عذابكم .

(**يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ**) أي يذبحون الذكور دون الإناث ، وعبر بالتشديد دلالة على الكثرة ، لأنهم ذبحوا كثيراً من أبنائهم .

(**وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ**) تقدم شرحها .

(**وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**) قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك .

- وأصل البلاء الاختبار ، وقد يكون بالخير والشر ، كما قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (وبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .
- وقيل المراد بقوله (وفي ذلكم بلاء) إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء ، واستحياء النساء ، قال القرطبي : وهذا قول الجمهور .

الفوائد :

١- عظم نعمة الله على بني إسرائيل إذ نجاهم من آل فرعون ، وتجاوزهم البحر وانفلاقه لهم .

٢- خبث قلوب هؤلاء ، حيث بعد هذه النعم والآيات العظيمة ، فبدلاً من أن يشكروا الله يطلبون صنماً يعبدونه من دون الله

٣- خطر الجهل .

٤- كل شيء لغير الله فهو باطل مضمحل .

٥- شدة الإنكار على من يعصي الله ، والله قد أنعم عليه وأعطاه من النعم الكبيرة .

٦- أن الإنجاء من العدو من أعظم النعم .

٧- شدة عذاب فرعون لبني إسرائيل .

٨- شدة قوة الله عز وجل حيث أهلك فرعون .

فائدة :

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْتُ: يَا رسول الله! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكُفَّارُ يَنُوطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ وَيَعْكُفُونَ حولها، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» .

الفوائد :

١- وفيه أن المتنقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة .

٢- فيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب أو ذكر الشرك .

٣- وفيه علم من أعلام النبوة ، من حيث أنه وقع كما أخبر النبي عليه السلام .

٤- أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك .

٥- صعوبة انتزاع العادات من نفوس البشر .

(**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)) وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ١٤٣**)) .

[الأعراف : ١٤٢- ١٤٣] .

(**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**) يقول تعالى ممتنا على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة.

- قوله (وواعدنا موسى) صيغة الجمع للتعظيم .
- **قال ابن كثير** : قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) المعنى : وعدناه انقضاء الثلاثين ليلة.
- كان الله وعد نبيه موسى أنه إن أهلك عدوه وأراح قومه من تعذيب فرعون وإهانته لهم أن الله يُنزل عليه كتابًا فيه شَرْعٌ تَامٌّ، وأوامِرُ ونواهٍ، وشريعة كاملة؛ وذلك الكتاب الموعود به هو التوراة، فلما جاوزوا البَحْرَ جَاءَ وقت الميقات فذهب موسى إلى الميقات، وكان أولاً ثلاثين، ثم أتمها بعشر .
- **قال القرطبي** : والفائدة في قوله (فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون ، لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين.

(**وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**) أي : استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء .

(**وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا**) أي : في الوقت الموعود.

(**وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**) أي : أسمعه كلامه من غير واسطة.

(**قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**) سأل النظر إليه ؛ واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه.

ولا يجوز الحَمْل على أنه أراد : أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال "إِلَيْكَ" و "قَالَ لَنْ تَرَانِي".

ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات ، وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنَع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هذا التأويل. (القرطبي) .

(**قَالَ لَن تَرَانِي**) يعني: لن تراني في هذه الدار الدنيا كما سنوضحه قريبًا إن شاء الله، والمعنى: أنت أضعف يا موسى من أن تقدر على رؤية خالق السماوات والأرض؛ لأن شأنه أعظم وأمره أكبر وأجلّ من أن يقدر على رؤيته أحد في الدنيا؛ لأن الناس في الدنيا مركّبون تركيبًا لا يبلغ غاية القوة، معرضون للموت والهلاك، فأنت بهذه الدار لا تقدر أن ترى رب السماوات والأرض،

وهذا هو التحقيق في الآية .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (قال لن تراني) تعلق بهذا نُفاة الرؤية وقالوا : "لن" لنفي الأبد ، وذلك غلط ، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله (ولن يتمنَّوه أبداً بما قدمت أيديهم) ثم أخبر عنهم بتمنِّيه في النار بقوله (يا مالك ليقض علينا ربك) ولأن ابن عباس قال في تفسيرها : لن تراني في الدنيا.
- **وقال السعدي** : قوله تعالى (لن تراني) أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل ...
- استدل بهذه الآية المعتزلة والجهمية وقالوا : إن الله لا يرى في الآخرة ، وقالوا : إن (لن ...) لنفي المؤبد .

الرد عليهم :

هذا مذهب باطل ، والآية دليل عليهم من وجوه :

أولاً : أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته ، أن يسأل ما لا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال .

ثانياً : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) .

ثالثاً : أنه تعالى قال (لن تراني) ولم يقل : إني لا أُرَى ، أو لا تجوز رؤيتي ، والفرق بين الجوابين ظاهر .

رابعاً : قوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فعلق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن في نفسه، والمعلق على الممكن ممكن، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به، والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنة.

فصارت الآية دليل على الرؤية .

- **قال ابن الجوزي** : وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية ، لأن موسى مع علمه بالله تعالى ، سألها ، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها ، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك ، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص ، ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية ، ولو استحالت عليه لقال : "لا أُرى" ، ألا ترى أن نوحا لما قال (إن ابني من أهلي) أنكر عليه بقوله (إنه ليس من أهلك) ، ومما يدل على جواز الرؤية أنه علَّقها باستقرار الجبل ، وذلك جائز غير مستحيل ، فدل على أنها جائزة ، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علَّقه بمستحيل فقال (حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط) .
- **قال ابن كثير** : وقد أشكل حرف "لن" هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) .

وقوله تعالى إخبارًا عن الكفار (كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) .

- **قال الشوكاني** : وَالْجَوَابُ بِقَوْلِهِ لَنْ تَرَانِي يُفِيدُ أَنَّهُ لَا يَرَاهُ هَذَا الْوَقْتَ الَّذِي طَلَبَ رُؤْيَتَهُ فِيهِ، أَوْ أَنَّهُ لَا يُرَى مَا دَامَ الرَّائِي حَيًّا فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا رُؤْيَتُهُ فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ ثَبَتَتْ بِالْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ تَوَاتُرًا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُ السُّنَّةَ الْمُطَهَّرَةَ، وَالْجِدَالُ فِي مِثْلِ هَذَا وَالْمُرَاوَغَةُ لَا تَأْتِي بِفَائِدَةٍ، وَمَنْهَجُ الْحَقِّ وَاضِحٌ .
- **قال الشنقيطي** : التحقيق الذي لا شك فيه الذي يجب على كل مسلم اعتقاده في شأن رؤية الله (جل وعلا) أنها بدار

الدنيا جائزة عقلاً غير واقعة شرعًا، أما جوازها عقلاً فمن أعظم الأدلة عليه: أن نبي الله موسى طلبها من ربه، ولا يخفى على موسى الجائز عقلاً من المستحيل عقلاً، فمن المحال الباطل أن يكون نبي الله موسى يجهل المستحيل بحق الله ويعلمه أشياخ القدرية الجهلة الضُّلال!! أشياخ المعتزلة الجهلة الضُّلاّل!! هذا مما لا يكون ولا يقع!! فقول موسى: (رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) يدل على أن رؤية الله في دار الدنيا جائزة عقلاً، والذي منع منها عجز الآدميين عن تحمُّلها؛ لأن الله لما تجلى للجبل انْدَكَّ الجبل، فما بالك باللحم والدم؟! فهي في دار الدنيا جائزة عقلاً، وأما في الآخرة فلا شك أنها واقعة، ومن أنكرها فهو ضال مُضل منابذ للسنة المتواترة والقرآن العظيم. فلا شك أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم .

(**وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**) مع قوته وصلابته .

(**فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ**) وتحمّل تجلّيّ له .

(**فَسَوْفَ تَرَانِي**) فيمكن أن تراني .

والمعنى : أَنَّكَ لَا تَثْبُتُ لِرُؤْيَتِي وَلَا يَثْبُتُ لَهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْكَ جِرْمًا وَصَلَابَةً وَقُوَّةً، وَهُوَ الْجَبَلُ فَانْظُرْ إِلَيْهِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ وَلَمْ يَتَزَلْزَلْ عِنْدَ رُؤْيَتِي لَهُ فَسَوْفَ تَرانِي وَإِنْ ضَعُفَ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْتَ مِنْهُ أَضْعَفُ، فَهَذَا الْكَلَامُ بِمَنْزِلَةِ ضَرْبِ الْمَثَلِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْجَبَلِ .

(**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**) فَلَمَّا ظَهَرَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، أي : مدكوكاً ، قال بعض العلماء : رفاتاً تراباً مختلطاً بالأرض .

(**وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**) أي : مغشياً عليه .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وخرَّ موسى صعقاً) فيه قولان.

أحدهما : مغشياً عليه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد.

والثاني : ميتاً ، قاله قتادة ، ومقاتل.

والأول أصح ، لقوله (فلما أفاق) وذلك لا يقال للميت ، وقيل : بقي في غشيته يوماً وليلة.

- **قال ابن كثير** : والمعروف أن "الصَّعْق" هو الغشي هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة، كقوله تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، وهي قوله (فَلَمَّا أَفَاقَ) والإفاقة إنما تكون من غشي.

(**فَلَمَّا أَفَاقَ**) من الغشي .

(**قَالَ سُبْحَانَكَ**) تنزيها عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك ، ومن ذلك أن يتحمل أحد رؤيتك في دار الدنيا

(**تُبْتُ إِلَيْكَ**) قال بعض العلماء : لأن موسى تجرأ على سؤال الرؤية من غير إذن ، وكان يظن أن قدرته تتحملها .

- **قال الماوردي** : قوله (تُبْتُ إِلَيكَ) فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه تاب من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها.

والثاني : أنه تاب من اعتقاده جواز رؤيته في الدنيا.

والثالث : أنه قال ذلك على جهة التسبيح وعادة المؤمنين عند ظهور الآيات. الدالة على عظيم قدرته.

- **وقال ابن الجوزي** : قوله تعالى (سبحانك تبت إليك) فيما تاب منه ثلاثة أقوال.

أحدها : سؤاله الرؤية ، قاله ابن عباس ، ومجاهد.

والثاني : من الإقدام على المسألة قبل الإذن فيها.

والثالث : اعتقاد جواز رؤيته في الدنيا.

(**وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**) من بني إسرائيل ، واختاره ابن جرير .

وقيل : أنه لا يراك أحد .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) قولان.

أحدهما : أنك لن تُرى في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني : أول المؤمنين من بني إسرائيل ، رواه عكرمة عن ابن عباس.

الفوائد :

١- فضل موسى عليه السلام .

٢-الوصية بالإصلاح وعدم الفساد .

٣- إثبات الكلام لله تعالى إثباتاً يليق بجلاله سبحانه .

٤- أن الله لا يرى في الدنيا .

٥- من عقيدة أهل السنة والجماعة : الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عياناً بأبصارهم في عرصة القيامة وفي الجنة ، ويكلمهم ويكلمونه .

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة وغيرهم ، وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون .

أ-قال تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) . (**ناضرة**) أي حسنة ، من النضارة . (**ناظرة**) من النظر .

قال شارح الطحاوية : وهي من أظهر الأدلة .

ب-وقال تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

قال شارح الطحاوية : احتج الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله تعالى بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، وسئل مالك عن هذه الآية فقال : لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى يروه .

في الآية : أن أعظم عذاب الكفار هو الحجاب عن ربهم ، وأعظم نعيم الجنة هو رؤية الله عز وجل .

ج-وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

فالحسنى : الجنة ، **والزيادة** : هي النظر إلى وجهه الكريم فسرها بذلك رسول الله ﷺ كما في حديث صهيب عند مسلم .

د-عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً مع النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) متفق عليه ، يعني العصر والفجر . (**لا تضامون**) أي لا يلحقكم ضيم ولا مشقة في رؤيته .

معنى [**كما ترون هذا القمر**] يعني يراه المؤمنون في الجنة كما يرون هذا القمر ، فليس المعنى أن الله مثل القمر ، لأن الله ليس كمثله شيء ، بل هو أعظم وأجل ، لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية ، فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيه اشتباه ، فإننا سنرى ربنا عز وجل كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه .

هـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أناساً قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال النبي ﷺ : (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟) قالوا : لا يا رسول الله . قال : (هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟) قالوا : لا . قال : (فإنكم

ترونه كذلك) . متفق عليه .

و- وعن أبي موسى . قال : قال رسول الله ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) متفق عليه .

وأحاديث الرؤية متواترة كما نص على ذلك غير واحد من أهل العلم ، **منهم** :

ابن القيم في حادي الأرواح ، وابن أبي العز في شرح الطحاوية ، والحافظ ابن حجر في فتح الباري .

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)) .

[الأعراف : ١٤٤] .

(**قَالَ يَا مُوسَى**) استئناف مسوق لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤاله على ما اقتضته الحكمة كأنه قيل : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر على شكره .

(**إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ**) أي: اخترتك واجتبيتك وفضلتك وخصصتك بفضائل عظيمة ، ومناقب جليلة .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (عَلَى الناس) الموجودين في زمانك وهذا كما فضل قومه على عالمي زمانهم في قوله سبحانه (يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين) .

(**برسالاتي**) التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

(**وبكلامي**) إياك من غير واسطة ، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين .

(**فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ**) من النعم ، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد .

(**وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**) لله على ما خصك وفضلك.

- في هذا فضل الشكر ومنزلة الشاكرين .

والشكر : هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب ، وثناء باللسان ، وطاعة بالأركان .

بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

وباللسان ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

وبالجوارح ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ، وحديث الباب .

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين : أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله ، وشكر نعمة المال : أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله .

- كيف تحقيق الشكر ؟

أولاً : سؤال الله ذلك .

كما قال تعالى عن سليمان : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) .

وقال ﷺ لمعاذ : (يا معاذ ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) . رواه أبو داود

ثانياً : أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت .

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

ثالثاً : أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه .

قال تعالى : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

قال ابن كثير : أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة .

رابعاً : أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا ، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله .

قال ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه .

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ) . وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) .

الفوائد :

١- فضل موسى عليه الصلاة والسلام .

٢- إثبات رسالة موسى .

٣- إثبات الكلام لله تعالى إثباتاً يليق بجلاله .

٤- إثبات أن موسى كلمه ربه .

٥- فضل الشكر وعلو منزلته .

٦- ينبغي لمن أنْعِم عليه بنعمة أن يقوم بشكرها ، لتزيد وتثبت .

(**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)**) .

[الأعراف : ١٤٥] .

(**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**) أي : ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح.

- والمراد بالألواح كما قال ابن عباس- ألواح التوراة، واختلف في عددها فقيل: سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك. كما اختلف في شأنها فقيل كانت من سدر الجنة، وقيل كانت من زبرجد أو زمرد ... إلخ.

والذي نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله- تعالى- لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ في عددها أو كيفيتها.

- **قال ابن كثير** : وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت (٥) كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم.

(**مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لّكُلِّ شَيْءٍ**) فهو كالبيان للجملة التي قدمها بقوله (مِن كُلِّ شَيْءٍ) وذلك لأنه تعالى قسمه إلى ضربين : أحدهما (مَّوْعِظَةً) والآخر (تَفْصِيلاً) لما يجب أن يعلم من الأحكام ، فيدخل في الموعظة كل ما ذكره الله تعالى من الأمور التي توجب الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية ، وذلك بذكر الوعد والوعيد ، ولما قرر ذلك أولاً أتبعه بشرح أقسام الأحكام وتفصيل الحلال والحرام ، فقال (وَتَفْصِيلاً لّكُلّ شَيْء) .

- والمعنى: وكتبنا لموسى عليه السلام في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح ، ليكون ذلك

موعظة لهم من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيباً وترهيباً كما كتبنا له في تلك الألواح تفصيل كل شيء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية.

(**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ**) أي بعزيمة قوية ونية صادقة ، وبجد ومواظبة عليها .

- والضمير في قوله تعالى (فَخُذْها بِقُوَّةٍ) يعود إلى الألواح ، وقلنا له خذها بقوة؛ أي بجد وحزم، وصبر وجلد، لأنه عليه السلام قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم في الذل والاستعباد، فإذا لم يكن المتولي لإرشادهم وإلى ما فيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين، فإنه قد يعجز عن تربيتهم. ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم.

(**وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**) نظيره (واتبعوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) وقال (فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) .

والعَفْوُ أحسنُ من الاقتصاص.

والصبر أحسن من الانتصار.

(**سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**) أي: سأريكم عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار، فتلك سنتي التي لا تتغير ولا تتبدل.

- **قال ابن كثير**: وإنما قال سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدا ما يصير إليه حال من خالفني على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

وقيل : المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهي مصر، كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم.

وقيل : المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم.

وقيل : المراد بها أرض الشام التي كان يسكنها الجبارون ، فإنهم لم يدخلوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون.

والأرجح الرأي الأول ، والله أعلم .

- **قال ابن الجوزي** : فيها أربعة أقوال.

أحدها : أنها جهنم ، قاله الحسن ، ومجاهد.

والثاني : انها دار فرعون وقومه ، وهي مصر ، قاله عطية العوفي.

والثالث : أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة ، يريهم إياها عند دخولهم الشام ، قاله قتادة.

والرابع : أنها مصارع الفاسقين ، قاله السدي.

ومعنى الكلام : سأُرِيكم عاقبة من خالف أمري ، وهذا تهديد للمخالف ، وتحذير للموافق .

الفوائد :

١-أن الله كتب في التوراة كل ما يحتاجه الناس في دينهم ودنياهم .

٢-ينبغي على الإنسان أن يأخذ الأمر والطاعة بجد وحزم وقوة ، وفي الحديث (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

٣-الحث على الأخذ بأفضل الشرائع من عفو وصفح .

٤- تهديد للفاسقين المكذبين بالله وبرسوله .

(**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)**) .

[الأعراف : ١٤٦] .

(**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**) أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وقال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

قال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبدا.

وقال سفيان بن عُيَينة في قوله (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة .

قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا . (ابن كثير) .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ ..) في هذه الآية قولان.

أحدهما : أنها خاصة لأهل مصر فيما رأوا من الآيات.

والثاني : أنها عامة ، وهو أصح.

- **قال الشوكاني** : واختلف في تفسير الآيات :

فقيل : هي المعجزات.

وقيل : الكتب المنزلة.

وقيل : هي خلق السموات والأرض ، وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها.

ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المذكورة.

(**وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا**)كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) .

لفساد قلوبهم، وحسدهم لغيرهم على ما آتاه الله من فضله، وتكبرهم على الناس.

(**وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً**) أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها .

(**وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا**) أي : وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً .

(**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) أي: كذبت بها قلوبهم .

(**وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**) أي: لا يعلمون شيئًا مما فيها.

- في هذه الآية خطر التكبر وأنه سبب للطبع على القلب .

فالكبْر كان أحد أهم العوائق التي عانى منها الرسل والأنبياء والدعاة في دعوتهم.

فهذا نوح عليه السلام يشتكي إلى ربه ومولاه من جفاء قومه وذوي قرابته وتكبرهم فيقول كما أخبر عنه الله –سبحانه وتعالى (وَإِنِّي

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً) .

كما يخبر المولى -جل وعلا- عن حال قوم صالح -عليه السلام- وقومه حين آمنت طائفة منهم أعرضت طائفة بدافع الاستكبار والتعالي، قال سبحانه وتعالى (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِين) .

كما عانى منه شعيب عليه السلام من قومه، كما قال سبحانه وتعالى (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِين) .

كما أدرك موسى عليه السلام سرّ إعراض فرعون عن الاستجابة لداعي الحق، وأنه الكبر والاستعلاء، فقال كما حكى عنه الله سبحانه وتعالى (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَاب) .

كما يكشف القرآن الكريم للحبيب المصطفى ﷺ السر وراء إعراض بعض المعرضين من قومه وغيرهم ، وأن الدافع وراء ذلك هو الكبر على اتباع الحق والاحتقار لمن جاء به .

فقال سبحانه وتعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير) .

ومن هنا يتضح سر خطورة الكبر وشدة تحذير نصوص الكتاب والسنة منه، ووصفه بأنه ند للإيمان، وقسيم له، لا يجتمع معه في قلب واحد، قال الله سبحانه وتعالى (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُون)

- والكبر حرام ومن كبائر الذنوب ، فهو :

أولاً : من صفات أهل النار .

قال ﷺ (ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احتجت الجنة والنار ، فقالت النار : يدخلني الجبارون والمتكبرون) رواه مسلم .

ثانياً : لا يدخل الجنة .

قال ﷺ (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) .

وقال ﷺ (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي) رواه مسلم .

ثالثاً : عقوبتهم يطأهم الناس يوم القيامة .

قال ﷺ (المتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم) رواه مسلم .

رابعاً : لا يحب الله المستكبر .

قال تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) .

خامساً : لا ينظر الله للمتكبر في إزاره .

قال ﷺ (لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً) متفق عليه .

- لقمانُ يحذرُ ابنهُ من الكبر

قال تعالى (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور) .

قال ابنُ كثيرٍ : وَلَا تُصَعِّر خَدّك لِلنَّاسِ " يَقُول لَا تَتَكَبَّر فَتَحْتَقِر عِبَاد اللَّه وَتُعْرِض عَنْهُمْ بِوَجْهِك إِذَا كَلَّمُوك ... وَقَوْله " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْض مَرَحًا " . أَيْ خُيَلَاء مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا لَا تَفْعَل ذَلِكَ يُبْغِضك اللَّه وَلِهَذَا قَالَ" إِنَّ اللَّه لَا يُحِبّ كُلّ مُخْتَال فَخُور " أَيْ

مُخْتَال مُعْجَب فِي نَفْسه فَخُور أَيْ عَلَى غَيْره وَقَالَ تَعَالَى " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْض مَرَحًا إِنَّك لَنْ تَخْرِق الْأَرْض وَلَنْ تَبْلُغ الْجِبَال طُولًا " .ا.هـ .

وقال ابنُ العربي : (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّك) يَعْنِي لَا تُمِلْهُ عَنْهُمْ تَكَبُّرًا ، يُرِيدُ أَقْبِلْ عَلَيْهِمْ مُتَوَاضِعًا ، مُؤْنِسًا مُسْتَأْنِسًا ، وَإِذَا حَدَّثَك أَحَدُهُمْ فَأَصْغِ إلَيْهِ ، حَتَّى يُكْمِلَ حَدِيثَهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- ماذا حدث لقارونَ المتكبر؟

قال تعالى : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِين) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ ؛ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة) متفق عليه .

فهذه عقوبةُ الكبرِ في الثراءِ واللباسِ والتفاخر على الناسِ . فمن مَظَاهِرِ الْكِبْرِ الِاخْتِيَالُ فِي الْمَشْيِ : وَهُوَ يَعْنِي التَّبَخْتُرَ وَالتَّعَالِيَ فِي الْمِشْيَةِ وَكَمَا يَكُونُ الِاخْتِيَالُ بِاللِّبَاسِ الْفَاخِرِ يَكُونُ أَيْضًا بِفُرُشِ الْبُيُوتِ ، وَبِرُكُوبِ السَّيَّارَاتِ الْفَاخِرَةِ .

ومما يدخلُ تحت هذه الآيةِ قولهُ تعالى (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا).

قَالَ قَتَادَة : تِلْكَ وَاَللَّهِ أُمْنِيَة الْفَاجِرِ كَثْرَة الْمَال وَعِزَّة النَّفَر .

- **من أقوال السلف :**

قال مسروق : كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله .

وقال بعضهم : إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته .

وعن مُحَمَّد بن علي قال : ما دخل قلب امرئٍ من الكبر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك .

قال مطرف بن عبد الله : لأن أبيت نائماً وأصبح نائماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

قال الذهبي : لا أفلح والله من زكى نفسه أو أعجبته .

قال أبو سليمان الداراني : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

قال أبو بكر : لا يحقرن أحدٌ أحداً من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير .

وقال الأحنف بن قيس : ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه .

وقال مالك بن دينار : كيف يتكبر من أوله نطفة مذِرَة ، وآخره جيفة قَذِرَة ، وهو فيما بين ذلك حامل عَذِرة .

وقال حاتم الأصم : أصل المصيبة ثلاثة أشياء : الكبر ، والحرص ، والحسد .

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

وقال عمر بن عبد العزيز : إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة .

- **درجات التكبر :**

الأول : التكبر على الله .

وهو أفحش أنواع الكبر ، مثل فرعون حين استكبر وقال : أنا ربكم الأعلى ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

ثانياً : التكبر على الرسل .

كما فعلت الأقوام المكذبة مع رسلها، فترفعت عن الانقياد لهم كما حكى الله عنهم (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقال تعالى عنهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) .

وهذا الكبر قريب من الأول ، وإن كان دونه .

الثالث : التكبر على العباد .

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره .

وهذا دون الأول والثاني بكثير ، لكنه عظيم لأمرين :

أ- أن الكبر والعز والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز لا يليق به إلا الذل لله والانكسار .

ب- أنه يدعو إلى مخالفة الله في أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله .

الفوائد :

١- ذم التكبر ، وأنه سبب لمنع العبد من فهم آيات الله والاعتبار بها .

٢- الحث على تدبر وتفهم آيات الله والاتعاظ بها .

٣- أن الكبر سبب لمنع الخير والفهم عن العبد .

٤-فضل التواضع ولين الجانب وقبول الحق .

٥-خطر التكذيب بآيات الله .

٦- ذم الغفلة عن آيات الله والاعتبار بها .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)) .

[الأعراف : ١٤٧] .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) فلم يؤمنوا بها .

- وآيات الله كونية وشرعية :

الآية الكونية القدرية . (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة .

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

- الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور : أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها ، أو أن يعتقد أن له شريكاً في خلقه ، أو أن له معيناً في خلقه .

الآيات الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم . (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها .

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها، أو بتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد ، كما قالوا عن القرآن: إنه سحر، وأساطير الأولين .

(**وَلِقَاءِ الآخِرَةِ**) فلم يؤمنوا بالآخرة .

(**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**) أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله.

(**هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وكما تدين تدان.

الفوائد :

١- وجوب الإيمان بآيات الله .

٢-وجوب الإيمان بالآخرة .

٣- أن من لم يؤمن بالآخرة فهو كافر محبط عمله .

٤-أن الإنسان يحاسب يوم القيامة بحسب عمله .

٥- عدل الله تبارك وتعالى . الأربعاء / ٢٤ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)) .

[الأعراف : ١٤٨- ١٥١] .

(**واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ**) يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار، و"الخوار" صوت البقر.

- قوله تعالى (واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ) أي من بعد انطلاقه إلى الجبل (مِنْ حُلِيِّهِمْ) التي استعاروها من قوم فرعون.

وكانت بنو إسرائيل في القبط بمنزلة أهل الجزية في الإسلام ، وكان لهم يوم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فزامن ذلك عيدهم فاستعادوا الحلي للقبط فلما أخرجهم الله من مصر وغرق فرعون بقيت تلك الحلي في أيديهم فاتخذ السامري منها عجلاً وهو ولد البقر (عِجْلاً جَسَداً) مجسّد لا روح فيه.

- عجلاً : العجل ولد البقر .
- قوله تعالى (عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ) أي : اتخذوا عجلاً جسداً إلهاً معبوداً من دون الله .
- **قال الشنقيطي** : وقوله (عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ) مفعول (اتخذ) الثاني محذوف لدلالة المقام عليه، أي: اتخذوا عجلاً جسدًا إلهًا معبودًا من دون الله. فحذف المفعول الثاني لدلالة المقام عليه، وهذا هو التحقيق، والنكتة في حذفه: أنه لا ينبغي أن يُتَلَفَّظَ بأن عجلاً مصطنعًا إلهًا فحذف لهذه النكتة كما قاله بعضهم.
- وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) .

- وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار ؟ أو استمر على كونه من ذهب ، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين :
- قال بعض العلماء : لم تكن تلك الصورة لحماً ولا دماً ، ولكن إذا دخلت فيها الريح صوتت كخوار العجل .

وقال بعضهم : جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسداً من لحم ودم لظاهر الآية (عجلاً جسداً) ورجحه الشنقيطي .

- قال تعالى في سورة طه: إنَّ السامري لما اصطنعه لهم قال لهم (هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) فنسي موسى أن هذا إلهه، وذهب يطلبه في موضع آخر.

(**أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ**) ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السماوات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسدًا له خُوَار لا يكلمهم .

- **قال السعدي** : وعدم الكلام نقص عظيم ، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم .
- والمعبود الحق لا بد أن يكون يُكلم، ومعبود أهل السماوات والأرض بالحق يقول عن كلام نفسه (لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ، وفي الآية الأخرى (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) هذه صفة المعبود حقًّا، أمّا الذي لا يقدر على أن يتكلم كلمة واحدة فهذا ليس بمعبود.

(**وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً**) أي : ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال .

- **قال السعدي** : قوله تعالى (وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا) أي: لا يدلهم طريقاً دينياً ، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية ، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه .
- المعبود هو الذي يهدي، كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ) أما الذي لا يهدي سبيلاً أي: طريقًا كائنًا ما كان فلا يمكن أن يكون برب ولا بمعبود، فلما قرر (جل وعلا) أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهًا تنتفي عنه الصفات التي يجب أن تكون للإله صرح بأنهم عبدوه وهم ظالمون في ذلك فقال (اتَّخَذُوهُ) اتخذوه إلهًا (وَكَانُواْ ظَالِمِينَ) ظالمين في ذلك.
- قال الله تعالى في سورة طه رداً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً) أي العجل ، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، أي في دنياهم ولا في أخراهم .

وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزاً .

كما قال تعالى (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِين) .

وكما قال إبراهيم لأبيه (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً) .

وقال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير)

(**اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ**) أي : مشركين ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها .

- لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر .

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم ...) .

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) قال : بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيم) .

وقال تعالى (وَلَا تَدعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلتَ فَإِنَّكَ إِذا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) .

- الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله تعالى : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

(**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ**) أي: ندموا على ما فعلوا .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (ولما سُقِط في أيديهم) أي : ندموا ، قال الزجاج : يقال للرجل النادم على ما فعل : المتحسر على ما فرّط ، قد سُقط في يده ، وأُسقط في يده.

(**وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا**) يعني وتيقنوا أنهم على الضلالة في عبادتهم العجل .

(**قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا**) أي : يتداركنا برحمته .

(**وَيَغْفِرْ لَنَا**) الغفران : هو محو الذنوب حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها بعد ذلك .

(**لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) أي: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

وقد كانت توبتهم ما ذكره الله في سورة البقرة (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

- قوله تعالى (إِلَى بَارِئِكُمْ) قال ابن كثير : في هذا تنبيه على عظم جرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) أي ليقتل بعضكم بعضاً ، وإنما عبر بقتل النفس ، لأن المؤمن أخو المؤمن فكأنه هو نفسه ، فالأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة .

كقوله تعالى (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي : على من في البيت .
وقوله تعالى (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) أي : لا يلمز بعضكم بعضاً .
وقوله تعالى (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً) أي : ظنوا بإخوانهم خيراً .
وقوله تعالى (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ) أي : إخوانكم .
عن ابن عباس (... فقال الله تبارك وتعالى إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد أو ولدٍ فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ، فتاب أولئك الذين كان قد خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول .

- قيل : فاجتلد القوم فكان من قتل من الفريقين سبعون ألفاً ، حتى دعا موسى وهارون : ربنا أهلكت بني إسرائيل ، ربنا البقية البقية ، فأمرهم أن يضعوا السلاح فتاب عليهم ، وقيل : أصابتهم ظلمة فأصبح بعضهم يقتل بعض ، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، وقيل : بل إن القتل وقع جهراً بلا ظلمة ، وهذا أصح ، لأنه أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم .
- قال الشنقيطي : أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية ، ولكنه يكسبهم حياة أخروية ، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية .

(**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا**) يخبر تعالى أن موسى، عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف.
قال أبو الدرداء "الأسف": أشد الغضب.
(**قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي**) يقول: بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

- وهذا الخطاب إنما يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه ، أو لوجوه بني إسرائيل ، وهم : هارون عليه السلام والمؤمنون معه ، ويدل عليه قوله (اخلفني فِي قَوْمِي) .

وعلى التقدير الأول : يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله .
وعلى هذا التقدير الثاني ، يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى .
(**أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**) للعلماء في هذه الآية أقوالٌ متقاربة ، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن؛ لأن آية طه كالتفسير لآية الأعراف هذه، وعلى ذلك فالمعنى: أن الله أمركم بأمر، ووعدكم وعدًا، وقال لكم على لسان نبيه: إن موسى يذهب إلى الموعد، وأن الله يناجيه وينزل عليه كتابًا وفيه كل خير، وكل هدى ونور، يصلح الله لكم به دنياكم ودينكم وآخرتكم، وهذا وعدٌ عظيمٌ من الله ، ... فلما وعدكم الله هذا الوعد العظيم الذي فيه كل هذا من الخير عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُم بِذَلِكَ الوعد، أي: عجلتم عنه، وسبقتموه، وعبدتم العجل، ولم تنتظروا الخير الذي وعدكم الله به، وجئتم قبله بكل شر وسوء وخبث. والدليل على أنّ هذا هو تفسير الآية الصحيح: أنّ الله قال في سورة طه (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي) .
(**وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ**) قال ابن عطية : قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كان سبب إلقائه الألواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أخيه في إهمال أمرهم .
وقال قتادة إن صح عنه : بل كان ذلك لما رأى فيها من فضيلة أمة مُحَمَّد ﷺ فرغب أن يكون ذلك لأمته فلما علم أنه لغيرها غضب.

قال القاضي أبو مُحَمَّد : وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به والأول هو الصحيح . (المحرر الوجيز) .

- **قال ابن كثير** : ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريبًا، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رَدّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تَلَقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووَضّاعون وأفاكون وزنادقة.

- **وقال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وألقى الألواح) التي فيها التوراة ، وفي سبب إلقائه إياها قولان.

أحدهما : أنه الغضب حين رآهم قد عبدوا العجل ، قاله ابن عباس.

والثاني : أنه لما رأى فضائل غير أُمته من أُمة مُحَمَّد ﷺ اشتد عليه ، فألقاها ، قاله قتادة ، وفيه بُعد.

(**وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ**) خوفًا أن يكون قد قَصَّر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى (قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي . قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) .

- وفي هذا دليل على قوله ﷺ (يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح) .

(**قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي**) يعني: أن القوم الذين عبدوا العجل لما نهاهم كما شهد الله له بذلك في سورة طه في قوله (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) فلما ناصبوه وقالوا له علناً : لن نبرح عاكفين على عبادة هذا العجل حتى يرجع موسى ، دل ذلك على أنهم استضعفوه، أي: تقوّوا عليه واستذلوه، ورأوه ضعيفًا عاجزًا عن مقاومتهم.

- **قال ابن كثير** : وإنما قال (ابْنَ أُمَّ) لتكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.
- **وقال ابن عطية** : وقوله (يا ابن أم) استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات .

(**فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء**) أي : لا تفعل بي فعلاً يفرح به أعدائي .

فالشماتة : هي سرور العدو بما ينال عدوه الآخر من مكروه أو سوء .

- **قال القرطبي** : والشماتة : السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدّين والدنيا ، وهي محرّمة مَنْهِيٌّ عنها.
- **وقال ابن عاشور** : والشماتة : سُرور النفس بما يصيب غيرها من الإضرار ، وإنما تحصل من العداوة والحسد.

قال ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ، ودرك الشقاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء) .

(**ولاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) أي : لا تجعلني مع عَبَدَة العجل كأني ممالئ لهم وموافقهم على ذلك ، فأنا بريء من ذلك، وقد نصحتهم غاية طاقتي وجهدي.

- فلما قال هارون هذا لموسى ، رجع موسى ودعا لنفسه ولأخيه :

(**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ**) (رَبِّ اغْفِرْ لِي) واغفر (وَلأَخِي) هارون (وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ) اجعلنا ممن شملته رحمتك الواسعة .

(**وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) أي: أرحم بنا من كل راحم ، أرحم بنا من آبائنا ، وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا .

- **قال الشوكاني** : طلب المغفرة له أوّلاً ، ولأخيه ثانياً ، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة ، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه ، وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما

يجب عليه من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم ، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فهو (أَرْحَمُ الرحمين) .

- **قال ابن عاشور** : وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدباً مع الله فيما ظهر عليه من الغضب ، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل عن ذلك.

الفوائد :

١- تحريم الشرك بالله تعالى .

٢- أن المعبود يجب أن يكون كاملاً .

٣- أن العاجز لا يصلح أن يكون معبوداً .

٤- إثبات الكلام لله تعالى .

٥- أن الشرك بالله أعظم الظلم .

٦- أن من تاب توبة صادقة تاب الله عليه .

٧- وجوب إنكار المنكر .

٨- سفه هؤلاء الذين عبدوا العجل .

٩-وجوب الغضب عندما تنتهك حرمات الله .

١٠- أن الخبر ليس كالمعاينة .

١١- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب .

١٢- فضل القوة في الحق .

١٣- الاستعاذة من شماتة الأعداء .

١٤-كل أحد يحتاج إلى مغفرة الله حتى الأنبياء .

١٥- أن الإنسان إذا دعا فالأفضل أن يبدأ بنفسه .

١٦- أن الله أرحم الراحمين .

١٧- سؤال الله الرحمة .

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)) .

[الأعراف : ١٥٢- ١٥٣] .

(**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ**) إلهاً عبدوه من دون الله .

(**سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ**) أي : يغضب عليهم ربهم ، ومن غضب الله عليه فقد هلك .

(**وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) الذلة : الصغار والهوان .

- اختلف العلماء في هذه الآية ، حيث من المعلوم أن الذين عبدوا العجل تابوا توبة صادقة ، وقبل الله توبتهم ، فكيف قال هنا : (سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ....) ؟

قيل : وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم ، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم كما تقدّم بيانه في "البقرة" أخبرهم أن من مات منهم قتيلاً فهو شهيد ، ومن بَقِي حيّاً فهو مغفور له.

وقيل : كان ثَمَّ طائفة أشْرِبوا في قلوبهم العجل ، أي حُبّه ، فلم يتوبوا ؛ فهم المعنِيّون بذلك . إ

وقيل : أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات.

وقيل : أراد أولادهم ، وهو ما جرى على قُريظة والنضِير ؛ أي سينال أولادهم. (تفسير القرطبي) .

ورجح الشنقيطي القول الثاني فقال : قال جماعة من العلماء : هذه الآية من سورة الأعراف في طائفة من بني إسرائيل أُشربت قلوبهم حُبّ العجل، ولم يتوبوا فيمن تاب، بل بقوا غير تائبين، وعدهم الله هذا الوعيد، وهددهم هذا التهديد، وهذا هو الأظهر؛ لأن المعروف أن أكثر الإسرائيليين تاب من عبادة العجل تلك التوبة العظيمة التي بيّناها مفصَّلة في سورة البقرة .

(**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**) قال ابن عباس : كذلك أُعاقب من اتخذ إلهاً دوني.

قال مالك بن أنس : ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلَّة ، وقرأ هذه الآية.

وقال سفيان بن عيينة : ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلَّة تغشاه ، قال : وهي في كتاب الله تعالى ، قالوا : وأين هي؟ قال : أو ما سمعتم قوله (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلَّة في الحياة الدنيا) قالوا : يا أبا مُحَمَّد ، هذه لأصحاب العجل خاصة ، قال : كلا ، اتلوا ما بعدها (وكذلك نجزي المفترين) فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة.

(**وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ**) كالذين عبدوا العجل .

(**ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا**) أي: من بعد تلك السيئات ، بأن ندموا على ما مضى ، وأقلعوا عنه ، وعزموا على أن لا يعودوا .

(**وَآمَنُواْ**) داموا على إيمانهم ، أو أخلصوا في إيمانهم .

- شروط التوبة؛ وهي :

أحَدُها : أنْ يُقلِعَ عَنِ المعصِيَةِ .

قال ابن القيم : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

والثَّانِي : أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .

قال ابن القيم : فأما الندم، فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند (الندم توبة) .

والثَّالثُ : أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَداً . فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

يعزم عزماً مؤكداً أن لا يعود إليها مرة أخرى في المستقبل .

- وللتوبة فضائل :

أولاً : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

ثانياً : أنها طاعة ومرادة لله تعالى .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) .

ثالثاً : أن التوبة سبب الفلاح، والفوز بسعادة الدارين:

قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه .

رابعاً : بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) .

خامساً : بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسُنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات .

قال تعالى (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح .

قال ابن عباس . رضي الله عنهما ما رأيت النبي ﷺ فَرِحَ بشيء فَرَحَهُ بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .

سادساً : التوبة سبب للمتاع الحسن، ونزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين .

قال تعالى (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) .

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِين) .

وقال على لسان نوح عليه السلام (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

سابعاً : سبب لفرح الله تعالى .

عن أنسِ بنِ مالكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ (للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ) مُتَّفَقٌ عليه

(**إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا**) أي: تلك السيئات والفعلات، وقال بعضهم (مِن بَعْدِهَا) أي: التوبة المفهومة من قوله (تَابُواْ)

(**لَغَفُورٌ**) أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده.

(**رَّحِيمٌ**) بقبول التوبة ، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها .

وهذه الآية الكريمة تدل على أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ السيئات العظام ثم تاب إلى الله تاب الله عليه.

والله يقول (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

ويقول للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة -يستعطفهم ليتوب عليهم مع شناعة كفرهم حيث يقول لهم (أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

الفوائد :

١- تهديد لكل مشرك بالله .

٢-التحذير من الافتراء والكذب على الله .

٣- أن من تاب من سيئاته وأخلص في توبته فإن الله يقبل توبته .

٤- سعة رحمة الله وفضله . الخميس / ٢٥ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)).

[الأعراف : ١٥٤- ١٥٧] .

(**وَلَمَّا سَكَتَ**) أي: سكن .

(**عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ**) أي: غضبه على قومه .

(**أَخَذَ الأَلْوَاحَ**) أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضبًا له .

(**وَفِي نُسْخَتِهَا**) أي : المنسوخ فيها ، أي : المكتوب فيها من التوراة من كلام رب العالمين .

(**هُدًى**) دلالة وإرشاد إلى كل خير .

(**وَرَحْمَةٌ**) تقي عذاب الله لمن عمل به .

- **قال الشوكاني** : والهدى ما يهتدون به من الأحكام ، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة.

(**لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**) أي : يخافون منه ويخشونه .

وأما من لم يخف الله ، ولا المقام بين يديه ، فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفوراً ، وتقوم عليه حجة الله فيها .

- من فضل الخوف :

أنه سبب في إخلاص العمل لله .

قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) .

وسبب لعلو الهمة في العبادة .

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

قال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب ؟

- **قوله تعالى (لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)** وجرت العادة في القرآن أن الله يخص المنتفعين .

كما في قوله تعالى (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) وقوله (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) الآية، مع أنه منذر للأسود والأحمر، وإنما خص الإنذار بمن يخشى ومن يتبع الذكر لأنه المنتفع به .

(**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا**) قال بعض العلماء : جاءوا للاعتذار من عبادة العجل ، واختاره ابن جرير .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (واختار موسى قومه) معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء ليكون منه ومنهم اعتذار إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلب لكمال العفو عمن بقي منهم .

- وفي قوله (لِّمِيقَاتِنَا) قولان :

أحدهما : أنه الميقات المذكور في سؤال الرؤية.

والثاني : أنه ميقات غير الأول وهو ميقات التوبة من عبادة العجل.

- **قال الرازي** : واحتج القائلون بهذا القول على صحة مذهبهم بأمور : الأول : أنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها بذكر قصة العجل ثم أتبعها بهذه القصة ، وظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه القصة مغايرة للقصة المتقدمة التي لا ينكر أنه يمكن أن يكون هذا عوداً إلى تتمة الكلام في القصة الأولى إلا أن الأليق بالفصاحة إتمام الكلام في القصة الواحدة في موضع واحد ثم الانتقال منها بعد تمامها إلى غيرها .

الثاني : أن الله تعالى ذكر في ميقات الكلام والرؤية أنه خر موسى صعقاً وأنه جعل الجبل دكاً، وأما الميقات المذكور في هذه الآية، فإن الله تعالى ذكر أن القوم أخذتهم الرجفة ، ولم يذكر أن موسى عليه السلام أخذته الرجفة ، وكيف يقال أخذته الرجفة ، وهو الذي قال لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ؟ واختصاص كل واحد من هذين الميقاتين بهذه الأحكام يفيد ظن أن أحدهما غير الآخر.

(**فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**) **قيل** : لأنهم عبدوا العجل ، **وقيل** : بسبب قولهم (أرنا الله جهرة) ، **وقيل** : أنهم لم ينهوْا من عبد العجل .

وقيل : أنهم لما خرجوا إلى الميقات ليتوبوا دعوا ربهم وقالوا أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ، ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك الكلام فأخذتهم الرجفة.

- **قال ابن عطية** : اختلف العلماء في سبب (الرجفة) التي حلت بهم .

فقيل : كانت عقوبة لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل .

وقيل : كانت على عبادتهم العجل بأنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله ، قاله السدي .

وقيل : كانت عقوبة لهم لأنهم لما دنوا وعلموا أن موسى يسمع كلام الله قالوا له : أرنا ربك فأخذتهم الرجفة .

وقيل : كانت عقوبة لتشططهم في الدعاء بأن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدناً ، فأخذتهم الرجفة

(**قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ**) أي : قال موسى على وجه التضرع والاستسلام لأمر الله: لو شئت يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلتَ فإنَّ عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء .

(**أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا**) أي: أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم (أَرِنَا الله جَهْرَةً)؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول: لا تعذبنا يا ألله بذنوب غيرنا قال الطبري في رواية السدي: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم لو شئت أهلكتَهم من قبل وإياي؛ أقول: إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم؟ نعوذ بالله من خبث اليهود .

(**إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ**) أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل

من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِل لمن هَدَيت، ولا مُعطِي لما مَنَعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

(**تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء**) حسب حكمتك ، تضل من تشاء بعدلك ، وتهدي من تشاء بفضلك .

(**أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**) الغَفْر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل (وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت .

(**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ**) أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة .

المراد بالحسنة في الدنيا ، تشمل كل خير الدنيا من التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح ، ومن المتاع الحسن في هذه الحياة ، من صحة في البدن ، وفسحة في السكن ، وسعة في الرزق .

والحسنة في الآخرة الجنة وما فيها من ألوان وأنواع النعيم ، وأعلاها النظر إلى وجه الله الكريم .

- وهذا الدعاء من أعظم الأدعية وأجمعها وأكملها .

عن أنس . قال (كان أكثر دعاء النبي ﷺ (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار) .

- **قال ابن كثير** : جمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا ، وصرَفت كلّ شر فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي ، من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هنيء ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين ، ولا منافاة بينها ، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا ، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام .

(**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**) أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك.

(**قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء**) من عبادي لمن يستحق ذلك .

(**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**) كقوله إخبارًا عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا) .

وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) .

قال ﷺ (إن لله مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة) رواه مسلم ،

- ورحمة الله تعالى لعباده نوعان :

الأولى : رحمة عامة .

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم ، وتربيتهم ، ورزقهم ، وإمدادهم بالنعم والعطايا ، وتصحيح أبدانهم ، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ، ومساكنهم ، ولباسهم ، وحركاتهم ، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى .

الثانية : رحمة خاصة .

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ، ويثبتهم عليه ، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيها ، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويكفرها بالمصائب ، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخول الجنة ، كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) .

(**فَسَأَكْتُبُهَا**) أي : أقدرها وأقضيها .

(**لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**) الذين يتقون، أي: الشرك والعظائم من الذنوب.

(**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**) قيل: زكاة النفوس. وقيل: زكاة الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) فيها قولان :

أحدهما : أنها زكاة أموالهم لأنها من أشق فرائضهم ، وهذا قول الجمهور.

والثاني : معناه أي يطيعون الله ورسوله ، قاله ابن عباس والحسن ، وذهبا إلى أنه العمل بما يزكي النفس ويطهرها من صالحات الأعمال.

(**وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**) يصدقون بها ، سواء الآيات الشرعية أو الآيات الكونية .

(**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**) قال بعضهم : المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة ، إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق ، وقال في قوله : (والإنجيل) أن المراد سيجدونه مكتوباً في الإنجيل ، لأن من المحال أن يجدوه فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل .

وقال بعضهم : بل المراد من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوا الرسول النبي الأمي.

والقول الثاني أقرب ، لأن اتباعه قبل أن بعث ووجد لا يمكن.

فكأنه تعالى بين بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل في زمن موسى ، ومن هذه صفته في أيام الرسول إذا كان مع ذلك متبعاً للنبي الأمي في شرائعه.

(**الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**)وهدا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل .

- قوله تعالى (الرَّسُولَ النَّبِيَّ) قد اختلف العلماء في التفريق بين النبي والرسول على أقوال :

الذي عليه جمهور العلماء أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، أما الرسول فهو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه .

وهذا الوجه في التفريق عليه إشكالات :

قال الشنقيطي في أضواء البيان : ما اشتهر على ألسنة أهل العلم ، من أن النَّبي هو من أوحى إليه وحي ، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النَّبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ) يدل على أن كلاً منهما مرسل ، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير . (أضواء البيان) .

ومقصود كلامه – رحمه الله – أن الإرسال للنبي والرسول يقتضي التبليغ وعدم الكتمان .

وقد استبعد الأشقر في رسالته الرسل والرسالات (ص/١٤-١٥) هذا الوجه من المغايرة من عدة وجوه :

الأول : أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيّ ...)

فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ ، فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ .

الثاني : أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى ، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ، ثم يموت هذا العلم بموته .

الثالث : قول الرسولﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ...) متفق عليه .

فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم .

وقيل : الرسول : من جاء بشريعة مستقلة، والنبي : من جاء تابعاً لشريعة من سبقه ، وهذا اختيار ابن تيمية في كتابه النبوات .

قال ابن تيمية : فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالاً يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فان هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح ، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس ـ عليهما السلام . وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً .

وقال الأشقر في رسالته الرسل والرسالات : والتعريف المختار : أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله .

وقد ردّ شيخ الإسلام هذا القول حيث قال في النبوات : وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإن يوسف كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة قال تعالى عن مؤمن آل فرعون (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً) وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً) .

(**يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ**) هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر .

- وفي هذا فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

أولاً : مهمة الرسل .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ...) .

ثانياً : من صفات المؤمنين .

قال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) .

وقال تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ـ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

قال الغزالي : فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية .

ثالثاً : أن خيرية الأمة مناطة بهذه الشعيرة .

قال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

رابعاً : من أوصاف سيد المرسلين .

قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) .

خامساً : من خصال الصالحين .

قال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

سادساً : من أسباب النصر والتمكين .

قال تعالى (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

سابعاً : من أسباب النجاة .

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) .

ولقوله ﷺ (فمن أنكر فقد سلم).

(**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ**) من المطاعم والمشارب والمناكح .

(**وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ**) من المطاعم ، والمشارب ، والمناكح ، والأقوال ، والأفعال .

(**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**) أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة .

- والآصار جمع إصر (فِعْل) مجموع على (أَفْعَال) والإصر في اللغة العربية التي نزل بها القرآن: الثقل الذي كان من التكليف على من قبلهم؛ لأنَّ مَنْ قَبْلَنَا كانت عليهم من التكليف آصارٌ وأغلال. الآصار: الأثقال التي تثقل صاحبها ، منها ما قدمنا أن توبة الذين عبدوا العجل لم يقبلها الله إلا بتقديمهم أنفسهم للموت، فهذا ثقلٌ عظيم ؛ لأنه لا حادث في الدنيا أعظم من الموت.

والموتُ أعظَمُ حادثٍ ... فيما يمرُّ على الجبِلَّهْ .

فرفع هذا الثقل عن هذه الأمة صلى الله على نبيّها، فصار مَنِ ارْتَكَبَ أعظم كفر وأشنع ذنب يكفيه أن يتوب إلى الله، وأن يُقلع عن الذنب، ويندم على ارتكابه، وينوي ألا يعود، فيتوب عليه ربه بذلك، فهذا من رفع الآصار.

وَالأَغْلاَل : جمع غُل، والغُلّ هو القيد المعروف؛ لأن التكاليف القوية الشديدة كأنها أغلال يُغَلُّون بها، مثل : أن الواحد منهم كان لا يصلي إلا بالماء، ولا يصلي إلا في الكنيسة، وإذا مست النجاسة شيئًا من ثوبه لزم أن يقرضه بمقراض، إلى غير ذلك من التشديدات ، بخلاف هذه الأمة فقد رُفع عنها ذلك، فجُعلت لها الأرض كلها مسجدًا وطهورًا، وأُجيز لها إزالة النجاسة بالماء، وسهل لها كل شيء كان مُصَعَّبًا على من قبلها .

- وقد جاء في الحديث (بعثت بالحنيفية السمحة) .

وقال لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن (بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا) .

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.

(**فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ**) أي : صدقوا به ﷺ ، وبما جاء به .

(**وَعَزَّرُوهُ**) أي: مدحوه وأثنوا عليه ثناءً عظيمًا.

قال بعض العلماء: (وَعَزَّرُوهُ) أي: منعوه من أن يناله أحدٌ بسوء، حتى لا يقوى أحدٌ على أن يصل إليه، ولا يؤذيه بأذيَّةٍ ما.

(**وَنَصَرُوهُ**) النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، أي: أعانوه على أعدائه الذين ظلموه وكذبوه، وكل من كذبه فهو ظالمٌ له .

(**وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ**) أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) .

قال ابن عاشور : وأمّا النور المبين فهو القرآن لقوله (وأنزلنا) .

- **قال الرازي** : والنور المبين هو القرآن ، وسماه نوراً لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب.
- **وقال القرطبي** : النور المنزل هو القرآن ؛ عن الحسن ؛ وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة ، فهو نور مبين ، أي واضح بَيّن.
- **وقال الخازن** : وإنما سماه نوراً لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نوراً لهذا المعنى.
- **وقال الشنقيطي** : الْمُرَادُ بِهَذَا النُّورِ الْمُبِينِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ؛ لِأَنَّهُ يُزِيلُ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ كَمَا يُزِيلُ النُّورُ الْحِسِّيُّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ .
- **وقال ابن الجوزي** : وإنما سماه نوراً ، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

وقال تعالى (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

- **قال ابن كثير** : وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى ، كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب .
- **وقال الشوكاني** : قوله تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً) هو القرآن ، وسماه نوراً لأنه يهتدي به من ظلمة الضلال .

(**أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) أي: في الدنيا والآخرة.

- والفلاح في لغة العرب يطلق إطلاقين مشهورين ، وكل منهما يدخل في الآية :

الإطلاق الأول : أن العرب تقول (أفلح فلان) إذا فاز بمطلوبه الأكبر ، فكل إنسان كان يحاول مطلوباً أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح .

الإطلاق الثاني : أن المراد بالفلاح : الدوام والبقاء السرمدي في النعيم ، فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب (نال الفلاح) .

الفوائد :

١- أن كتب الله المنزلة كلها هدى ورحمة .

٢- أن من أراد الهداية والرحمة فليعتصم بكتاب الله .

٣- فضل الخوف من الله .

٤- حرص موسى على هداية بني إسرائيل .

٥- يجب التأدب مع الله .

٦- أن الهداية بيد الله .

٧- سؤال الله الحسنة في الدنيا والآخرة .

٨- سعة رحمة الله .

٩- فعل الأسباب التي تؤدي إلى رحمة الله والحرص عليها ، ومنها التقوى ، وإيتاء الزكاة ، ومتابعة الرسول .

١٠- يجب على أحد أن يؤمن بمحمد ﷺ ، وقد قال ﷺ (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ..

١١- من صفات الرسول ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١٢- أن ديننا الإسلام دين اليسر والسهولة .

١٣- أن هذا القرآن نور .

١٤- أنه منزل غير مخلوق . الجمعة/٢٦/رمضان/١٤٣٧هـ

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)) .

[الأعراف : ١٥٨] .

(**قُلْ**) يقول تعالى لنبيه ورسوله مُحَمَّد ﷺ (**قُلْ**) يا مُحَمَّد .

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي .

(**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**) أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) .

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ.

وَقَال تعالى (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) .

وَقَالَ تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

وَقَالَ ﷺ (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، ...، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّة) متفق عليه .

وقال ﷺ (وأرسلت إلى الخلق كافة) رواه مسلم . وفي رواية (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) .

قيل : المراد بالأحمر العجم ، والأسود العرب ، **وقيل** : الأحمر الإنس ، والأسود الجن

وَقَالَ ﷺ (لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّار) رواه مسلم .

وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

أولاً : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت ، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

ثانياً : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

ثالثاً : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم .

(**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**) لا إله بحق إلا الله .

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلا أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة .

- في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة ، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى .

- **قال ابن كثير** : إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق .
- **وقال السعدي** : فأخبر أنه الله ، الذي له جميع معاني الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو ، وعبودية غيره باطلة .
- **قال ابن رجب** : قَوْل : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً . وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللَّهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ . قَالَ تَعَالَى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) .
- **فضائل كلمة التوحيد** :

أولاً : هِيَ كَلِمَةُ اَلْإِخْلَاصِ ، وَشَهَادَةُ اَلْحَقِّ وَدَعْوَةُ اَلْحَقِّ ، وَبَرَاءَةٌ مِنْ اَلشِّرْكِ ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَ اَلْخَلْقُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) .

ثانياً : وَلِأَجْلِهَا أُرْسِلَتْ اَلرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ اَلْكُتُبُ

قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون) .

وقال تعالى (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) .

ثالثاً : هي ثَمَنُ اَلْجَنَّةِ .

قال ﷺ (مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ دَخَلَ اَلْجَنَّة) رواه أبو داود .

رابعاً : وهي نَجَاةٌ مِنْ اَلنَّارِ .

وَسَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ مُؤَذِّنًا يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، فَقَالَ خَرَجَ مِنْ اَلنَّارِ . خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ

خامساً : وهي أَحْسَنُ اَلْحَسَنَاتِ :

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ! عَلِّمْنِي عَمَلاً يُقَرِّبُنِي مِنَ اَلْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ اَلنَّارِ، قَالَ : إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ مِنَ اَلْحَسَنَاتِ ؟ قَالَ هِيَ أَحْسَنُ اَلْحَسَنَات) .

سادساً : وَهِيَ : تُجَدِّدُ مَا دُرِسَ مِنَ اَلْإِيمَانِ فِي اَلْقَلْبِ .

كما فِي اَلْمُسْنَدِ أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

سابعاً : وَهِيَ اَلَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ فِي اَلْوَزْنِ ، فَلَوْ وُزِنَتْ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا فِي اَلْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ : آمُرُكَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اَللَّهُ ، فَإِنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ مُبْهَمَةٍ قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو . عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ : يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّ ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا . قَالَ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ . فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ . قَالَ : يَا مُوسَى ! لَوْ أَنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فِي كِفَّةٍ ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

ثامناً : وَهِيَ أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ .

كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ اَلْمَرْفُوع (أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) رواه الترمذي .

تاسعاً : ومن أعظم فضائلها :

ما جاء فِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ اَلنَّبِي ﷺ مَنْ قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ اَلْمُلْكُ وَلَهُ اَلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ اَلشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك) .

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي أَيُّوبَ ، عَنْ اَلنَّبِي ﷺ قال (مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل) .

عاشراً : وَمِنْ فَضَائِلِهَا أَنَّهَا تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ اَلْجَنَّةِ اَلثَّمَانِيَةِ .يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ .

كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَر . قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُسْبِغُ اَلْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ اَلْجَنَّةِ") أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ

وَفِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَال (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اَللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ اَلْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ اَلنَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ اَللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ مِنَ اَلْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا .

(**يُحْيِي وَيُمِيتُ**) أي : بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ، ولا يُزاد في عمُر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره .

قال الطبري : يعني جل ثناؤه بقوله : (والله يحيي ويميت) والله المعجّل الموتَ لمن يشاء من حيث يشاء ، والمميت من يشاء كلما شاء ، دون غيره من سائر خلقه.

وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم ، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلامٌ منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهيٌ منه لهم ، إذ كان كذلك ، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين. أ هـ

(**فَآمِنُواْ بِاللَّهِ**) **الإيمان بالله يتضمن** : الإيمان بوجوده وبربوبيته وبألوهيته وبأسمائه وصفاته .

(**وَرَسُولِهِ**) الإيمان بالرسول يتضمن اتباعه فيما أمر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وتصديقه فيما أخبر .

(**النَّبِيِّ الأُمِّيِّ**) لأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ لأن نبينا ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) وكونه لا يقرأ ولا يكتب مع هذه العلوم التي لا يُطَّلع عليها إلا بالوحي يدل على أن هذا إنما عَلِمَه بوحي من الله (جل وعلا).

(**الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ**) هذه صفاته ﷺ ، وقد أجرى الله العادة أنه يصف المرسلين والملائكة بما يصف به مطلق عوام المؤمنين؛ لأن قوله: (الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) كل عامي من المسلمين يؤمن بالله، وقد وصف نبيه ﷺ بصفة يتصف بها جميع المسلمين، وذلك للإيذان بشرف الإيمان بالله وكلماته وعِظَمِه كما قال جل وعلا (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ) وصفهم بالإيمان ووصف المسلمين بالإيمان (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) وبين أن ذلك الإيمان الذي اتصف به حملة العرش وأهل الأرض من بني آدم صار الرابطة العظمى بينهم التي عطفت قلوبهم عليهم من فوق سبع سماوات .

(**وَكَلِمَاتِهِ**) قال بعض العلماء: معنى كلماته: كتبه التي أنزلها على خلقه، كما قال (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ) والتحقيق: أن كلمات الله أعم من كتبه، وأنها لا يحصيها إلا هو (جل وعلا) كما نوَّه عنها في أُخريات الكهف وأُخريات لقمان في قوله تعالى (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) وقال (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) وكلمات الله لا يعلمها إلا الله (جل وعلا)، ولو كانت البحور مدادًا لكلماته لنفدت البحور وتلاشت قبل أن تنفذ كلماته (**وَاتَّبِعُوهُ**) أمر باتباع النبي ﷺ ، ومعنى اتباعه : الاقتداء به فيما جاء به من عقائد وأفعال وأقوال .

(**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) أي : لأجل أن تهتدوا .

- فيه وجوب متابعة الرسول ﷺ ، ومتابعة الرسول ﷺ سبب لمحبة الله .

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) .

- ثمرات متابعة الرسول ﷺ :

الثمرة الأولى : (**يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**) هذه الثمرة الأولى ، وما أعظمها من ثمرة .

- **قال الشنقيطي** :قوله تعالى (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله) الآية.

صرح تعالى : في هذه الآية الكريمة أن اتباع نبيه موجب لمحبته جل وعلا ذلك المتبع .

وذلك يدل على أن طاعة رسول الله ﷺ هي عين طاعته تعالى ، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى (مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله) وقال تعالى (وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا) .

قال ابن القيم : فجعل سبحانه متابعة رسوله سببا لمحبتهم له وكون العبد محبوبا لله أعلى من كونه محبا لله فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله فالطاعة للمحبوب عنوان محبته

● **وقال السعدي** : هذه الآية فيها وجوب محبة الله ، وعلاماتها ، ونتيجتها ، وثمراتها ، فقال (قل إن كنتم تحبون الله) أي : ادعيتم هذه المرتبة العالية ، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى ، بل لا بد من الصدق فيها ، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله ، في أقواله وأفعاله ، في أصول الدين وفروعه ، في الظاهر والباطن ، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى ، وأحبه الله وغفر له ذنبه ، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته ، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى ، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله ، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها ، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها ، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق ، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله ، وما نقص من ذلك نقص .

الثمرة الثانية : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) هذه الثمرة الثانية .

● سبب للهداية .

قال تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا) .

الفوائد:

١- إثبات رسالة مُحَمَّد ﷺ .

٢- أن رسالته ﷺ عامة لجميع الناس .

٣- من خصائص النبي ﷺ أن دعوته عامة لجميع الناس .

٤- عموم ملك الله لكل شيء .

٥-الذي بيده الحياة والموت هو الله .

٦- وجوب الإيمان بالله .

٧- وجوب الإيمان بالرسول .

٨- وجوب متابعة الرسول ﷺ .

(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)) .

[الأعراف : ١٥٩] .

(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ) أي : جماعة .

فائدة : أطلقت الأمة في القرآن على عدة معان اذكرها ؟

أ-بمعنى الطائفة .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ...) .

وكما في هذا الحديث .

ب-بمعنى الإمام .

كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً) .

ج-بمعنى الملة .

كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ...) .

د-بمعنى الزمن .

كما قال تعالى (وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ ...) .

(**يَهْدُونَ بِالْحَقِّ**) يعني يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه .

(**وَبِهِ يَعْدِلُونَ**) يعني وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون ويتصفون.

- **قال الخازن** : المختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك ، وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده .
- **قال أبو حيان** : وفي قوله : (ومن قوم موسى) إشارة إلى التقليل وأنّ معظمهم لا يهدي بالحق ولا يعدل به وهم إلى الآن، كذلك دخل في الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وأما اليهود فقليل من آمن منهم.
- **قال الشنقيطي** : هذه الآية الكريمة دلت على أنَّ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أمة طيبة، على الحق، وهذا المعنى جاء مُصرَّحًا بِهِ في آيات كثيرة .

كقوله تعالى (لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وكقوله جل وعلا (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

وكقوله تعالى (قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ...) .

وقد بيّن القرآن أن هذه الطائفة من أهل الكتاب –التي كانت متمسكة بشريعة موسى وبما في التوراة إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا مُحَمَّد ﷺ أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه، نص الله على هذا في سورة القصص في قوله (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) .

الفوائد :

١- أن العبرة عند الله بالإيمان والصلاح .

٢- عدل الله ، فمن آمن – من أي أمة – فهو الذي المفلح ، ولو كانوا قلة .

٣- لا تزال طائفة على الحق في كل أمة ولو أكثرها أهل عناد وعتو .

٤- أن أهل الحق والإيمان قليل بالنسبة لأهل الكفر والفساد . السبت / ٢٧ / رمضان / ١٤٣٧هـ

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)) .

[الأعراف : ١٦٠] .

(**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا**) أي : وفرقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتى ، اثنتي عشرة قبيلة ، من اثنى عشر ولداً

من أولاد يعقوب .

- **قال أبو حيان** : أي فرقناهم وميزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي – قبيلة – إلى رئيسه ، ليخف أمرهم على موسى ، ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج ، ولهذا فجر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ، ويقتتلوا على الماء ، وجعل لكل سبط نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه .
- **قال الرازي** : و المراد أنه تعالى فرق بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة ، لأنهم كانوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب ، فميزهم وفعل بهم ذلك لئلا يتحاسدوا فيقع فيهم الهرج والمرج ، وقوله : (**وقطعناهم**) أي صيرناهم (**قطعاً**) أي فرقاً وميزنا بعضهم من بعض .
- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً) عدّد نعمه على بني إسرائيل ، وجعلهم أسباطاً ليكون أمر كل سبط معروفاً من جهة رئيسهم ؛ فيخف الأمر على موسى ، وفي التنزيل (وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً) .
- يذكرهم الله بعض نعمه عليهم في التيه .
- **سبب هذا التيه** : أن الله لما أنجا موسى وقومه من فرعون، وفلق لهم البحر، وأمرهم بقتال الجبارين، أصابهم الجبن الذي قدمنا شرحه في سورة المائدة، وقالوا لنبيهم موسى (لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) فأصابهم الجبن والخوف، فقال موسى (رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ) يصبحون حيث أمسوا، فإذا مشوا النهار كله أصبحوا من حيث كانوا أمس!! الله ضرب عليهم هذا التيه. وأصحاب الأخبار والتاريخ يطبقون على أن موسى وهارون (عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام) توفيا في التيه ، ثم صار الخليفة بعد موسى يوشع بن نون .

(**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**) وفي سورة البقرة (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ) أي واذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه .

- **قال الرازي** : جمهور المفسرين أجمعوا على أن هذا الاستسقاء كان في التيه ، لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر .
- **قال ابن عاشور** : تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي :

أ–الري من العطش ، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل بري الظمآن في حصول المطلوب.

ب–وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلاً لهم .

ج–وكون العيون اثنتي عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا .

(**أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**) أي :اضرب أي حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه .

- قوله تعالى (**بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**) قيل (أل) للعهد ، أي اضرب عصاً معهوداً معيناً معروفاً عندهم ، لكن الصحيح أنه حجر غير معين ، والمراد أن يضرب أي حجر من غير تحديد .
- قال في التسهيل : قيل هو جنس غير معين ، وذلك أبلغ في الإعجاز .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين** : و (الحجر) المراد به الجنس ، فيشمل أيّ حجر يكون ، وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين
- **وقال ابن الجوزي** : واختلفوا في صفة الحجر على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كان حجراً مربعاً، **والثاني** : كان مثل رأس الثور، **والثالث** : مثل رأس الشاة.

- **قال الرازي – رحمه الله** – بعد ذكر بعض هذه الأقوال في صفة الحجر : واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب، لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع، ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفي فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها.
- **وقال الآلوسي** : بعد أن ذكر أكثر هذه الروايات في صفة الحجر : وظاهر أكثرها التعارض، ولا ينبئ على تعيين هذا الحجر أمر ديني والأسلم تفويض علمه إلى الله .
- قوله تعالى (**بعصاك**) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

وهذه العصا كان فيها أربع آيات :

أولاً : أنه يلقيها فتكون حية تسعى ، ثم يأخذها فتعود عصا .

ثانياً : أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيوناً .

ثالثاً : أنه ضرب بها البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

رابعاً : أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون .

(**فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**) وفي سورة البقرة (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم .

- في سورة الأعراف كما هنا (فانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) وفي سورة البقرة (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً) قال ابن كثير قوله (فانْبَجَسَتْ مِنْهُ) هذا أول الانفجار ، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً وهو الانفجار .

وقال بعض العلماء : بل هما بمعنى واحد ، فكل من الإنبجاس والانفجار انشقاق واسع ينحدر منه الماء بقوة ورجحه الشنقيطي .

- هذه معجزة وآية عظيمة لموسى ، قال بعض العلماء : إنه ما من معجزة أوتيها نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي نبينا ﷺ من جنسها .

فنبينا ﷺ أوتي معجزة تفجر الماء من بين أصابعه ، وهذه المعجزة لا شك أقوى من معجزة موسى عليه السلام ، وذلك لأن الحجارة أصلاً ما يتفجر منه الأنهار ، لكن ليس من الأصابع ما يتفجر من بينها الماء .

ومن ذلك : سليمان عليه السلام ، سخّرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ونبينا ﷺ سخّر له البراق فانطلق به من مكة إلى بيت المقدس ، وكذلك عُرج برسول الله ﷺ إلى السموات ، ولم يحدث هذا لسليمان عليه السلام .

(**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**) أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا .

- وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل ، وهي من نعمة الله على موسى ، أما كونها نعمة على موسى فلأنها آية دالة على رسالته ، وأما كونها نعمة على بني إسرائيل فلأنه مزيلة لعطشهم ولظمئهم .

(**وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ**) جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يغُم السماء ، أي : يواريها ويسترها ، وهو السحاب الأبيض ، ظللوا به في التِّيهِ ليقيَهم حر الشمس .

- وكان ذلك لما كانوا في التيه ، واشتكوا الحر ، دعا نبي الله موسى لهم ، فظلل الله عليهم الغمام ، وهو غمام أبيض رقيق يُظلهم من الشمس .
- **قال الشيخ السبت** (الغمام) إن ما ورد من تحديده أنه سحاب أبيض فهو مما أخِذ من بني إسرائيل، وإلا فإن كل ما سترك فإنه يقال له غَمام ، وجاء في الحديث (كأنهما غمامتان) .
- **قال الشوكاني** : وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر ، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين.

- **قال الرازي** : قال المفسرون (وَظَلَّلْنَا) وجعلنا الغمام تظلكم ، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس .
- **قال ابن الجوزي** : (الغمام) السحاب ، سمي غماماً ، لأنه يغم السماء ، أي : يسترها ، وكل شيء غطيته فقد غممته ، وهذا كان في التيه .
- وصيغة الجمع في قوله (**وَظَلَّلْنَا**) للتعظيم .

(**وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ**) اختلفت عبارات المفسرين فيه ، **فقيل** : صمغة حلوة ، وهذا قول مجاهد . **وقيل** : أنه كان ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاء، كأنه العسل ، قاله الشيخ ابن عثيمين.

وقيل : هو العسل ، وهذا قول الشعبي .

- **قال الماوردي** : قوله عز وجل (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ....) فيه سبعة أقاويل :

أحدها : أن المنَّ ما سقط على الشجر فيأكله الناس ، وهو قول ابن عباس.

والثاني : أن المنَّ صمغة ، وهو قول مجاهد.

والثالث : أن المنَّ شرابٌ ، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجِهِ بالماء ، وهو قول الربيع بن أنس .

والرابع : أن المنَّ عسل ، كان ينزل عليهم ، وهو قول ابن زيدٍ.

والخامس : أن المن الخبز الرقاق ، وهو قول وهب .

والسادس : أنه الزنجبيل ، وهو قول السدي .

والسابع : أنه الترنجبين.

- **قال ابن كثير** : والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كد ، وفي الحديث قال ﷺ (الكمأة من المن) أي : من جنس ما منّ الله به على بني إسرائيل ، حيث إنه يوجد – فضلاً من الله – من غير تعب .

(**وَالسَّلْوَى**) عامة المفسرين على أن السلوى طائر حلو اللحم ، وهو السُّمَانَى .

- **قال ابن عطية** : السلوى طائر بإجماع المفسرين .

(**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**) أي : من هذا المن والسلوى ، وقال تعالى في سورة البقرة (وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ)أي من هذا الماء من غير كدٍ منكم ولا تعب ، بل هو رزق ونعمة من الله .

وفي سورة البقرة (وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد .

- **قال ابن عاشور** : وقوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

(**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) في الكلام محذوف تقديره : فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ، ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرضوها بالكفر لعذاب الله .

الفوائد :

١- افتقار الخلق إلى الله ولو كان أعلى أصناف الخلق وهم الرسل .

٢- مشروعية الاستسقاء وطلب المطر من الله .

٣- بيان ما حصل من عصا موسى من الآيات حيث ضرب بها الحجر فانفجر عيوناً .

٤- إثبات وجود الله عز وجل .

٥- أن الله يجيب دعاء من سأله .

٦- أن رزق الله واسع وكثير لكل الخلق .

٧- أن كل ما في الأرض من خيرات فهو من رزق الله .

٨- تحريم طلب الرزق من غير الله ، لأن الرزق رزق الله وهو الذي يرزق ويمنع .

٩- ينبغي قسم الماء عند الكثرة وتوزيعه بالتساوي حتى لا يحصل الازدحام والاقتتال .

(وإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَـوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْـزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ (١٦٢)) .

[الأعراف : ١٦١ – ١٦٢] .

(**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ**) أي : واذكروا يا بني إسرائيل إذا قلنا ادخلوا هذه القرية .

والقرية : المدينة ، وسميت بذلك لأنها تقرت أي : اجتمعت ، واختلف في تعيين هذه القرية :

فقال الجمهور : هي بيت المقدس ، قال ابن كثير مرجحاً هذا القول : ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقتادة وغير واحد ، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا) .

وقال آخرون : هي أريحاء ، قال ابن كثير : وهذا بعيد ، لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء .

- **قال القرطبي** : واختلف في تعيينها ؛ فقال الجمهور : هي بيت المقدس ، وهذه نعمة أخرى ، وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التِّيه.

- وكان هذا بعد خروجهم من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام ، وفتحها الله عليهم ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب سجداً .

- **قال الشنقيطي** : ولما زال عنهم التيه ، ومات موسى وهارون ، وكان الخليفة بعدهما يوشع بن نون ، وجاءوا وجاهدوهم الجهاد المعروف الذي ردّ الله فيه الشمس ليوشع بن نون ، وفتحوا البلد ، أمرهم الله أن يشكروا هذه النعمة بقولٍ يقولونه ، وفعلٍ يفعلونه ، فبدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره ، وبدلوا أيضاً الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره .

(**وَكُلُوا مِنْهَا**) أمر إباحة .

(**حَيْثُ شِئْتُمْ**) أي : في أي مكان كنتم في البلد .

وفي سورة البقرة (فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً) أي : أكلاً رغداً؛ أي : واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب .

- ثم أمرهم الله بقول وفعل شكراً لنعمة الفتح وهو قوله :

(**وَقُولُوا حِطَّةٌ**) هذا القول الذي أُمروا به ، أي : مسألتنا حطة ، والحطة فعلة من الحط الذي هو الوضع ، والمعنى : مسألتنا لربنا هي حطة لذنوبنا وأوزارنا ، فهي كلمة استغفار تؤذن بحط الذنوب ووضع الأوزار .

(**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً**) أي : أن يدخلوا باب القرية سجداً شكراً لله على النعمة .

قيل : المراد بالسجود هنا الركوع تواضعاً وانحناء وتعظيماً لله .

وقيل : هو السجود على الجبهة .

وقيل : المراد مطلق التواضع لكنه قول ضعيف .

- والحكمة من أمرهم بذلك :

لعله ابتلاء من الله تعالى لهم ، وقيل : شكراً لله على هذه النعمة ، فلما أنعم الله بدخول الأرض المقدسة بعد التيه الذي ضربه الله عليهم أربعين سنة ، لزمهم شكر هذه النعمة بأن يدخلوا الباب (باب القرية) سجداً .

وسجود الشكر مشروع في شريعتنا ، وقد سجده النبي ﷺ وسجد أصحابه ، وعند الفتح أيضاً صلى النبي ﷺ ثمان ركعات .

(**نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ**) المغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، والخطيئة: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه التنكيل، والمعنى: نتجاوز ونستر لكم ذنوبكم العظيمة .

(**سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**) حث عظيم على الإحسان ، الإحسان مع الخالق ، والإحسان مع المخلوق .

- وقد تقدمت مباحث الإحسان ، وأنه يشمل إحسان مع الخالق ، وإحسان مع المخلوق .
- **قال الشنقيطي** : فسر ذلك النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان ؟ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون .

والمعنى : سنزيد في جزاء أعمال المحسنين ، لأن العمل الذي يراقب صاحبه الله قد يكون ثوابه أكثر ممن هو أقل منه مراقبة .

(**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**) بقول غيره ، فالقول الذي قيل لهم هو (حطة) فبدلوه بقول غيره وقالوا (حبة في شعير) .

وبدلوا الفعل بفعل غيره ، فالفعل الذي أمروا به أن يدخلوا سجداً ، فبدلوه فدخلوا يزحفون على أستاههم أي : على ألياتهم وعجائزهم ، وهذا من كفرهم وعنادهم .

جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة . قال : قال النبي ﷺ (قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقال : حبة في شعير) .

- قوله تعالى (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم وعصوا أمر ربهم ، وأصل الظلم – كما سبق – وضع الشيء في غير موضعه ، فهؤلاء وضعوا الأمر في غير موضعه ، حيث قابلوا نعم الله بالعصيان ، وعصوا الله .

(**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْـزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ**) أي: أنزل الله عليهم رجزاً من السماء، والرجز العذاب، قال العلماء: وهذا العذاب طاعون أنزله الله عليهم ، قال بعض العلماء : أهلك الله به منهم سبعين ألفاً .

ويؤيد هذا قوله ﷺ (الطاعون رجس أُرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه) .

(**بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ**) (الباء) سببية ، أي : بسبب ظلمهم وفسقهم .

- فالمعاصي سبب لنزول المصائب وزوال النعم .

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

وقال تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

الفوائد :

١- إثبات القول لله .

٢- مشروعية السجود لله عند تجدد النعم واندفاع النقم .

٣- أن النعم تستوجب الخضوع والذل لله ، ولذلك لما دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً دخل وهو متواضع خاضع لله .

٤- عناد بني إسرائيل حيث بدلوا وغيروا .

٥- فضل الإحسان وأنه سبب للمزيد .

٦- مراقبة الله .

٧- أن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن أحسن الله إليه .

٨- أن الظلم سبب للعقوبة .

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)) .

[الأعراف : ١٦٣- ١٦٦] .

(**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ**) أي واسأل يا مُحَمَّد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية .

- **قال ابن الجوزي** : وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرِّرهم على قديم كفرهم ، ومخالفة أسلافهم الأنبياء ، ويخبرهم بما لا يُعلم إلا بوحي.
- **قال القرطبي** : وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبّة عليهم.

(**الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**) مبنية على شاطئه بحضرته قريباً منه .

- اختلف العلماء في هذه القرية ، فقيل : هي أيلة وهذا قول الأكثر ، وقيل : مدين ، وقيل غير ذلك ، ولا يهم معرفة القرية ، وإنما المهم معرفة ما حدث لهم والاعتبار به والاتعاظ .
- وملخص قصتهم : كانت هذه القرية محرم عليهم الاصطياد يوم السبت – ابتلاء واختباراً من الله – وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك – القَرَم بفتحتين: شهوة اللحم – وكان الله افتتنهم فتنة، كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجاً أفواجاً، فإذا غربت الشمس يوم السبت تمنّع في البحر فلا يقدرون على شيء منه، وهذا ابتلاء وامتحان لهم، فمكثوا من الزمن بهذا ما شاء الله، ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم، فصاروا يحتلون على السمك يوم الجمعة – مثلاً – فيحفرون فيُجرُون في الماء أخاديد يسيل فيها الماء ، فإذا انتهت حفروا حُفراً عميقة ، فإذا جاء الحوت مع تلك الأخاديد المائية نزل في الحفر فلا يقدر على الرجوع فأخذوه يوم الأحد ، وكان بعضهم – فيما يقولون – يجعل في ذنب الحوت خيطاً ويدق وتداً على الشاطئ ، ويمسك رأس الخيط فيه ، فيبقى الحوت في الماء ممسكاً بالخيط ، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه ، فلما فعلوا هذه الحيل ولم يعاجلهم العذاب كأنهم تجرؤا وتشجعوا وقالوا : لعل حرمة صيد السمك رفعها الله ، لأنه لم يفعل بنا بأساً ، فلم يزالوا يتدرجون في الحيل حتى صار بعضهم يصطاده علناً ويملحونه ويبيعونه في الأسواق ، وكانوا ثلاث طوائف : طائفة باشرت العدوان يوم السبت واصطياد السمك ، وطائفة نهتهم عنه ، وطائفة سكتت ، وقد بيّن الله أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذاباً بئيساً وهو مسخهم قردة ، والطائفة التي نهتهم أنجاهم ، وسكت تعالى عن الطائفة الساكتة . (الشنقيطي) .

(**إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ**) أي يجاوزون حدود الله ، وينتهكوا أوامره باصطياد السمك يوم السبت .

(**إِذْ تَأْتِيهِمْ**) أي حين تأتيهم .

(**حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً**) أي تأتي يوم السبت مقبلة ظاهرة على وجه الماء كأنه صفوف كثيرة حتى تستر وجه الماء من كثرتها .

(**وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ**) أي وفي غير يوم السبت – وهي سائر الأيام – لا تأتيهم ، بل تغيب عنهم وتختفي .

(**كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) أي كذلك نختبرهم بسبب كونهم فاسقين ، فقد ابتُلوا بالطمع ولم ينجحوا ، وقد ابتلوا بالخوف ولم ينجحوا .

- **قال السعدي** : ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله ، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق .

(**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً**) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة (لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ) إهلاك: استئصال (أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً)

لجراءتهم عليه وانتهاكهم حرماته.

(**قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ**) قال الناهون : أي وعظناهم لأجل المعذرة عند الله وإقامة الحجة .

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ولرجائنا أيضاً أن تؤثر فيهم الموعظة فيتقوا الله ويكفوا عن ما هم مصرون عليه من ارتكاب هذا الذنب العظيم.

(**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ**) أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم وأعرضوا عن قبول النصيحة .

- والمراد بالنسيان هنا الترك كما قال تعالى (نسوا الله فنسيهم) أي تركوه فتركهم ، لأن الله لا ينسى كما قال تعالى (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .

(**أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ**) أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض .

(**وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا**) أي ارتكبوا الجريمة وعصوا الله واصطادوا السمك في السبت .

(**بِعَذَابٍ بَئِيسٍ**) البئيس : العذاب الشديد العظيم الذي وقْعه شديد على صاحبه .

(**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) أي بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله .

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ) أي فلما تمردوا وتكبروا عن ترك ما نُهوا عنه وهو صيد السمك يوم السبت.

- قال ابن عطية : والعتو " الاستعصاء وقلة الطواعية .

(**قُلْنَا لَهُمْ**) صيغة الجمع للتعظيم ، والقائل هو الله .

(**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**) فأصبحوا قردة خاسئين . والخاسئ : هو الحقير الذليل الخسيس .

- **قال الشنقيطي** : القردة : جمع قرد ، وهو الحيوان المعروف ، وهو من أخس الحيوانات ، والدليل على أنه من أخس الحيوانات أن الله مسخ في صورته من أراد إذلالهم وإهانتهم وصغارهم ، وهذا معروف أن القرد من أخس الحيوانات .
- اختلف العلماء هل هذا المسخ كان حقيقة أم كان معنوياً، والصحيح أنه كان حسياً فصاروا قردة، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم تمسخ صورهم ، قال القرطبي : ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم .
- ذكر الله هذه القصة في سورة البقرة مختصرة قال تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) .
- **قال الرازي** : المقصود من ذكر هذه القصة أمران :

الأول : إظهار معجزة مُحَمَّد ﷺ فإن قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ) كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان مُحَمَّد ﷺ فلما أخبرهم مُحَمَّد ﷺ عن هذه الواقعة مع أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفه من الوحي.

الثاني : أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول لهم: أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم .

- قوله تعالى (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً) اختلف في مرجع الضمير على أقوال :

قيل : العقوبة ، **وقيل** : القردة ، **وقيل** : القرية ، ورجحه ابن كثير ، وقال : والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم .

(**نَكَالاً**) أي عاقبناها عقوبة فجعلناها عبرة .

(**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا**) اختلف العلماء في المراد في قوله : بين يديها وما خلفها ، والصحيح : بين يديها أي من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم ، وما خلفها : من يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم .

(**وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**) المراد بالموعظة هنا الزاجر ، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

الفوائد :

١- تحريم الحيل المحرمة وأن ذلك من صفات اليهود .

والحيلة : التوصل إلى أمر محرم بفعلٍ ظاهره الإباحة ، والحيل حرام لقوله ﷺ (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) ولأن المتحيل فيه نوع استهزاء بالله تعالى .

كل من تحيل لارتكاب محرم [إما بإسقاط واجب أو فعل محرم] فقد ارتكب مفسدتين :

الأولى : مفسدة التحايل . **الثانية** : مفسدة فعل المحرم .

إسقاط واجب : سافر من أجل أن يفطر ، [فعل محرم] قلب الدين كما سبق .

وقد دل على التحريم أدلة كثيرة :

منها : الآية التي معنا حيث عاقبهم الله ومسخهم قردة .

ومنها : قوله ﷺ (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) رواه ابن أبي بطة .

ومنها : أن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به في سورة (القلم) وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهو نائمون فأصبحت كالصريم ، وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين ، بأن يصرموها مصبحين ، قبل مجيء المساكين ، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده .

٢- في الآية (قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) بيان الحكمة من الأمر بالمعرف والنهي .

- **قال الشنقيطي** : وهذه الآية جاء فيها بيان حكمتين من حكَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن استقراء القرآن دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له ثلاث حكم ، تضمنت هذه الآية من سورة الأعراف من تلك الحكم الثلاث اثنتين ، فالحكم الثلاث :

الأولى : أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه ، ويخرج بذلك من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف لئلا يدخل في قوله (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

وهذه الحكمة أشار لها بقوله (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ) .

الحكمة الثانية : هي رجاء انتفاع المذَكَّر .

كما قال هنا عنهم (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ، وذكر الله هذه الحكمة في قوله (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

الحكمة الثالثة : هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابة عن رسله .

لأن الله يقول (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣- اختلف العلماء في الفرقة الساكتة في هلاكهم ونجاتهم ؟

• **قال السعدي** : وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ) فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون.

فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم(لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

• **وقال ابن كثير** : وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم .

٤-أن إقامة شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنجاة .

لقوله تعالى هنا (وأَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) .

وعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ – رضي الله عنهما – عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا . فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً) رواه البخاري .

• **فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** :

أولاً : مهمة الرسل .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ...) .

ثانياً : من صفات المؤمنين .

قال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) .

وقال تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

قال الغزالي : فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية .

ثالثاً : أن خيرية الأمة مناطة بهذه الشعيرة .

قال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

رابعاً : من أوصاف سيد المرسلين .

قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) .

خامساً : من خصال الصالحين .

قال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

سادساً : من أسباب النصر والتمكين .

قال تعالى (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

سابعاً : من أسباب النجاة .

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) .

وحديث النعمان بن بشير السابق .

والحديث (فمن أنكر فقد سلم).

٥-تذكير الأمة بما فعل أسلافها ليتخذوا من ذلك عبرة .

٦-وجوب الاعتبار بقصص من مضى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

٧-أت ارتكاب المنكر ، وفعل المحظور نذير شؤم ، وطريق لغضب الله .

٨-أن الداعية مطالب الدعوة والنصح ، وليس هو مطالباً بهداية الآخرين .

٩-الساكتون عن الحق يستحقون الإهمال والإغفال والنسيان .

١٠-أن الحيل من صفات اليهود .

١١-أن العقوبة تكون مجانسة للعمل ، فهؤلاء القوم لما تحيلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة ، قلبهم الله إلى أقرب الحيوانات شبهاً بالإنسان وهي القردة .

١٢-بيان قدرة الله حيث قلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية .

١٣-أن الموعظة إنما ينتفع بها المتقون ، فمن ليس بمتقٍ لا ينتفع بالموعظة ، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعظة وأكثر انتفاعاً بها .

١٤-أن من فوائد التقوى أن صاحبها يتعظ ويعتبر بما يحصل .

١٥-أن تلك القرية مثال لأي قرية أو مدينة ، في موقف أهلها من أوامر الله ، حيث ينقسمون أمامها ، فيعتدي عليها فريق ، ويقف في وجوههم فريق ، ويسكت عن الإنكار فريق .

١٦-أن الله يبتلي الناس ويمتحنهم بالتكليف ، فمنهم من يجاهد نفسه فيلتزم فينجح ، ومنهم من يتبع هواه فيعتدي فيسقط .

١٧-الأسماك والحيتان التي توجهت لمراودة وإغراء أهل القرية ، كانت جنوداً لله ، أمرها أن تقترب منهم يوم السبت ، وأن تبتعد في باقي الأيام .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) [الأعراف : ١٦٧] .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) أي : واذكر يا مُحَمَّد حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى قيام الساعة ، من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله .

- **قال الرازي** : اعلم أنه تعالى لما شرح ههنا بعض مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم

عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة ، قال سيبويه : أذن أعلم.

- **قال القرطبي** : ومعنى (يَسُومُهُمْ) يذيقهم ؛ قيل : المراد بُخْتَنصّر ، وقيل : العرب ، وقيل : أُمّة مُحَمَّد ﷺ وهو أظهر ؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة.
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (يسومهم سوء العذاب) معناه ما داموا على إعراضهم وعنادهم وكونهم أتباع ملة اليهودية مع عدم الوفاء بها ، فإذا أسلموا وآمنوا بالرسول النبي الأمي فقد خرجوا عن موجب ذلك التأذنُ ودخلوا فيما وعد الله به المسلمين.

(**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ**) أي: لمن عصاه وخالف أمره و شرعه .

(**وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**) أي: لمن تاب إليه وأناب.

وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

قال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّيۤ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ) .

وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

الفوائد :

١- وعد الله بالذل على اليهود إلى يوم القيامة .

٢- أن المعاصي والتحايل على دين الله سبب لغضب الله .

٣-الوعيد لمن يعمل كأعمال هؤلاء المغضوب عليهم ، فيصيبه ما أصابهم .

٤- أن الله شديد العقاب وسريع العقاب .

٥- الخوف من غضب الله وانتقامه .

٦- أن الله كما أنه سريع العقاب فهو غفور رحيم لمن تاب وأناب وأصلح عمله .

٧- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور والرحيم .

(**وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)**) .

[الأعراف : ١٦٨- ١٧٠] .

(**وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا**) يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً ، أي: طوائف وفرقًا، كما قال تعالى (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) .

- **قال الرازي** : ومعنى (قطعناهم) أي فرقناهم تفريقاً شديداً، فلذلك قال بعده (فِي الأرض أُمَمًا) وظاهر ذلك أنه لا أرض مسكونة إلا ومنهم فيها أمة، وهذا هو الغالب من حال اليهود، ومعنى قطعناهم، فإنه قلما يوجد بلد إلا وفيه طائفة منهم.

(**مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ**) **قيل** : المراد القوم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق.

وقيل : يريد الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به .

(**وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ**) أي : ومنهم قوم دون ذلك ، والمراد من أقام على اليهودية.

- **فإن قيل** : لم لا يجوز أن يكون قوله (وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك) من يكون صالحاً إلا أن صلاحه كان دون صلاح الأولين لأن ذلك إلى الظاهر أقرب.

قلنا : أن قوله بعد ذلك : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) يدل على أن المراد بذلك من ثبت على اليهودية وخرج من الصلاح.

(**وَبَلَوْنَاهُمْ**) أي: اختبرناهم .

(**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**) أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء .

- **قال الرازي** : أي عاملناهم معاملة المبتلى المختبر بالحسنات ، وهي النعم والخصب والعافية ، والسيئات هي الجدب والشدائد ، قال أهل المعاني : وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة ، أما النعم فلأجل الترغيب ، وأما النقم فلأجل الترهيب.
- **وقال ابن الجوزي** : قوله تعالى (بالحسنات) وهي : الخير ، والخصب ، والعافية (والسيئات) وهي : الجدب ، والشر ، والشدائد ؛ فالحسنات والسيئات تحث على الطاعة ، أما النعم فطلب الازدياد منها ، وخوف زوالها ، والنقمُ فلكشفها ، والسلامة منها.

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) فيتوبون ويستغفرون .

(**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ**) (خلْف) بإسكان اللام يستعمل في الأشهر في الذم ومنه قول لبيد : [الكامل]

ذهب الذين يعاش في أكنافهم... وبقيت في خلف كجلد الأجرب .

والخلَف بفتح اللام يستعمل في الأشهر في المدح ،

(**وَرِثُواْ الْكِتَابَ**) قال المفسرون : هم اليهود ، ورِثوا كتاب الله فقرؤوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له.

فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً.

(**يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى**) يعني الرشوة على الحكم في قول الجميع وسماه عرضاً لقلة بقائه.

- **قال الشوكاني** : أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم وقوّة نهمتهم ، والأدنى : مأخوذ من الدنوّ ، وهو القرب ، أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى ، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء ، وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله ، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة ، وكتمهم لما يكتمونه منها.

وقيل : إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط ، أي إنهم يأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط.

- والعَرَض : متاع الدنيا ؛ بفتح الراء.

والمراد بهذا العرض ما يؤخذونه من الرشا في الحكومات وعلى تحريف الكلام .

وفي وصفه بالأدنى وجهان :

أحدهما : لأخذه في الدنيا الدانية.

والثاني : لأنه من المحرمات الدنية.

- **قال ابن الجوزي** : وفي وصفه بالأدنى قولان.

أحدهما : أنه من الدُّنُوِّ.

والثاني : أنه من الدناءة.

- **قال الخازن** : والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام على تبديل الكلام وتغييره ، وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشيء التافه الخسيس الحقير ، لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة ، والراغب فيها أحقر منها ، فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنها حرام ثم إنهم مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه .
- **قال ابن عاشور** : ومهد لذلك بأنهم ورثوا الكتاب ليدل على أنهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل، وذلك أشد مذمة، كما قال تعالى (وأضله الله على علمٍ) ، والعَرَض بفتح العين وفتح الراء الأمر الذي يزول ولا يدوم ، ويراد به المال ، ويراد به أيضاً ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.

(**وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**) يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة .

(**وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ**) فيه قولان.

أحدهما : أن المعنى : لا يشبعهم شيء ، فهم يأخذون لغير حاجة ، قاله الحسن.

والثاني : أنهم أهل إصرار على الذنوب ، قاله مجاهد.

- **قال الخازن** : وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب ، والمعنى أنهم إذا أتاهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ، ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه.

(**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ**) يعني ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم العهود والمواثيق في الكتاب وهو التوراة .

(**أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**) دون تحريف أو تبديل ؟

(**وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ**) أي : قرؤوه ، وهم قَرِيبُو عهد به.

- **قال ابن عاشور** : والمعنى : أنهم قد أخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ، وهم عالمون بذلك الميثاق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجة.
- **قال الشوكاني** : والمعنى : أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب ، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب وعلموه ، فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل ، وذلك أشدّ ذنباً وأعظم جرماً.

(**وَالدَّارُ الآخِرَةُ**) يعني وما في الدار الآخرة مما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا في الأحكام .

(**خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ**) يعني يتقون الله ويخافون عقابه .

كما قال تعالى (والآخرة خير وأبقى) .

وقال تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى) .

وقال تعالى (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) .

(**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**) الاستفهام للإنكار ، أي : أفلا ينزجرون ويعقلون ، والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية .

(**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ**) يعني : يعملون بالتوراة ولا يغيرونها عن مواضعها .

- **قال ابن الجوزي** : وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يُحرِّفوه، منهم عبد الله بن سلام وأصحابه.

(**وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ**) **أي** : **أتوا** بها على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها .

- قال الشيخ السعدي : لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطناً بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .
- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .
- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها ، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع ، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها ، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض : وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .

- **فإن قيل** : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة فكيف أفردت بالذكر ؟

قلنا : إظهاراً لعلو مرتبة الصلاة ، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان.

- **قال الخازن** : قوله تعالى (وأقاموا الصلاة) يعني وداوموا على إقامتها في مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيهاً على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله وبرسوله .
- **وقال الشوكاني** : وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة ، لأنها رأس العبادات وأعظمها ، فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر.

(**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**) أي : لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

الفوائد :

١- حكمة الله في تفريق اليهود فرقاً وجماعات .

٢- أن من اليهود من أسلم .

٣- أن الله يبتلي عباده مرة بالنعم ومرة بالنقم لعلهم يرجعون .

٤- أن النعم ابتلاء ، ليعلم هل يشكر أم لا .

٥- رحمة الله بعباده ، حيث يبتليهم بالمصائب ليرجعوا إليه وينيبوا .

٦-ذم من يأخذ المال الحرام من أجل أن يبيع دينه بعرض قليل .

٧- أن من فعل ذلك من المسلمين ففيه شبه من اليهود .

٨- حب اليهود للمال وللحياة ، وهذا أمر معلوم مشهور .

٩-ذم من يشتري الدنيا بالآخرة ، الدنيا الحقيرة الزائلة . (فلا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) .

١٠- أن اليهود أهل أماني وغرور .

١١- أن الله أخذ الميثاق على العلماء بوجوب تبليغ العلم والقيام به وتحريم كتمه .

١٢- أن من تمسك بالكتاب ونشره واعتصم به ولم يكتم منه شيئاً ، فإن الله لا يضيع أجره .

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)) .
[الأعراف : ١٧١] .

(**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ**) أي : قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم .

(**كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ**) أي : كهيئة الغمام .

(**وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ**) أي : أيقنوا الجبل واقع بهم .

- المراد بالجبل الطور كما قال تعالى في سورة البقرة (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم .
- **قال الآلوسي** : تذكير بنعمة أخرى ، لأنه سبحانه إنما فعل ذلك لمصلحتهم ، والظاهر من الميثاق هنا العهد ، ولم يقل : مواثيقكم ، لأن ما أخذ على كل واحد منهم أخذ على غيره فكان ميثاقاً واحداً ولعله كان بالانقياد لموسى عليه السلام .
- فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف في قوله تعالى (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) . نتقنا : أي رفعنا .
- **قال الشوكاني** : والطور : اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة فيه.
- **قال أبو حيان** : سبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة ، أو من السجود ، أو من أخذ التوراة والتزامها .
- **قال في التسهيل** : لما جاء موسى بالتوراة أبوا أن يقبلوها فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم : إن لم تأخذوها وقع عليكم .
- **قال ابن الجوزي** : وجمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة .
- **قيل** : إن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان ، لا أنهم آمنوا كرهاً ، وقلوبهم غير مطمئنة ، قاله ابن عطية .

وقيل : أكرههم الله على الإيمان ، فآمنوا مكرهين ، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان ، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الإسلام ، قاله الشوكاني .

(**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ**) أي التوراة .

(**بِقُوَّةٍ**) أي : أي بجد وعزيمة كاملة وعدول عن التغافل والتكاسل .

(**وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ**) يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به .

- **قال القرطبي** : (واذكروا مَا فِيهِ) أي : تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه.

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عُيَيْنة .

(**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) (لعل) للتعليل ، أي : لأجل أن تتقوا الهلاك في الدنيا والآخرة .

الفوائد :

١- أن الله أخذ العهود والمواثيق على بني آدم أن يوحدوه ويؤمنوا به .

٢- بيان قدرة الله ، حيث رفع فوقهم هذا الجبل العظيم فوقهم .

٣- وجوب أخذ الإنسان شريعة الله بقوة .

٤- الحذر من الكسل والتواني في الأعمال الصالحات وهذا ينقسم إلى قسمين :

أولاً : التواني في فعل المأمورات : بأن نتكاسل في فعل الواجبات ونتراخى في فعل المندوبات .

ثانياً : الضعف في ترك المنهيات ، بحيث يضعف الإنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية .

٥- وجوب ذكر ما في الكتب السابقة ، من وعد ووعيد ، وترغيب وتهديد ، وهذا الذكر يكون باللسان وبالعمل والتطبيق .

٦- إثبات فضل الله على بني إسرائيل .

٧- أن أخذ الشرائع بقوة وذكر ما فيها يكون سبباً للتقوى .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)) .

[الأعراف : ١٧٢- ١٧٤] .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) قال الطبري : أي واذكر يا مُحَمَّد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم .

(وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنا) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ مَعْرُوفَانِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ:

أَحَدُهُمَا : أَنَّ مَعْنَى أَخْذِهِ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ : هُوَ إِيجَادُ قَرْنٍ مِنْهُمْ بَعْدَ قَرْنٍ ، وَإِنْشَاءُ قَوْمٍ بَعْدَ آخَرِينَ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : (كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) ، وَقَالَ: (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَمَعْنَى قَوْلِهِ: (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) : أَنَّ إِشْهَادَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِمَا نُصِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ بِأَنَّهُ رَبُّهُمُ الْمُسْتَحِقُّ مِنْهُمْ لِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، وَعَلَيْهِ فَمَعْنَى (قَالُوا بَلَى) أَيْ: قَالُوا ذَلِكَ بِلِسَانِ حَالِهِمْ لِظُهُورِ الْأَدِلَّةِ عَلَيْه .

والذين قالوا هذا القول -واختاره غير واحد من المحققين المتأخرين- قالوا: الدليل على أنّ هذا هو المراد أن الله لم يخلق أحدًا من بني آدم ذاكرًا الميثاق ليلة الميثاق وهم كالذر، وما لا يذكره الإنسان لا يكون حجة عليه، وهذا كأنه جعل حجة مستقلة عليه، كما يدل عليه قوله (شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ) فعلى هذا القول فأخذ الذُّرِّيَّات من ظهور بني آدم هو إيجادهم منهم قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل عن طريق التناسل المعروف ، وعلى هذا القول فالإشهاد عليهم بلسان الحال بما نصب لهم من الأدلة، وما ركز فيهم من الفطرة. واختار هذا ابن كثير ، والزَّمَخْشَرِي ، وغير واحدٍ من المتأخرين.

الْوَجْه الْآخَر فِي مَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ جَمِيعَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِ الْآبَاءِ فِي صُورَةِ الذَّرِّ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) ثُمَّ أَرْسَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الرُّسُلَ مُذَكِّرَةً بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ الَّذِي نَسِيَهُ الْكُلُّ وَلَمْ يُولَدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهُ، وَإِخْبَارُ الرُّسُلِ بِهِ يَحْصُلُ بِهِ الْيَقِينُ بِوُجُودِهِ.

وهَذَا الْوَجْهُ الْأَخِيرُ يَدُلُّ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . (أضواء البيان) .

وهذا القول قال به كثير من السلف، ودلت عليه أحاديث كثيرة من أصحها وأدلها عليه ما ثبت في الصحيحين -صحيح البخاري وصحيح مسلم- من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ لأَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ:

أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عِنْدَكَ كُلُّ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ اللهُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَلاَّ تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي) .

- فالله تعالى أرسل الرسل لإقامة الحجة والتذكير بالميثاق .

قال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) .

وقال تعالى (وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وقد صرَّح -جلّ وعلا- بأن جميع أفواج النّار الذين يدخلونها يوم القيامة أنهم جميعهم أَنْذَرَتْهُمُ الرُّسُل في دار الدنيا، وقطعت أعذارهم قبل الموت، وذلك في قوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شيء إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

فقوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) يدل على أن جميع الأفواج التي دخلت النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

وقد صرّح الله بذلك في سورة الزمر – التي ذكر فيها القيامة كأنك تنظر إليها- قال (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

(**أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**) أي : لئلا تقول يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه .

(**أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ**) أي : ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا ، وإنما قلدنا آباءنا واتبعنا طريقتهم فنحن معذورون .

(**أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**) أي : أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلين بعد اتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحق ؟

(**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) أي : وكما بينا الميثاق نبيّن الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء .

الفوائد :

١-أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

٢-وجوب الإيمان بربوبية الله تعالى .

٣- أن الله أخذ الميثاق على الناس بالإيمان به وبربوبيته .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ (١٧٧)) .

[الأعراف : ١٧٥- ١٧٧] .

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ**) أي : اقرأ عليهم .

(**نَبَأَ**) أي : خبر .

(**الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**) أكثر المفسرين يقولون : إنها في رجل علمه الله الكتاب من بني إسرائيل .

- **قال السعدي** : يقول تعالى لنبيه ﷺ (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) أي: علمناه كتاب الله، فصار العالم الكبير والحبر النحرير.

والمراد بالآيات هنا الشرعية .

- قال إمام المفسرين ، الطبري رحمه الله : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبر رجل كان صالحاً آتاه الله حججه وأدلته ، وهي "الآيات"... وجائز أن يكون الذي آتاه الله ذلك : "بلعم" ، وجائز أن يكون "أمية" ولا خبر بأي الرجلين المعنيّ – يوجب الحجة ، ولا في العقل دلالة على أي ذلك ، المعنيّ به من أيٍّ ، فالصواب أن يقال فيه ما قال الله ، ونقرّ بظاهر التنزيل ، على ما جاء به الوحي من الله .
- قول من يقول إنه كان نبياً لا يصح .
- **قال الرازي** : هذا بعيد ، لأنه تعالى قال (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) وذلك يدل على أنه تعالى لا يشرف عبداً من عبيده بالرسالة ، إلا إذا علم امتيازه عن سائر العبيد بمزيد الشرف ، والدرجات العالية ، والمناقب العظيمة ، فمن كان هذا حاله ، فكيف يليق به الكفر ؟
- **وقال الماوردي** عن هذا القول : وهو غير صحيح لأن الله لا يصطفي لنبوته إلا من يعلم أن لا يخرج عن طاعته إلى معصيته.

(**فَانْسَلَخَ مِنْهَا**) خرج منها والعياذ بالله كما تنسلخ الحيّة من ثَوْبِهَا، ولم يعلق به منها شيء.

- **قال السعدي** : أي انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله ، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره ، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس .

(**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**) اتّبعه الشيطان حتى لحق به وأدركه وجعله قرينًا له يذهب معه حيث يذهب .

- **قال السعدي** : أي تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزا.

(**فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**) أي : صار من الغاوين .

والغاوي : الضال ، فكان من الضالين أشد الضلال .

(**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**) أي : لو شئنا رفع هذا الذي آتيناه آياتنا بتلك الآيات لوفقناه للعمل بها فعمل بها حتى مات عليها فكان مرفوع الدرجة رفيع الذكر في الدنيا والآخرة.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) في هاء الكناية في "رفعناه" قولان.

أحدهما : أنها تعود إلى الإنسان المذكور ، وهو قول الجمهور ؛ فيكون المعنى : ولو شئنا لرفعنا منزلة هذا الإنسان بما علمناه.

والثاني : أنها تعود إلى الكفر بالآيات ، فيكون المعنى : لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا ، وهذا المعنى مروي عن مجاهد.

وقال الزجاج : لو شئنا لحُلْنا بينه وبين المعصية.

(**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ**) أي : ركن ومال إلى لَذَّاتِ الدّنْيَا وحطامها وشهواتها فآثَرَها على آيات الله فسَلَخَهُ الله من آياته (والعياذ بالله). والعرب تقول: أخلد إلى الشيء: إذا رَكَنَ ومَالَ إلَيْهِ، وأصل الإخلاد: هو ملازمة الشيء والدوام فيه. فالعرب تقول: أخلد بهذا المكان: إذا لازَمَهُ ودَامَ فِيه، وهو معنى معروف في كلامها .

(**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**) الهوى بفتحتين: مَيلُ النفس، ولا يكاد يطلق إلا على ميلها لما لا ينبغي، وقد يُطلق في غير ذلك . واتباع الهوى (والعياذ بالله) هو أعظم الآفات.

- اتباع الهوى ضلال وسبب للهلاك ،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : واتباه الهوى في الديانات أعظم من اتباع الهوى في الشهوات ، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين .

كما قال تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ) .

وقال تعالى (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

وقال تعالى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

وقال تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) .

فاتباع الهوى ضلال وهلاك .

كما قال تعالى (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال ﷺ (ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله ، وهذا من نوع الهوى ، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ) .

ونفس الهوى – هو الحب والبغض الذي في النفس – لا يلام عليه ، فإن ذلك قد لا يملك ، وإنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

ويقال سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه ، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم كما قال تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً) وقال تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) .

وينبغي على المكلف أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ، ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه ، وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا به لهم منه .

وليعلم العاقل أن الهوى حظار جهنم المحيط بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها .

قال ﷺ (حفت النار بالشهوات) رواه مسلم .

وقال ﷺ (لما خلق الله الجنة ، أرسل إليها جبريل ....اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد) رواه الترمذي .

من أقوال السلف في ذم الهوى :

قال ابن القيم : مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه .

وقال بعض السلف : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده .

وقال بشر الحافي : البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك إياه .

وقيل للحسن البصري : يا أبا سعيد ، أي الجهاد أفضل ؟ قال : جهاد هواك .

وقال ابن القيم : لكل عبد بداية ونهاية ، فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه ، بل يصير له في ذلك عذاباً يعذب به في قلبه .

وقيل : للمهلب بن أبي صفرة ، بم نلت ما نلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى .

وَهَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَبُكَاؤُهُ وَخَوْفُهُ ، وَكَانَ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنِ اثْنَتَيْنِ : طُولِ الْأَمَلِ ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى ، قَالَ : فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ

(**فَمَثَلُهُ**) أي: فصفته (والعياذ بالله) في خساسته وقبحه وملازمته الخساسة في جميع الأحوال .

(**كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**) يقول : إن طردته فهو يلهث (أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث) يعني : وإن تركته فهو يلهث.

قال القتبي : كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب ، فإنه يلهث في حال الراحة والصحة والمرض.

فضرب الله تعالى به مثلاً يعني : كما أن الكلب إن طردته أو تركته يلهث فكذلك بلعم أو أمية بن أبي الصلت إن وعظته لم يتعظ وإن تركته لم يفعل. (السمرقندي) .

- **قال الشنقيطي** : ... إن تشد عليه وتطرده وتُجْهِده يلهث وإن (تَتْرُكْهُ) في رخاء ودَعة (يَلْهَثْ) والعرب تقول: لَهَثَ الكلب –بفتح الهاء– يَلْهَث –بفتحها؛ لأنه حَلْقِي العين– لَهْثًا ولُهَاثًا: إذا فتح فاه ومَدَّ لسانه وصار يلهث، يطلع النَّفَسَ ويردها بقوة كفعل الذي أصابه إعياء وتَعَبٌ شَدِيد. وجميع الحيوانات لا يلهث شيء منها إلا إذا أصابه إِعْيَاء شديد، أو تعب شديد، أو عطش شديد، إلا الكلب وحده فإنه يلهث دائمًا، في حالة الرِّيّ يَلْهَث، وفي حالة العطش يلهث، وفي حالة الشد عليه والطرد والتعب يلهث، وفي حالة الرَّخَاءِ يَلْهَث، فهو يلازم اللهْث في جميع حالاته . واللهث مِنْ أخَسّ حالاته؛ لأنه فاتِحٌ فاه، مادٌّ لِسَانَهُ، يُطْلِع النَّفَس وينزلها بقوة، وهذه مِنْ أخسّ الحالات وأقبحها، فضربه الله مثلاً لهذا وإن تَرَكْتَهُ لم يَتَّعِظْ، فهو ملازم –والعياذ بالله– كفرانه وعصيانه على جميع الحالات .
- وأما قول من قال: إن بلعام بن باعوراء لما دعا على نبي الله موسى اندلع لسانه فصار على صدره، فصار لسانه متدليًا – كلسان الكلب – يلهث كلهاث الكلب، وأن هذا معنى قوله: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ...) الآية. هذا التفسير غير صحيح، بل الصحيح أنه مثل مضروب كما بيّنَّا .
- **قال الرازي** : قوله تعالى (إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ) فالمعنى أن هذا الكلب إن شد عليه وهيج لهث وإن ترك أيضاً لهث ، لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له ، فكذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعية ذاتية له.
- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) معناه : أن هذا الكافر ، إن زجرتَه لم ينزجر ، وإن تركتَه لم يهتد ، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب ، فانه إن طُرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً ، وإن تُرك وربض كان أيضاً لاهثاً ، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة ؛ فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثاً ، وإنما شبهه بالكلب اللاهث ، لأنه أخسُّ الأمثال على أخس الحالات وأبشعها.

وقال ابن قتيبة : كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب ، فانه يلهث في حال راحته وحال كلاله ، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته ، فقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله رابضاً لهث.

(**ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) يعني : ذلك صفة الذين جحدوا نبوة النبي ﷺ والقرآن ، أي : في ملازمتهم حالة

الكفر والتكذيب القبيحة كمثل هذا الكلب في ملازمته حالة اللهث القبيحة في جميع أحواله.

(**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ**) أي : اقصص عليهم يا نبي الله (الْقَصَصَ) أي: هذا الخبر كخبر بلعام بن باعوراء وغيره .

(**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**) أي: لأجل أن يتفكروا ويُعملوا أفكارهم فيتعظوا بمثلات الله وما أوقعه بالذين عصوه في الزمن الماضي لينزجروا وينكفوا.

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) اي: فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علمًا، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة مُحَمَّد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة.

(**سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**) (ساء) بمعنى: بئس. و (مثلاً) مُمَيِّز. و (القوم) فاعل بئس، (مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا) ساء مثلهم والعياذ بالله؛ لأنه مثل السوء .

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيها بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه .

(**وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**) أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

الفوائد :

١- الحث والترغيب في العمل بالعلم ، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان ، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه .

- **قال الواحدي** : وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم ، وخصه بالدعوات المستجابة ، لما اتبع الهوى انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب ، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر ، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى ، كان بعده عن الله أعظم ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : "من ازداد علماً، ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً" أو لفظ هذا معناه.
- **وقال ابن الجوزي** : وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى.
- فالعمل هو ثمرة العلم ، فلا بد مع العلم بدين الإسلام من العمل به ، فإن الذي معه علم ولا يعمل به شر من الجاهل .

واعلم أنه لا خير في علم لا يقترن بعمل مخلص متابع الرسول ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه وسائر شئون حياته وذلك بأن يؤدى حق الله وحق العبيد .

- واعلم أن العلم إن وجد لنفسه داراً مكث وإلا رحل عنك ، ودار العلم العمل ، والعلم لا يثبت إلا بالعمل .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل) ذكره الخطيب .

وقد ذم الله اليهود لانهم لم يعملوا بعلمهم وشبههم بالحمار يحمل أسفاراً .

قال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) .

قال ابن كثير : يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل ثم لم يعملوا بها : مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل

أسفاراً ، أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها ، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير ، لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوه .

ومن لم يعمل بعلمه فإنه سيكون حجة عليه .

كما جاء في الحديث (لن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع وذكر منها .. وعن علمه ماذا عمل به) .

وقال بعض السلف (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) .

والذي يعمل بعلمه يثبت علمه .

قال بعض السلف : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

- نماذج مشرقة في تطبيق العمل بالعلم :

أ-عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم ـ عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) قال سالم : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً) .

ب- ولما علم النبي ﷺ علياً وفاطمة : أن يسبحا ثلاثاً وثلاثين ويحمدا ثلاثاً وثلاثين ويكبرا أربعاً وثلاثين وقال : (فهو خير لكما من خادم) قال علي رضي الله عنه : ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ ، قيل له : ولا ليلة صفين ؟ قال : ولا ليلة صفين . رواه مسلم

ج-وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه ، يبيت ثلاث ليال، إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه، قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك، إلا وعندي وصيتي) رواه مسلم .

د-وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ (من قرأ آية الكرسي عقيب كل صلاة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت). رواه النسائي

قال ابن القيم : بلغني عن شيخ الإسلام أنه قال : ما تركتها عقب كل صلاة إلا نسياناً أو نحوه .

هـ- رواه مسلم في صحيحة : ... من طريق النُّعْمَان بْن سَالِم عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ قَالَ حَدَّثَنِي عَنْبَسَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ فِي مَرَضِهِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ بِحَدِيثٍ يُتَسَارُّ إِلَيْهِ قَالَ سَمِعْتُ أُمَّ حَبِيبَةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (**مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ**) .

قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَقَالَ عَنْبَسَةُ فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ .

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ أَوْسٍ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَنْبَسَةَ .

وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ سَالِمٍ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ

قال البخاري : ما اغتبت أحداً منذ علمت أن الغيبة حرام ، إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً .

قال الإمام أحمد بن حنبل : (ما كتبت حديثاً إلا قد عملت به حتى مرَّ بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبي طيبة ديناراً فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً) .

فالعمل بالعلم دليل على أن هذا علم مبارك نافع .

وكان السلف يستعينون بحفظ الأحاديث بالعمل . قال وكيع : إذا أردت أن تحفظ حديثاً فاعمل به .

٢- أن العلم ينقسم إلى علم نافع ، وإلى علم غير نافع .

قال ابن رجب : وقد جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وإلى غير نافع ، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع ، وسؤال العلم النافع .

ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها) .

وخرجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبي ﷺ ، وفي بعضها (ومن دعاء لا يسمع) .

وفي بعضها (أعوذ بك من هؤلاء الأربع) .

وخرج النسائي من حديث جابر أن النبي ﷺ كان يقول (اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع) .

وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقول (اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً) .

وخرج النسائي من حديث أنس (أن النبي ﷺ كان يدعو: اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وارزقني علماً تنفعني به).

- علامات العلم النافع :

قال ابن رجب : فلهذا كان من علامات أهل العِلْم النافع أنهم لا يرون لأنفسهم حالا ولا مقامًا، ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح، ولا يتكبرون على أحد.

قال الحسن: إِنَّمَا الفقيه الزاهد في الدُّنْيَا الراغب في الآخرة، البصير بدينه المواظب على عبادة ربه.

وأهل العِلْم النافع كلما ازدادوا من هذا العِلْم ازدادوا لله تواضعًا وخشية وانكسارًا وذلا.

ومن علامات العِلْم النافع: أنَّه يدل صاحبه عَلَى الهرب من الدُّنْيَا، وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح، فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العِلْم النافع .

ومن علامات العِلْم النافع: أن صاحبه لا يدعي العِلْم ولا يفخر به عَلَى أحد، ولا ينسب غيره إِلَى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها؛ فإنَّه يتكلم فيه غضبًا لله لا غضبًا لنفسه ولا قصدًا لرفعتها عَلَى أحد.

- علامات العلم غير النافع :

قال ابن رجب : وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا. والمنافسة فيها. وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه وقد ورد عن النبي ﷺ)إن من طلب العلم لذلك فالنار النار(وربما ادعى بعض أصحاب هذه العلوم معرفة الله وطلبه والأعراض عما سواه وليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك وغرهم وإحسان ظنهم بهم وكثرة اتباعهم. والتعظم بذلك على الناس.

وعلامة ذلك إظهار دعوى الولاية كما كان يدعيه أهل الكتاب

٤- وفيه دليل على العلم إن لم ينفعك ضرك .

قال ابْنَ عُيَيْنة : الْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَنْفَعْكَ ضَرَّكَ .

قال الخطيب : قُلْتُ : يَعْنِي إِنْ لَمْ يَنْفَعْهُ بِأَنْ يُعْمَلَ بِهِ ضَرَّهُ بِكَوْنِهِ حُجَّةً عَلَيْهِ.

٥-وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سببا للخذلان.

٦- لم يأت تشبيه الإنسان بالحيوان في الشريعة الإسلامية إلا في مقام الذم .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ) .

وقال ﷺ (العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه) متفق عليه .

وقال ﷺ في الرجل يتكلم والخطيب يخطب (كالحمار يحمل أسفارا) .

وقال ﷺ (اعتدلوا ولا يبسط أحدكم ذراعيه كانبساط الكلب) متفق عليه .

٧-قال القرطبي : فدلّت الآية لمن تدبرها على ألاّ يغترّ أحد بعمله ولا بعلمه ؛ إذ لا يدري بما يُختم له.

(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)) .

[الأعراف : ١٧٨] .

(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، كما أن من أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود :إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ....ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

- وفي هذا دليل أن المهتدي من هداه الله .

قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) .

وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .

وقال تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى عن أهل الإيمان يوم القيامة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) .

(ومن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) في الدنيا والآخرة ، فحصر الخسارة فيهم ، لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم ، ليس لهم نوع من الربح ، لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان ، فمن لا إيمان له لا عمل له ، وهذا الخسار هو خسار الكفر .

- وأصل الخسران : نقصان مال التاجر من ربح أو رأس مال ، وأكبر الخسارة غبن الإنسان بحظوظه من خالقه جل وعلا ، وقد أقسم الله أنه لا ينجو منه أحد إلا بشروط معينة منصوصة في كتاب الله فقال تعالى (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

- الإضلال بيد الله ، فمن أضله الله فلا هادي :

قال تعالى (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً) .

وفي الحديث القدسي (كلكم ضال إلا من هديته) .

ويقول الرسول ﷺ (والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) متفق عليه .

- **قال الشنقيطي** : وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَا يُضِلَّهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لَا يَضِلُّ، وَمَنْ أَضَلَّهُ لَا هَادِيَ لَهُ، وَلِذَا ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا .

- لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات :

الأول : إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار .

كما قال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .ومنه قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) .

ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) ، وهذا أغلب استعمال الضلال .

والثاني : هو إطلاق الضلال على الغيْبَة والاضمحلال .

ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي : غاب واضمحل ولم يبق له أثر .

ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي: اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها .

والثالث : إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء ، فكل مالم يهتد إلى علم شيء تقول العرب : ضل .

ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي : ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا .

وقوله (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ) أي : ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء ، لأنك تظن يوسف حياً ، ولا يريدون الضلال ، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبياً من الأنبياء .

ومنه قوله تعالى (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) أي : لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئاً .

الفوائد :

١- من يهدي الله فقد اهتدى .

٢- سؤال الله الهداية .

٣- أن القلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء .

٤- خسارة من ضل ولم يهتد . الثلاثاء/٢٨/١٠/١٤٣٧هـ

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)) .

[الأعراف : ١٧٩] .

(**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا**) أي: خلقنا وجعلنا .

(**لِجَهَنَّمَ**) اسم من أسماء النار ، سميت بذلك إما لبعد قعرها، من قولهم: بئر جهنام، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي.

(**كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ**) أي: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلائق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء .

- في الآية أن الجني الكافر يدخل النار ، وهذا بالإجماع .

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) .

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) .

- **واختلف العلماء في مؤمنهم على قولين :**

القول الأول : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار .

وهذا قول أبي حنيفة .

لقوله تعالى : (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

القول الثاني : أنهم يدخلون الجنة .

وهذا مذهب الجمهور .

لقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) والخطاب للإنس والجن .

ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ) .

ولقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل .

وهذا القول هو **الصحيح** .

(**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا**) يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية .

- **قال في الوسيط** : قوله تعالى (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا) أي: لهم أعين لا يبصرون بها ما في هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار، فهم كما قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو اعتبار، فكأن وجودها وعدمه سواء.

وقوله (وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها) أي: لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، أي: أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية.

كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

وقال تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

وقال (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

وقال (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) .

قوله تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) الأصم : هو الذي لا يسمع ، والأبكم : هو الذي لا ينطق ، والأعمى : هو الذي لا يبصر .

والمراد بالآية : صم عن استماع الحق ، وبكم عن النطق بالخير والإيمان فهم لا يتكلمون به ، وعمي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ، فلما كانوا غير منتفعين بسمعهم وأبصارهم وألسنتهم وأفئدتهم وصفوا بأنهم صم بكم عمي ، وهذا كما قال تعالى (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) ، وكما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) .

- قال بعض العلماء : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل .

(**أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ**) تسمع الأصوات ولا تفهم .

أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) أي: ومثلهم – في حال دعائهم إلى الإيمان –كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول.

(**بَلْ هُمْ أَضَلُّ**) أي: من الدواب .

لأن الأنعام تلك هي بنيتها وخلقتها لا تقصر في شيء ولا لها سبيل إلى غير ذلك ، وهؤلاء معدون للفهم وقد خلقت لهم قوى يصرفونها وأعطوا طرقاً في النظر فهم بغفلتهم وإعراضهم يلحقون أنفسهم بالأنعام فهم أضل على هذا . (ابن عطية) .

- وقيل : لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ما تبصره ، وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند ، فيُقدِم على النار .
- **قال في التفسير الوسيط** وقوله (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) تنقيص لهم عن رتبة الأنعام، أي: بل هم أسوأ حالاً من الأنعام، إذ أن الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التي تهديها أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي، والعقل المدرك، والعين المبصرة، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال، فإذا لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية.
- وقال الزجاج (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتسعى في تحصيل منافعها وتحترز عن مضارها ، وهؤلاء الكفار وأهل العناد أكثرهم يعلمون أنهم معاندون ومع ذلك فيصرون عليه ، ويلقون أنفسهم في النار وفي العذاب ، وقيل إنها تفر أبداً إلى أربابها ، ومن يقوم بمصالحها ، والكافر يهرب عن ربه وإلهه الذي أنعم عليه بنعم لا حد لها.

الفوائد :

١- إثبات جهنم .

٢- أن النار ستمتلئ من كفار الإنس والجن .

كما قال تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

٣- إثبات الجن ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) .

وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) .

وعن أبي سعيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : (إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون) . رواه البخاري

وقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار) . رواه مسلم

٤- أن الجن مكلفون ، ولذلك يعاقب عاصيهم ويثاب مطيعهم .

قال ابن رجب : والجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليس مماثلين للإنس في الجد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الجد ، لكنهم مشاركوا الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

ويقول تعالى يوم القيامة مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً مكبتاً : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ

آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) .

٥- أن أكثر الناس من أهل النار ، لأن الشر أكثر من الخير .

كما قال تعالى : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

٦- أن الجني الكافر يدخل النار .

٧- أن الجني المؤمن يدخل الجنة .

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٨٠)) .

[الأعراف : ١٨٠] .

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) له وحده الأسماء الكاملة في الحسن .

والحسنى تأنيث الأحسن ، والمعنى : لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها ، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها .

فأسماء الله كلها حسنى بالغة الحسن غايته ، فليس فيها نقص بوجه من الوجوه ولا بحال من الأحوال .

وقد ذكر سبحانه أن له الأسماء الحسنى في أربعة مواضع من القرآن الكريم :

قال تعالى : (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى : (قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) .

وقال تعالى : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى) .

وقال تعالى : (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى) .

مثال : (الحي) من أسماء الله متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال .

مثال : (العليم) اسم من أسماء الله تعالى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان .

والحسن في أسماء الله تعالى، يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك (العزيز الحكيم) فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً ، فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم، والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلماً وجوراً وسوء فعل ، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم، فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل.

- **هل أسماء الله محصورة ؟**

لا ، غير محصورة .

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ (ما قال عبد قط إذا أصابه هَمٌّ وحَزَنٌ: اللهمِ إني عبدُك وابنُ عبدك وابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدكِ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدْلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتِ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابك، أو عَلّمته أحداً من خَلْقك، أو استأثرت به في علم الغيبِ عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذَهَاب هَمّي، إلاَّ أذهب الله عز وجل هَمَّه، وأبدله مكان حُزْنه فَرَحاً"، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟، قال: "أجَلْ، ينبغى لمن

سمعهنَّ أن يتعلمهنّ) رواه أحمد .

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن لأحد حصره ولا الإحاطة به .

فقوله ﷺ (أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ) دليل على أن من أسماء الله تعالى الحسنى ما استأثر به في علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، وهذا يدل على أنها أكثر من تسعة وتسعين.

قال شيخ الإسلام عن هذا الحديث: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءً فَوْقَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ .

وقال أيضاً : قَالَ الخطابي وَغَيْرُهُ : فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَسْمَاءً اسْتَأْثَرَ بِهَا وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) أَنَّ فِي أَسْمَائِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : إنَّ لِي أَلْفَ دِرْهَمٍ أَعْدَدْتهَا لِلصَّدَقَةِ وَإِنْ كَانَ مَالُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . وَاَللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَالَ : (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مُطْلَقًا ، وَلَمْ يَقُلْ : لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى إلا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا .

وقال الشيخ ابن عثيمين : أسماء الله ليست محصورة بعدد معين ، والدليل على ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك . . إلى أن قال : أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك) .

وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به، وما ليس معلوماً ليس محصوراً.

- **فإن قيل : ما الجواب عن حديث الباب إن لله تسعة وتسعين اسماً ....) ؟**

قال العلماء : هذا لا يدل على الحصر بهذا العدد ، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة : إن أسماء الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة .

قال النووي : وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيث لَيْسَ فِيهِ حَصْر لِأَسْمَائِهِ سُبْحَانه وَتَعَالَى ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ : أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَسْمَاء غَيْر هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ ، وَإِنَّمَا مَقْصُود الْحَدِيث أَنَّ هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة ، فَالْمُرَاد الْإِخْبَار عَنْ دُخُول الْجَنَّة بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَار بِحَصْرِ الْأَسْمَاء ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الْآخَر : " أَسْأَلك بِكُلِّ اِسْم سَمَّيْت بِهِ نَفْسك أَوْ اِسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْم الْغَيْب عِنْدك " ،

وقال الشيخ ابن عثيمين : وأما قوله ﷺ (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة)

فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء ، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة ، فقوله (مَنْ أَحْصَاهَا) تكميل للجملة الأولى وليست استئنافية منفصلة ، ونظير هذا قول العرب : عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله . فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة ؛ بل هذه المائة معدة لهذا الشيء" اهـ.

- **ما معنى الإحصاء في قوله (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة) ؟**

اخْتَلَفُ العلماء فِي الْمُرَاد بِإِحْصَائِهَا على أقوال :

القول الأول : معناه حفظها .

قال النووي : فَقَالَ الْبُخَارِيّ وَغَيْره مِنْ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَاهُ: حَفِظَهَا ، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَر؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (مَنْ حَفِظَهَا) . (شرح مسلم) .

وقال في (الأذكار) وهو قول الأكثرين .

القول الثاني : أي : أَطَاقَهَا أَيْ : أَحْسَن الْمُرَاعَاة لَهَا ، وَالْمُحَافَظَة عَلَى مَا تَقْتَضِيه ، وَصَدَّقَ بِمَعَانِيهَا .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : الْعَمَل بِهَا وَالطَّاعَة بِكُلِّ اِسْمهَا ، وَالْإِيمَان بِهَا لَا يَقْتَضِي عَمَلًا .

قال الشيخ ابن عثيمين : معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة ، ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط ، ولكن معنى ذلك :

أولاً : الإحاطة بها لفظا .

ثانياً : فهمها معنى .

ثالثاً : التعبد لله بمقتضاها ، ولذلك وجهان :

الوجه الأول : أن تدعو الله بها ؛ لقوله تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك ، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك ، فعند سؤال المغفرة تقول : يا غفور ، وليس من المناسب أن تقول : يا شديد العقاب اغفر لي ، بل هذا يشبه الاستهزاء ، بل تقول : أجرني من عقابك .

الوجه الثاني : أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء ؛ فمقتضى الرحيم الرحمة ، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبا لرحمة الله ، ومقتضى الغفور المغفرة ، إذا افعل ما يكون سببا في مغفرة ذنوبك ، هذا هو معنى إحصائها .

- أسماء الله توقيفية ، لا يجوز أن نسمي الله إلا بما سمى به نفسه أو سمى به رسوله ﷺ .

لقوله تعالى : (وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه هذا من القول عليه بلا علم .

ولقوله ﷺ : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه من قفو ما ليس لنا به علم .

ولقوله ﷺ : (وَلِلهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) والحسنى البالغة في الحسن كماله ، وأنت إذا سميت الله باسم ، فليس عندك أنه بلغ كمال الحسن ، بل قد تسميه باسم تظن أنه حسن ، وهو سيء ليس بحسن .

- أسماء الله مشتقة ، أي أن كل اسم يتضمن الصفة التي اشتق منها ، ولولا ذلك لم تكن حسنى .

الخلاق : يضمن صفة الخلق .

العليم : يتضمن صفة العلم .

السميع : يتضمن صفة السمع .

(**فَادْعُوهُ بِهَا**) أي : فادعوه بتلك الأسماء ، كأن تقول : يا رحمن ارحمنا ، يا رزاق ارزقني .

(**وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) (ذرواْ) معناه اتركوا: وصيغة الأمر هنا للتهديد على التحقيق، وقد تقرر في فن الأصول في مباحث الأمر، وفي فن المعاني: أنَّ من الصيغ التي تأتي لها (افْعَل) أنها تأتي للتهديد والتحقيق أن الصورة هنا للتهديد، وهو قوله (وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ) بدليل قوله (سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) .

- الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها ، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم. وإنما كان ذلك إلحادا لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه، وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بطلانه، فجعلها دالة عليه ميل بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمى الله تعالى بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له: (الأب)، وتسمية الفلاسفة إياه (العلة الفاعلة)، وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه ميل بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سموه بها نفسها باطلة، ينزه الله تعالى عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين، فسموا بها أصنامهم، وذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به، لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا).

- والإلحاد بجميع أنواعه محرم، لأن الله تعالى هَدَّدَ الملحدين بقوله (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). ومنه ما يكون شركا أو كفرًا حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية.

الفوائد :

١- إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى .

٢- أن أسماء الله كلها حسنى ، بالغة في الحسن كماله .

٣-لا يجوز تسمية الله باسم لم يسم الله به أو رسوله .

٤-مشروعية دعاء الله بأسمائه الحسنى .

٥- تحريم الإلحاد في أسماء الله .

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)) .

[الأعراف : ١٨١] .

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ) أي : يعملون به ،

(وَبِهِ يَعْدِلُونَ) أي : وبالعمل به يعدلون.

- **قال السعدي** : (وَبِهِ يَعْدِلُونَ) بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال الرازي : اعلم أنه تعالى ذكر في قصة موسى قوله (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ) فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام ههنا حمله أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم مُحَمَّد ﷺ .

- **قال ابن عطية** : هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية ، وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ، قال النحاس : فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

قال القاضي ابو مُحَمَّد : سواء بعد صوته أو كان خاملاً ، وروي عن كثير من المفسرين أنها في أمة مُحَمَّد ﷺ ، وروي في ذلك حديث رسول الله ﷺ قال : هذه الآية لكم ، وقد تقدم مثلها لقوم موسى .

- **قال القرطبي** : دلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخْلِي الدنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحق.

الفوائد :

١- وجود طائفة من أهل الخير في كل زمان ومكان .

٢-كما أن هناك كثيراً من أهل الشر فهناك من أهل الخير .

٣-حكمة الله تعالى في وجود الخير والشر .

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)**)
[الأعراف : ١٨٢- ١٨٣] .

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**) من أهل مكة وغيرهم .

- والآية في القرآن تطلق إطلاقين: تطلق الآية على الآية الكونية القدريّة، وهي من الآية بمعنى: العلامة، وهي ما نصبه الله (جل وعلا) من آياته جاعلاً لها علامات على كمال قدرته، وأنّه الربُّ وحده، المعبود وحده، كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ ...) أي: لعلامات ودلالات واضحات على أنه الرب المستحق أنْ يُعبد وحده.

الإطلاق الثاني: تطلق الآية في القرآن على الآية الشرعية الدينيّة، كآيات هذا القرآن العظيم، وهو المراد هنا.

والآية الشرعية الدينية قال بعض العلماء: هي من العلامة أيضًا؛ لأنها علامة على صدق من جاء بها، لما تضمّنته من الإعجاز، أو لأن فيها علامات تعرف بها مبادئها ومقاطعها.

(**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**) أي : سنأخذهم قليلا ، قليلا ، ونقربهم من الهلاك من حيث لا يشعرون ، قال البيضاوي : وذلك بأن تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم ، فيزدادوا بطرا وانهماكا في الغى ، حتى تحق عليهم كلمة العذاب .

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

قوله تعالى (مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) أي: من المكان الذي لا يعلمون أنّا سنستدرجهم، بل هم يظنون أن تلك النعم مسابقة لهم في الخيرات، وأنهم ينالون بعد ذلك أحسن منه، كما قال جل وعلا (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَ يَشْعُرُونَ) .

(**وَأُمْلِي لَهُمْ**) أي : وأمهلهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما في الحديث الشريف " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " .

- **قال السعدي** : (وَأُمْلِي لَهُمْ) أي: أُمْهِلُهُم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرا وطغيانا، وشرا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) أي: قوي بليغ.

(**إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**) أي : أخذي وعقابي قوي شديد ، وإنما سماه "كيدا " لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان .

- **قال الشنقيطي** : الكيد: في لغة العرب معناه: المكر، وهو أن يكون الفاعل يبطن غير ما يظهر، وسمى الله هذا الاستدراج كيدًا لأن ظاهره إنعام وإغداق نعم وباطنه استدراج يستدنيهم به ويستدرجهم إلى الموت والعذاب الدائم الذي يخلدون فيه .

وقال الشنقيطي رحمه الله : بيّن الله (جل وعلا) في هذه الآية أنّه يستدرج الكافرين فيغدق عليهم نعمه وهم يصرون على الكفر به، حتى تبطرهم النعم وتتزايد غفلتهم، فيستمروا على ذلك حتى تنتهي آجالهم فيأخذهم الله (جل وعلا) في غفلتهم بعذابه وإهلاكه ثم يصيرون إلى النار.

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ**) أي : فلما تركوا وأعرضوا عما جاءهم من التذكير وجعلوه وراء ظهورهم .

فالنسيان هنا الترك، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به ، إذ ليس هو من فعلهم (**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**) أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق والرخاء والأنعام ومن كل ما يختارون ، استدراجاً منه تعالى وإملاء لهم ، عياذاً بالله من مكره ، ولهذا قال (**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا**) فرح بطر ومرح ، وهذا الفرح المذموم كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) وهو الفرح على المعصية (**بِمَا أُوتُوا**) أي : بما أعطوا من الأموال والأولاد والأرزاق (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي استأصلناهم وسطونا بهم.

(**أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً**) أي : فجأة ، أهلكناهم من غير مقدمات .

♦ وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم .

(**فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**) آيسون من كل خير .

عن عقبة بن عامر . عن النبي ﷺ قال (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) .

قال الحسن : مكَر بالقوم ورب الكعبة ، أعطُوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال الحسن : من وسّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له .

الفوائد :

١- تحريم التكذيب بآيات الله .

٢- تهديد المكذبين بآيات الله .

٣- أن الله عز وجل يستدرج المكذبين وينعم عليهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

٤-شدة عقوبة الله .

٥- أن الله يمهل ولا يهمل .

٦- شدة كيد الله ومكره بأعدائه .

(**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)**) .

[الأعراف : ١٨٤] .

(**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا**) هؤلاء المكذبون بآياتنا .

● التفكر: هو أنْ يُعمل الإنسان فكره حتى يدرك حقيقة الشيء.

(**مَا بِصَاحِبِهِمْ**) يعني محمدًا -صلوات الله وسلامه عليه .

(**مِنْ جِنَّةٍ**) أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقًا دعا إلى حق .

● **قال السعدي** : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ) أي: أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودله وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا

لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟ أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرءوف الرحيم؟

كما قال تعالى (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياما خالصا لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، (مَثْنَى وَفُرَادَى) أي: مجتمعين ومتفرقين، (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول الله حقًا وصدقًا.

(**إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ**) أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به .

- **قال البقاعي** : قوله تعالى (إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي: موضح للطريق إيضاحاً لا يصل إلى غيره ، ومن أدلة ذلك عجز الخلق عن معارضة شيء مما يأتي به من أنه أحسن الناس خَلقاً وأعلاهم خُلقاً وأفضلهم عشرة وأرضاهم طريقة وأعدلهم سيرة وأطهرهم سريرة وأشرفهم عملاً وأحكمهم علماً وأرصنهم رأياً وأعظمهم عقلاً وأشدهم أمانة وأظهرهم نبلاً.

الفوائد :

١- تزكية الله لنبيه ﷺ .

٢- أن كل من تأمل وتفكر علم أن الرسول ﷺ من أكمل الناس أخلاقاً وهدياً .

٣- أن أعداء الدعاو يتهمونهم بالجنون .

٤- سنة الله في أعداء الرسل يلصقون بهم كل عيب (أتواصوا به بل هم قوم طاغون) .

٥- أن الرسول ﷺ منذر موضح للحق مقيم للحجة .

(**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)**) .

[الأعراف : ١٨٥- ١٨٦] .

(**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ**) نظر تأمل وتدبر وتعقل .

- **قال ابن عطية** : هذا أيضاً توبيخ للكفار وتقرير ، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكراً ، و(ملكوت) بناء عظمة ومبالغة

(**فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض الذي يدل على عظمة الله وكمال القدرة ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ترق في الإنكار والتعجيب من حالهم في إعراضهم عن النظر في حال رسولهم . إلى الإنكار والتعجيب من إعراضهم عن النظر فيما هو أوضح من ذلك وأعم ، وهو ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء مما هو آيات من آيات وحدانية الله تعالى التي دعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان بها.

والملكوت الملك العظيم .

(**وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ**) معطوف على ما قبله ؛ أي وفيما خلق الله من الأشياء.

قال القرطبي : استدل بهذه الآية وما كان مثلها من قوله تعالى (قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض) وقولِهِ تعالى (أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) وقولهِ (أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ) الآية وقولهِ (وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) من قال بوجوب النظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته.

قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال (لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا) الآية.

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (وما خلق الله من شيء) ولم يقتصر على ذكر النظر في الملكوت بل نبه على أنّ كل فرد من الموجودات محل للنظر والاعتبار والاستدلال على الصانع الحكيم ووحدانيته كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية . . .تدلّ على أنه الواحد

(**وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ**) يعني : وينظروا في أن عسى (أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ) يعني : قد دنا هلاكهم

- **قال الخازن** : قوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار وإذا كان الأمر كذلك وجب على العاقل المبادرة إلى التفكر والاعتبار والنظر المؤدي إلى الفوز بالنعيم المقيم .
- **وقال ابن عاشور** : ومعنى النظر في توقع اقتراب الأجل ، التخوفُ من ذلك .

(**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**) الضمير يرجع إلى ما تقدّم من التفكر والنظر في الأمور المذكورة ، أي فبأيّ حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره ؛ وقيل الضمير للقرآن، وقيل لمحمد ﷺ ، وقيل للأجل المذكور قبله.

(**مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ**) يقول تعالى: من كُتِب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) قال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

(**وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**) أي : يتركهم في ضلالتهم يترددون.

الفوائد :

١- الحث على النظر والتأمل والتفكر في خلق الله تعالى .

٢- أن كل شيء في الكون يدل على أن الله هو الواحد المستحق للعبادة .

٣- فضل التفكر في خلق السماوات والأرض .

٤- على الإنسان أن يتفكر ويتأمل ويحرص على ما ينفعه قبل دنو أجله .

٥- عظمة هذا القرآن .

٦- أن من لم يؤمن بهذا القرآن الواضح ، المعجز ، فبماذا يؤمن ؟

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)) .

[الأعراف : ١٨٧] .

(**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ**) كما قال تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول

أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها؛ كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ، وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) .

(**أَيَّانَ مُرْسَاهَا**) أي : متى زمانها .

(**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ**) أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرُدَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، [أي] (لا يعلم ذلك أحد إلا هو تعالى؛

(**ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) قال قتادة (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) قال: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون.

(**لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**) أي : فجأة .

(**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**) كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها على خلقه .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علام الغيوب .

(**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت ! قال الإمام الفخر : والحكمة في اخفاء الساعة عن العباد ، أنهم إذا لم يعلموا متى تكون ، كانوا على حذر منها ، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية .

- **مباحث الساعة :**

أولاً : سميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة ، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

ثانياً : والساعة تطلق على ثلاثة معان :

الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة .

والساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال : إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم . أي : موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين .

والساعة الكبرى : وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء .

ثالثاً : وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

رابعاً : لا يعلم متى قيام الساعة إلا الله .

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) أي لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام القيامة إلا الله سبحانه .

وقال تعال (إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة) .

وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا) .

وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) .

ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ وقال : متى الساعة فقال عليه السلام : " ليس المسؤول عنها بأعلم من السائل .

خامساً : لكن هي قريبة :

قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

سادساً : السبب في إخفائها :

قال المحققون : والسبب في إخفاء الساعة عن العباد ؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون ، كانوا على حذر منها ، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية .

سابعاً : أن للساعة علامات تدل على قربها .

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين :

أشراط صغرى .

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة ، وتكون من نوع المعتاد ، كقبض العلم ، وظهور الجهل ، وشرب الخمر ، والتطاول في البنيان .

أشراط كبرى .

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة ، وتكون غير معتادة الوقوع ، كظهور الدجال ، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها .

الفوائد :

١- أن علم الساعة لا يعلمه إلا الله تعالى .

٢- إثبات الساعة .

٣- أن أي حديث يدل على تحديد موعد الساعة لا يصح .

٤- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)) .

[الأعراف : ١٨٨] .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) .

- **قال ابن الجوزي** : وفي المراد بالنفع والضر قولان.

أحدهما : أنه عامّ في جميع ما ينفع ويضر ، قاله الجمهور.

والثاني : أن النفع : الهدى ، والضَّر : الضلالة ، قاله ابن جريج.

- **قال ابن عاشور** : وخص هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول عليه الصلاة والسلام نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهمَ ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة ، إعلاناً للمشركين بالتزام أنه لا يَعلم الغيب ، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوته حتى يستيْئسوا من تحديه بذلك ، وإعلاماً للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوة وما لا تقتضيه ، ولذلك نفى عن نفسه

معرفة أحواله المغيّبة ، فضلاً على معرفة المغيبات من أحوال غيره إلاّ ما شاء الله.

(**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**) اختلفوا في المراد من هذا الخير.

- **قال القرطبي** : المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرِّفنِيه لفعلته.

وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب.

وقال ابن عباس : لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها في زمن الخصب ما يكفِيني.

وقيل : المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لاشتريتها وقت كسادها.

وقيل : المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ؛ عن الحسن وابن جُريج.

وقيل : المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجَبْتُ عن كل ما أُسألُ عنه.

وكله مراد ، والله أعلم.

- **قال ابن كثير** : قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملا صالحاً ، وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دَيمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملا أثبته ، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.
- **قال ابن عطية** : ... وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي ولأستعد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له ، وهذا لفظ عام في كل شيء ، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج ومجاهد : " لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح ". وقالت فرقة : أوقات النصر لتوخيتها ، وحكى مكي عن ابن عباس أن معنى لو كنت أعلم السنة المجدبة لأعددت لها من المخصبة.

قال القاضي أبو مُحَمَّد : وألفاظ الآية تعم هذا وغيره ، وقوله (وما مسني) يحتمل وجهين وبكليهما قيل ، أحدهما أن (ما) معطوفة على قوله : (لاستكثرت) أي ولما مسني السوء ، والثاني أن يكون الكلام مقطوعاً تم في قوله (لاستكثرت من الخير) وابتدأ يخبر بنفي السوء عنه وهو الجنون الذي رموه به .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وما مسنِيَ السوء) فيه أربعة اقوال:

أحدها : أنه الفقر ، قاله ابن عباس.

والثاني : أنه كل ما يسوء ، قاله ابن زيد.

والثالث : الجنون ، قاله الحسن.

والرابع : التكذيب ، قاله الزجاج.

فعلى قول الحسن ، يكون هذا الكلام مبتدأ ، والمعنى : وما بي من جنون إنما أنا نذير ، وعلى باقي الأقوال يكون متعلقاً بما قبله.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَمَا مَسَّنِيَ السوء) هذا استئناف كلام ، أي ليس بي جنون ؛ لأنهم نسبوه إلى الجنون.

وقيل : هو متصل ، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّني سوءٌ ولحذِرت .

(**إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) هذا مهمة الرسل ، يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب .

- والتبشير : الإخبار بما يسر ، والإنذار : الإعلام المقرون بالتخويف .

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

- **قال ابن عاشور** : وإنما قدم وصف النذير على وصف البشير ، هنا : لأن المقام خطاب المكذبين المشركين ، فالنذارة أعلق بهم من البشارة.

الفوائد :

١- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب .

٢- أنه لا يملك النفع والضر إلا الله .

٣- أن وظيفة الرسل التبشير والإنذار .

٤- أن الهداية بيد الله .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠))

[الأعراف : ١٨٩ – ١٩٠] .

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**) وهي آدم عليه السلام .

(**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**) وهي حواء .

(**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**) أي: إلى تلك الزوج التي خُلقت منه وهي حواء؛ لأن الرجل يسكن إلى امرأته ويطمئن إليها، وهذا السكون والطمأنينة والألفة التي كانت من الرجل الأول للمرأة الأولى جعله الله سُنة كونية قدرية في ذريتهما كما يأتي في سورة الروم في قوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

(**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**) أي : جامعها .

(**حَمَلَتْ**) من ذلك الجماع .

(**حَمْلًا خَفِيفًا**) إنما وصف الحمل بأنه خفيف لأن المرأة في أول حَبَلها ما دام حَبَلها نطفة فَعَلَقَة فمضغة يكون خفيفًا كأنها ليس في بطنها شيء، تذهب وتجيء ولا تجد ثقلاً له إلى حوالي خمسة أشهر، فبعد ستة أشهر يعظم الجنين في بطنها وتُثقل، وتكون الحركة ثقيلة عليها لعظم الجنين في بطنها؛ ولذا قال (حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا) .

(**فَمَرَّتْ بِهِ**) المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى: تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

(**فَلَمَّا أَثْقَلَتْ**) أي : صارت ذات ثقل بحملها

(**دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا**) مخلصين لله تعالى .

(**لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا**) أي : صالح الخلقة ، تام الخلقة ليس بناقص .

وقيل : أنهما أرادا غلاماً ، وقيل : خشيا أن يكون المولود بهيمة

(**لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) على هذه النعمة .

(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا) في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف وجهان معروفان من التفسير للعلماء:

أحدهما : جاءت به أحاديث وآثار، والتحقيق أنها لا يثبت شيء من تلك الأحاديث والآثار، وإن صحح بعض العلماء بعضها. والثاني دلّ عليه القرآن، وما دلّ عليه القرآن أرجح من غيره.

القول الأول : أن قوله (فلما آتاهما) الضمير يعود على الجنس ، أي الذكر والأنثى ، وهذا ما اختاره ابن القيم وابن كثير . ويكون معنى الآية :

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق الناس من أصل واحد وشخص واحد، وأنه خلق منه زوجه ليسكن إليها، ويطمئن إلى عشرتها، وأنه خلق فيهما حب الجماع وأباحه لهما ، وذلك ليكمل لهما الاستقرار ، ويستمر نسلهما ، فلما حملت وحان وقت الولادة ، سألا ربهما أن يرزقهما بشراً سوياً ، لتقر به أعينهما ، وتزيل وحشتهما ، فلما استجاب الله دعوتهما وأعطاهما ما سألا ، سمياه عبد الحارث ، فأشركوا مع الله غيره ، فتعالى الله عما يشركون .

القول الثاني : أن الضمير في قوله (آتاهما) عائد على آدم وحواء . ويكون معنى الآية :

يخبر تعالى عن مبدأ الجنس الإنساني ، وما فيه لله من عجائب القدرة ، فأوجد هذا الجنس على كثرته واختلاف أنواعه من نفس واحدة ، وهو آدم عليه السلام ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها . أي وطئها . وحملت حملاً خفيفاً وذلك الحمل لا تجد المرأة له ألماً (فمرت به)أي تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء (فلما أثقلت) أي صارت ذات ثقل بحملها ، (دعوا الله ربهما) أي آدم وحواء عليهما السلام دعوا الله (لئن آتيتنا صالحاً) بشراً سوياً (لنكونن من الشاكرين) أي لنشكرك على ذلك (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء) أي لله شركاء فيما آتاهما ، أي لم يقوما بشكر ذلك على الوجه المرضي كما وعدا بذلك ، أي جعلا لي فيه شركاء فيما أعطيتهما من الولد الصالح والبشر السوي ، بأن سمياه عبد الحارث ، فإن من تمام الشكر أن لا يعبّد الاسم إلا لله .

وقد جاء : أن إبليس –لعنه الله– لما عظُم الجنين في بطن حواء جاءها وقال لها: إنه إذا خرج قد يشق بطنك، وقد يكون بهيمة، فهل أدلك على شيء إن فعلته خرج منك بسلام، وخرج بشرًا سويًّا؟ وهو أن تسميه عبد الحارث. ويزعمون أن الحارث من أسماء الشيطان، وأنها سمته عبد الحارث، وأنها جعلت لله شركًا حيث نسبت ذلك الولد الصالح الذي أعطاها الله نسبت عبوديته للشيطان، هذا المعنى جاء عن بعض الصحابة ، وجاء في بعض الأحاديث المرفوعة، وصحح الحاكم بعضها وغيره .

ورجح هذا القول . أن القصة في آدم وحواء ، كثير من السلف .

وقالوا : هذا إشراك طاعة لا إشراك عبادة ، لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث ، لا أنهما عبداه .

وقد ضعف هذا القول جماعة من العلماء منهم ابن كثير ورجح القول الأول .

قال الشنقيطي : والدليل على أنه أطلق آدم وحواء وأراد ذريتهما من القرآن أنه قال بعده (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ثم قال (أَيُشْرِكُونَ) بصيغة الجمع (مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) ثم ذكر علامات الأصنام التي يُشرك بها أولادهم كما هو واضح.

جاء عن الحسن –رحمه الله– قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" وقال : أما نحن؛ فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته .

قال ابن عثيمين : وهذه القصة باطلة من وجوه :

الوجه الأول : أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن

هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثاني : أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها، كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه، وتابا من ذلك.

الوجه الثالث : أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع : أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس : أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: "أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة"، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: "أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة"، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفا ولا عدلا.

الوجه السادس : أن في قوله في هذه القصة: "لأجعلن له قرني أيل": إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا؛ فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع : قوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُون) بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك، مبرءون منه باتفاق أهل العلم ، وعلى هذا؛ فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً ، فإن منهم مشركاً ، ومنهم موحداً .

الفوائد :

١- أن تعبيد الأسماء لغير الله شرك في الطاعة .

٢-قال الشيخ ابن عثيمين : إن معاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها؛ ففي سورة التوبة قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) ، وفي هذه الآية قال تعالى (لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ) فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله عز وجل، ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل) .

٣- في قوله (فلما آتاهما) نقد لاذع؛ أن يجعلا في هذا الولد شريكاً مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

٤- أن هبة الله للإنسان مولوداً سليماً نعمة الله تستحق الشكر .

(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ (١٩٨)) .

[الأعراف : ١٩١ – ١٩٨] .

(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي : أيعبدون ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً ؟ وهم يخلقون ، أي وهم مخلوقون يعني الأصنام.

- **قال الشوكاني** : وَالِاسْتِفْهَامُ فِي(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً) لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيْ: كَيْفَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شَرِيكًا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ لَهُمْ وَلَا دَفْعٍ عَنْهُمْ (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ مِنَ الْأَصْنَامِ أَوِ الشَّيَاطِينِ مَخْلُوقُونَ، وَجَمْعُهُمْ جَمْعَ الْعُقَلَاءِ لِاعْتِقَادِ مَنْ جَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ أَنَّهُمْ كَذَلِكَ .
- **قال ابن كثير** : هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) ، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو أستَلبتهم الذبابة شيئاً من حَقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى (لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .
- **قال الشنقيطي** : وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز مِنَ العَدَمِ إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدمًا هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقَه .

قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) .

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين :

الأولى : الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة .

والثانية : الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات .

- قال بعض العلماء : إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) .

وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم .

(**وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا**) أي: لعابديهم .

(**وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ**) يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ) أَيْ: لِمَنْ جَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ نَصْراً إِنْ طَلَبَهُ مِنْهُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ إِنْ حَصَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ جِهَةِ غَيْرِهِمْ، وَمَنْ عَجَزَ عَنْ نَصْرِ نَفْسِهِ فَهُوَ عَنْ نَصْرِ غَيْرِهِ أَعْجَزُ.
- **قال الرازي** : يريد أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ولا تنتصر ممن عصاها ، **والنصر** : المعونة على العدو ، والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك.

فكيف يليق بالعاقل عبادتها ؟ ثم قال (وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) أي : ولا يدفعون عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه .

- **قال القاسمي** : قوله تعالى (وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ) أي : لعبدتهم إذا حزبهم أمر (نَصْراً) أي : بجلب نفع ، أو دفع ضر (وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى (وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) .
- **قال ابن كثير** : كما كان الخليل عليه السلام يكسر أصنام قومه ويهينُها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وقال تعالى (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهما –وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة –فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتئوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح –وكان سيدًا في قومه –كان له صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا، ويقول له (انتصر) ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضا، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلَّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَاللهِ لو كُنتَ إِلَها مُسْتَدن ... لم تَكُ والكَلْبُ جَمِيعًا في قَرَنْ .

ثم أسلم فَحسُن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا رضي الله عنه وجعل جنة الفردوس مأواه.

- **وقال ابن عاشور** : والمعنى : أن الأصنام لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنصرهم ولا ينصرون أنفسهم إن رام أحد الاعتداء عليها.

والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم ، إذ كان النصر أشد مرغوب لهم ، لأن العرب كانوا أهل غارات وقتال وتراث ، فالانتصار من أهم الأمور لديهم قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهةً لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا

لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم) ، قال أبو سفيان يوم أُحد "أعْلُ هبل" وقال أيضاً (لنا العُزى ولا عُزى لكم) وأن الله أعلم المسلمين بذلك تعريضاً بالبشارة بأن المشركين سيُغلبون قال (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) وأنهم سيمحقون الأصنام ولا يستطيع أحد الذب عنها.

(**وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ**) يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (وَإِن تَدْعُوهُمْ) أي: تدعوا هؤلاء المعبودين الأوثان التي تعبدونها من دون الله التي لا تخلق شيئًا وهي تُخلق (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى) معناها: تدعوهم إلى طريق الهدى (لاَ يَتَّبِعُوكُمْ) لأنهم جماد. ومن إذا دُعي إلى الهدى لا يتبع كيف يُطلب منه الهدى؟ (أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وهؤلاء إن هُدوا لا يهتدون!!
- **قال الخازن** : ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى) يعني وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى (لا يتبعوكم) لأن الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية (سواء عليكم أدعوتموهم) إلى الدين والهداية (أم أنتم صامتون) أي : ساكتون عن دعائهم فهم في كلا الحالين لا يؤمنون.

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى لما بيّن في الآية المتقدمة عجز الأصنام بيّن في هذه الآية أنه لا علم لها بشيء البتة ؛ والمعنى أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا لأصنامهم فإذا لم تكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتكم عنها فإنها عاجزة في كل حال.

- **قال الشوكاني** : وَجُمْلَةُ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ مُقَرِّرَةٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا، أَيْ: دُعَاؤُكُمْ لَهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ، وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُجِيبُون .

(**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ**) (تَدْعُونَ) لها معنيان ، المعنى الأول يعني أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم ، والمعنى الثاني هو أن يقال : " تدعونه " أي تطلب منه شيئاً . والمعنيان يجيئان في هذه الآية (إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم) .

(**مِن دُونِ اللَّهِ**) من الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله .

(**عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ**) إنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبّر عنها بضمائر العقلاء؛ لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرّبُ إلى اللهِ زُلْفَى، فبهذا الاعتبار أجرى عليها ضمائر العقلاء، وعبّر عنها بالعباد. ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعًا ولا أن تدفع عنها ضرًّا. فهم من قبيل تَسْخِيرِ الله لهم، وخلقه للجميع، وقدرته على الجميع، بهذا الاعتبار هم سواء؛ ولذا قال: (عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) بهذا الاعتبار، وفي الآية التي بعدها سيبيّن انحطاط درجة المعبودين عن العابدين،

- وقَوْلُهُ : (عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) قِيلَ : إنَّمَا سَمَّاهَا عِبَادًا لِأَنَّهَا مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا أَنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ حُكْمِ الْعِبَادِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ : (إنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ هَذِهِ الْأَوْثَانَ مَخْلُوقَةٌ أَمْثَالُكُمْ) .

(**فَادْعُوهُمْ**) أي : ادعوا هذه الأصنام واطلبوا منها النفع، أو ادعوها إلى الهدى .

(**فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) أنها معبودات من دون الله، وأنها تنفع وتقرب إلى الله زُلفى وتشفع .

كما قال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) وكقوله تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين) .

- ثم بيّن انحطاط درجة المعبودات عن درجة العابدين، وكأنه يقول لهم: بلغت عقولكم من السخافة حتى عبدتم من أنتم خير منه وأكمل!! ومعبود يكون عابده أكمل منه فهذا لا ينبغي لأحد أن يعبده .

(**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**) وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ وَمَا بَعْدَهُ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي هِيَ ثَابِتَةٌ لَكُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى مَا تَطْلُبُونَهُ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْكِفُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا لَيْسَتْ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها فِي نَفْعِ أَنْفُسِهِمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَمْشُوا فِي نَفْعِكُمْ وَلَيْسَ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها كَمَا يَبْطِشُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها كَمَا تُبْصِرُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها كَمَا تَسْمَعُونَ، فَكَيْفَ تَدْعُونَ مَنْ هُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مَنْ سَلْبِ الْأَدَوَاتِ، وَبِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الْعَجْزِ .

- **قال في التفسير الوسيط** : الاستفهام للإنكار، والمعنى: أن هذه الأصنام التي تزعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى هي أقل منكم مستوى لفقدها الحواس التي هي مناط الكسب إنها ليس لها أرجل تسعى بها إلى دفع ضر أو جلب نفع وليس لها أيد تبطش بها؛ أي تأخذ بها ما تريد أخذه، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم، وتعرف بواسطتها مطالبكم، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله تعالى من حواس السمع والبصر وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضول، وكيف ينقاد الأقوى للأضعف؟.

(**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا**) يعني الأصنام ، يعني أرجل يمشون بها في مصالحكم ، (أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا) يعني في الدفع عنكم.

(**أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا**) يعني مضاركم من منافعكم ، (أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) دعاءَكم وتضرعكم.

- **وقال ابن الجوزي** : وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين ، وتوبيخ لهم حيث عبدوا مَنْ هم أفضل منه.
- **قال ابن عطية** : الغرض من هذه الآية ، ألهم حواس الحي وأوصافه؟ فإذا قالوا لا ، حكموا بأنها جمادات فجاءت هذه التفصيلات لذلك المجمل الذي أريد التقرير عليه فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى ولم تبق بها استرابة ، قال الزهراوي : المعنى أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟
- **وقال القرطبي** : ثم وَبّخهم الله تعالى وسَفّه عقولهم فقال (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) أي أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم ، والغرض بيان جهلهم ؛ لأنّ المعبود يتصف بالجوارح.
- وبعد أن قال الحق عن الأصنام : إنهم عباد أمثالكم ، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر فقال : (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ..) وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك ، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشي بها ، ولك يد قد تبطش بها ، ولك أذن تسمع ، ولك عين تبصر ، فهل للأصنام حواس مثل هذه؟ . لا ، ليست لهم ، إذن ، فالأصنام أقل منك ، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر؟ إن هذا هو جوهر الخيبة .

(**قُلِ**) لهم يا مُحَمَّد .

(**ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ**) وتعاونوا معهم وكل من قدرتم عليه .

(**ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ**) يعني: امكروا بي وافعلوا بي ما تستطيعون من الكيد والمكر ثم لا تُنْظِرُون: لا تمهلون .

- **قال الشنقيطي** : أجرى الله العادة أنه إذا أرسل الأنبياء وعابوا الأصنام وقالوا: إنها لا تنفع ولا تضر، وأن عبادتها كفر بالله مُخلّد في النار، أن أصحاب الأصنام الذين يعبدونها يقولون للرسل: ستضركم هذه الآلهة، ستخبلكم وتخرب عقولكم، ويأتيكم منها الضر؛ لأنكم عبتموها!! والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) لا يخافون هذا؛ لأن الخوف من الأصنام كفر بالله وعدم توكل عليه، فقد خوفوا النبي ﷺ بأن أصنامهم تضره؛ لأنه عابها، كما سيأتي إيضاحه في الزمر في قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) وقد خوفوا بها نبي الله إبراهيم كما قال الله عنه أنه قال (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ) وقد قالوا لنبي الله هود: إن آلهتهم اعترته بسوء فَخَبَّلَتْه وجننته، فزعموا أنه مجنون، وأن الذي أضر عقله آلهتهم، كما في قولهم لهود (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ) هذا الذي قال لهم نبي الله هود هو الذي قال لهم نبينا مُحَمَّد ﷺ .

(**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ**) سبحانه وتعالى ، فهو الذي تولاني وينصرني ويؤيدني .

- الرسول يوالي ربه بالطاعات، والله يوالي نبيه بالإعانة والنصر والثواب الجزيل، والرسول ولي المؤمنين، والمؤمنون أولياؤه (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) والله ولي المؤمنين، والرسول ولي المؤمنين (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) والمؤمنون المتقون أولياء الله (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) .

(**الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ**) هو هذا القرآن العظيم. وقال بعض العلماء: المراد جنس الكتاب. فالمعنى: أنه نزل جميع الكتب المنزلة، فيها هذا الكتاب الذي هو الأخير منها، الذي جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين .

(**وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**) أَيْ: يَحْفَظُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، وَيَحُولُ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِم .

(**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**) كَرَّرَ سُبْحَانَهُ هَذَا لِمَزِيدِ التَّأْكِيدِ وَالتَّقْرِيرِ، وَلِمَا فِي تَكْرَارِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ من الإهانة للمشركين والتنقيص بِهِمْ، وَإِظْهَارِ سَخْفِ عُقُولِهِمْ، وَرَكَاكَةِ أَحْلَامِهِم .

(**وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ**) تقدم شرحها .

(**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**) في هذه الآية الكريمة أوجه معروفة من التفسير :

قال بعض العلماء: الضمير في (وَتَرَاهُمْ) عائد إلى الكفار الذين يعبدون الأصنام. يعني: تراهم ينظرون إليك وتظن أن عيونهم مبصرة وهم لا يبصرون شيئًا؛ لأنهم عمي؛ إذ لو كانوا يبصرون شيئًا لما عبدوا حجارة لا تنفع ولا تضر!!

وقال بعض العلماء: الضمير في قوله: (وَتَرَاهُمْ) عائد إلى الأصنام.

أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لان لهم صور الاعين وهم لا يرون شيئاً .

الفوائد :

١- بطلان الشرك من أساسه ، لأنه تعلق على مخلوق عاجز .

٢-بيان جهل المشركين .

٣-إثبات عجز المعبودين غير الله وعدم صلاحيتهم للعبادة بالدليل العقلي .

٤-أن الخالق هو المستحق للعبادة .

٥-أن الأصنام لا تملك لعبّادها نفعاً ولا ضراً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

٦-بيان الشروط التي يجب توافرها في المدعو المستَغَاث به ، وهي :
ملكه لما طلب منه – سماعه لدعاء من دعاه –القدرة على إجابته .
قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرون) .
قال الشيخ بن باز رحمه الله: هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف:
الأولى : عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة .
الثانية : أنهم غافلون عن دعائهم ، إما لأنهم أموات ، أو جماد لا إحساس لهم ، أو حي مشغول ، أو ملك لا علم له بمن دعاه
الثالثة : أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة .
الرابعة : أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها) . أ . هـ
٧-أن طلب الرزق والنفع لا ينبغي إلا من الله ،كما أن الجنة لا تطلب إلا منه ، قال تعالى (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه)
قال ابن كثير : (فابتغوا) أي اطلبوا .(عند الله الرزق) أي لا عند غيره لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك .
(واعبدوه) أي أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له . الثلاثاء: ١٤٣٧/١١/١٣هـ
(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)) .
[الأعراف : ١٩٩] .

- **قال ابن القيم** : وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) .
- **وقال القرطبي** : وهذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات .
- **وقال السعدي** : وهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس ، وما ينبغي في معاملتهم .

(**خُذِ الْعَفْوَ**) أي : من أخلاق الناس (ما جاء منهم فاقبل منهم) .
قال هشام بن عُرْوة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خذ ما عفي لك من أخلاقهم.

- لا تدقق لا تستقصي عن البواطن ، اعفوا سامح اغفل تغاضى ، اقبل العذر ، سامح من أخطأ ، لا تشق على الناس ابداً ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك .
- **قال السعدي** : (خُذِ الْعَفْوَ) أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم. (تفسير السعدي) .
- ثمرات العفو :

أولاً : أن فيه استجابة لأمر الله تعالى وطاعة لله ورسوله .
قال تعالى (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) .
وقال تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي

الْأَمْرِ) .

وقال تعالى (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

ثانياً : وهو يورث العز في الدنيا والآخرة .

قال ﷺ (وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) رواه مسلم .

ثالثاً : وهو يورث محبة الله عز وجل .

قال تعالى (الذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

رابعاً : يجلب الأجر الجزيل من الله تعالى .

قال تعالى (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

- **قال السعدي** : وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو ، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به ، فكما يحب أن يعفو الله عنه ، فَلْيَعْفُ عنهم ، وكما يحب أن يسامحه الله ، فليسامحهم ، فإن الجزاء من جنس العمل .

خامساً : يوجب عفو الله عن العبد يوم القيامة .

ففي الحديث (كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا فلقي الله فتجاوز عنه) متفق عليه .

سادساً : وهو من صفات الرسول ﷺ .

كما قال عبد الله بن عمرو: إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة (أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح) رواه البخاري .

سابعاً : سبب لمغفرة الذنوب .

قال تعالى (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ثامناً : من صفات المتقين .

قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

وأعظم سبب يقود للعفو عن الناس ، ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته النفيسة (قاعدة في الصبر) الأسباب التي تُعين المسلم على الصبر على أذى الناس قال : الثالث : أنْ يَشْهَدَ العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عفى وصبر، كما قال تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) .

(**وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**) قال البخاري : العرف المعروف .

والمعروف : كل خصلة حميدة جميلة يحبها الله ورسوله ، من الأقوال والأفعال والأعمال .

- **قال السعدي** : أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بِرّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية .

(**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**) أي : إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم ؛ صيانة له عليهم ورفعا لقدره عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطابا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه. (القرطبي) .

● **قال السعدي** : ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وقد أمر تعالى بالإعراض عن الجاهلين .

فقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا) .

قال ابن كثير : أي: إذا سَفه عليهم الجهال بالسّيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً .

وقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

وقال تعالى (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) .

● وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) .

الفوائد :

١- الحث على التخلق بمكارم الأخلاق .

٢- فضل العفو عن الناس .

٣- الحث على تعلم ما يؤدي إلى حسن الخلق .

٤- الحث على الأمر بالمعروف وبكل خير .

٥- من علامات حسن الخلق الإعراض عن الجاهلين بعد قيام الحجة عليهم .

٦- في الآية إشارة إلى أن الإنسان لابد أن يواجه من يسفه عليه ويجهل عليه .

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)) .

[الأعراف : ٢٠٠] .

ثم ذكر تعالى ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى:

(**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ**) أي : إذا نزغك هذا النزغ من الشيطان بأن وسوس لك حتى زين لك أن تعصيه، أو أغضبك حتى خرجت عن حدود الطاعة، وكان هذا النزغ سيؤديك إلى أن تفعل ما لا ينبغي .

● **قال الرازي** : اعلم أن نزغ الشيطان ، عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب بما يسول للإنسان من المعاصي

(**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**) أي : اطلب من الله أن يعيذك من نزغه ، أي: يمنعك ويقيك من هذا الشيطان الرجيم .

(**إِنَّهُ**) جل وعلا .

(**سَمِيعٌ**) لدعائك، سميع لما يوسوس لك من الشيطان .

(**عَلِيمٌ**) بوسوسة الشيطان لك، وبالتجائك إليه، وبكل ما يقوله ويفعله خلقه، فهو الذي بيده إنجاؤك منه .

● في الآية أنه لا ينجي من شيطان الجن إلا الله ، ولهذا أمر بالاستعاذة منه ، لأن الملاينةَ لا تزيدُه إلا طغيانًا، وأنتَ لا تَرَاهُ

لتنتصفَ منه، فلاَ دواءَ له إلا الاستعاذةَ بالله (جل وعلا) من شَرِّهِ.

- **قال ابن كثير** : فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة .

قوله في الأعراف (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين) فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: (وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

وقال تعالى في سورة (قد أفلح المؤمنون) (ادفع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) .

وقال تعالى في سورة " حم السجدة " (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) . (تفسير ابن كثير) .

- **وقال الشنقيطي** : بَيَّنَ فيها أن هذا العلاجَ السماويَّ لاَ يُعْطِيهِ اللَّهُ لكلِّ أحدٍ، بل لا يُعْطِيهِ إلا لِمَنْ جَعَلَ له البختَ الأعظمَ والنصيبَ الأوفرَ عنده؛ ولذا قال تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يعني: ادْفَعْ عداوةَ شيطانِ الإنسِ بالتي هي أحسنُ، ثم قال: (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) أي: صديقٌ في غايةِ الصداقةِ، ثم بَيَّنَ أن هذا لاَ يُعْطَى لكلِّ الناسِ، قال (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ثم قال في شيطانِ الجنِّ (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

فعلينا معاشرَ المؤمنين أن نقدرَ هذا العلاجَ السماويَّ، ونعاملَ مَنْ عَادَانَا وأرادَ ضُرَّنَا من إخوانِنا المؤمنين بالصفحِ والإحسانِ، ومقابلةِ السَّيِّئِ بالجميلِ، حتى تنكسرَ شوكةُ شُؤْمِهِ، فيرجع خَجِلاً صديقًا حميمًا، ونستعيذُ من الشيطانِ بخالقِ السماواتِ والأرضِ لِيَكْفِيَنَا شَرَّهُ.

- تشرع الاستعاذة في مواضع :

منها : عند قراءة القرآن .

قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) .

ومنها : عند حصول نزغ من الشيطان ووسوسة .

قال تعالى (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

ومنها : عندما يوسوس الشيطان للمسلم في معتقده بربه .

لحديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (يأتي الشيطان أحدكم ، فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) متفق عليه .

ومنها : عندما يُلبس الشيطان على الإنسان في صلاته .

لحديث عثمان بن أبي العاص (أنه أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته ، فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً ، قال : فعلت ذلك ، فأذهبه الله عني) رواه مسلم .

ومنها : عند الغضب .

لحديث سليمان بن صُرد قال (استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس ، وأحدهما يسب صاحبه، مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها ، لذهب عند ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ...) متفق عليه .

ومنها : عندما يرى الإنسان رؤيا يكرهها .

لحديث أبي قتادة . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه ، فلينفث عن يساره ثلاثاً ، ويتعوذ بالله من شرها ، فإنها لن تضره .. ، وفي رواية : وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها ... فإنها لن تضره) .

ومنها : عند نزول منزل .

لحديث خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول (من نزل منزلاً ، ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات ، من شر ما خلق ، لم يضره شيء ، حتى يرتحل من منزله ذلك) رواه مسلم .

ومنها : عند دخول الخلاء .

لحديث أنس . قال (كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) متفق عليه .

الفوائد :

١- عداوة الشيطان للإنسان .

٢- يجب الحذر من نزغات الشيطان .

٣- أنه لا نجاة من الشيطان إلا بالالتجاء والاعتصام بالله تعالى .

٤- إثبات صفتين لله تعالى وهما السمع والعلم .

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ (٢٠٢)) .

[الأعراف : ٢٠١ – ٢٠٢] .

(**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ**) يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم :

(**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ**) أي: أصابهم "طيف" وقرأ آخرون: "طائف"، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

(**تَذَكَّرُواْ**) أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب.

(**فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**) أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

- كما قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ).

(**ذَكَرُوا اللَّهَ**) أي : ذكروا وعيد الله على ما أتوا من معصيتهم . (**فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**) أي : إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار .

وقد قال ﷺ (وأتْبِع السَّيِّئة الحَسنَة تَمحُها) .

● **قال ابن رجب** : ولما كان العبدُ مأموراً بالتقوى في السرِّ والعلانية مع أنَّه لابُدَّ أنْ يقع منه أحياناً تفريط في التقوى ، إما بترك بعض المأمورات ، أو بارتكاب بعض المحظورات ، فأمره أنْ يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أنْ يتبعها بالحسنة ، قال الله (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) .

وفي " الصحيحين عن ابنِ مسعود (أنَّ رجلاً أصاب من امرأة قُبلَةً ، ثم أتى النَّبيَّ ﷺ ، فذكر ذلك له ، فسكت النَّبيُّ ﷺ حتى نزلت هذه الآية ، فدعاه فقرأها عليه ، فقال رجل : هذا له خاصة ؟ قال : (بل للناس عامة) . (جامع العلوم والحكم) .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (إن رجلا أذنب ذَنْبًا، فقال: رب إني أذنبت ذنبا فاغفره. فقال الله عبدي عمل ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره. فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رَبا يغفر الذنب وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرَتْ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: عَلِمَ عَبْدَي أنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرَتُ لِعَبْدِي ثُمَّ عَمِلَ ذَنَبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلَتُ ذَنَبًا فَاغْفِرْهُ فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: عَبْدِي عَلِمَ أنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أُشْهِدُكُمْ أنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاء) متفق عليه .

وعن علي . قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيري استَحْلفْتُه،

● **قال ابن رجب الحنبلي** : قال عمر بن عبد العزيز : أيها الناس مَن ألمَّ بذنبٍ فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوَّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك في الإصرار عليها .

ومعنى هذا : أن العبد لا بد أن يفعل ما قدِّر عليه من الذنوب ، كما قال النبي ﷺ :كُتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ... ، ولكن الله جعل للعبد مخرجاً مما وقع فيه من الذنوب ، ومحاه بالتوبة والاستغفار ، فإن فعل فقد تخلص من شر الذنوب ، وإن أصر على الذنب هلك . (جامع العلوم الحِكَم) .

قيل للحسن البصري : ألا يستحيي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ، ثم يستغفر ثم يعود ؟ فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا ، فلا تملُّوا من الاستغفار .

● **قال السعدي** : ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب – تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئا حسيرا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

(**وَإِخْوَانُهُمْ**) أي : وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم

(**يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ**) أي: تساعدهم الشياطين على فعل المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم.

(**ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ**) قيل: معناه إن الشياطين تمد، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك . كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ) قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم.

الفوائد :

١- أنه لا يسلم أحد من وسوسة الشيطان .

٢- على المسلم إذا أصابه شيء من الشيطان أو المّ بذنب أن يتذكر عقاب الله ، وأن يتذكر ثواب الله إذا تركه .

٣- إن الكفرة والفجرة إخوة للشياطين .

٤- أن الشياطين تساعد من تواليه على المعاصي والمنكرات .

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)) .

[الأعراف : ٢٠٣] .

(**وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ**) أي : وإذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا .

(**قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا**) أي : هلا اختلقتها يا مُحَمَّد ؟ واخترعتها من عند نفسك ؟! وهو تهكم منهم لعنهم الله .

(**قُلْ**) لهم يا مُحَمَّد .

(**إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي**) أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم.

- والله (جل وعلا) قد بيّن في سورة بني إسرائيل أنه إنما لم يرسله بخارق مثل خارق الرسل المتقدمة كناقة صالح ونحو ذلك أنه إن فعل ذلك كذبوا فأهلكهم، كما قال: (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا) لأن الله تبارك وتعالى لما اقترحوا هذه الآيات بيّن لهم هنا وفي سورة العنكبوت أنه أنزل لهم آية هي أعظم من جميع الآيات وأكبر، وهي هذا القرآن العظيم، فهذا القرآن العظيم أعظم آية من ناقة صالح، ويد موسى البيضاء، وعصاه التي تكون ثعبانًا.

ومما يدل على أنها أعظم الآيات: أنها تتردد في أسماع الخلائق إلى يوم القيامة، وأنها كلام رب العالمين الذي يعجز عن الإتيان بمثله جميع الخلائق، وقد تحدى الله العرب بسورة من هذا القرآن العظيم في سورة البقرة قال: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وتحداهم بسورة منه في سورة يونس قال: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وتحداهم بعشر سور في سورة هود (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وتحداهم به كله في سورة الطور: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) ثم بيّن في سورة بني إسرائيل أن عامة الخلائق لو تعاونوا واجتمعوا لا يقدرون على الإتيان بمثل هذا القرآن: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) فلما كان معجزة يعجز عن مضاهاتها جميع الإنس والجن، وهي معجزة باقية تتردد في آذان الخلائق إلى يوم القيامة، محفوظة، تَوَلَّى رَبُّ العَالمين حِفْظَهَا، لو أراد أحد أن يزيد في هذا القرآن العظيم نقطة واحدة، أو يغير شكلة حرف لرد عليه الآلاف من صغار أطفال المسلمين في أقطار الدنيا (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ولأجل عظم هذه الآية وكبرها وأنها أعظم الآيات وأكبرها أنكر (جلّ وعلا) على مَنْ طَلَب آية غيرها إنكارًا شديدًا في سورة العنكبوت حيث قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ثم أنكر عليهم طلب آية غيره قال (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً) ، فمن لم يكتف بهذه الآية العظمى عن جميع الآيات فهو جدير بأن ينكر عليه؛ ولذلك قال هنا في أخريات الأعراف لما قال عنهم إنهم قالوا: (لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا) بيّن لهم أن هذا القرآن العظيم أعظم آية، لا ينبغي للإنسان أن يطلب آية غيره حيث قال: (هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فمن لم تهده هذه البصائر والأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والمعجزة العظمى، والهدى والرحمة فلا آية

تهديه ألبتة. وهذا معنى قوله: (قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي) لا أختلق آية ولا أقترح أخرى.

(**هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**) أي: هذا القرآن الذي هو أعظم آية وأنتم تقترحون آيات غيره (بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ) البصائر جمع البصيرة، والبصيرة المراد بها: البرهان القاطع والدليل الساطع الذي يُبْصَر في ضوئه الحق واضحًا لا لبس فيه. فالبصائر: الحُجج القاطعات، والبينات الواضحات التي لا تترك في الحق لبسًا، وواحدها (بصيرة)، ومنه قوله تعالى في أخريات يوسف: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي) .

(**وَهُدًى**) أي : بيان ودلالة ، أي : أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة .

- فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام ، ويطلق هداه على الهدى الخاص ، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء ، وبيان الحق من الباطل ، والنافع من الضار ، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي : بينا الحق على لسان نبينا صالح ، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) . وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه ، ويكون سبب دخوله الجنة ، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) .
- وكون الهدى يُطلق إطلاقًا عامًّا وإطلاقًا خاصًّا إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) مع قوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المثبت له في قوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحَجَّة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﷺ أما الهدى المنفي عنه في قوله (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده (وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شيئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) (إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ) .

فالمراد بالهدى هنا الهدى الخاص ، وهو التوفيق والتيسير للأعمال التي يحبها الله .

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا) .

وقوله (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

(**وَرَحْمَةٌ**) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية ، وبها تحصل السعادة والخير الكثير .

(**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) لأن الله (تبارك وتعالى) منذ أنزل هذا الكتاب المنزل كان واجبًا شرعًا ألا يدخل أحد الجنة كائنًا من كان إلا عن طريق العمل به، وألا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه سبب دخول النار.

الفوائد :

١- أن الرسول ﷺ لا يملك أن يأتي بآية من نفسه .

٢-أن الرسول متبع للوحي الذي ينزل عليه .

٣-فضل هذا القرآن وأنه بصير لمن أراد أن يتبصر بالحق من الباطل .

٤- أن القرآن هداية لمن آمن يهديه لكل طريق صحيح .

٥- أنه كلما قوي إيمان الشخص كانت هدايته أقوى ، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فمن كان إيمانه أقوى كانت هدايته أكثر .

٦- فضل الإيمان .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)) .

[الأعراف : ٢٠٤] .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ) أمر من الله تعالى بالاستماع والإنصات عند تلاوة القرآن الكريم .

الاستماع : هو التدبر في الشيء والإصغاء إليه بتدبر ، والإنصات : هو السكوت وترك الكلام .

- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وَإِذَا قُرِئَ القرآن فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الإنصات المأمور به هو لقراءة الإمام في الصلاة .

والثاني : أنه الإنصات للخطبة .

والثالث : أنه الإنصات لقراءة القرآن على الإطلاق وهو الراجح لوجهين : أحدهما : أن اللفظ عام ولا دليل على تخصيصه ، والثاني أن الآية مكية ، والخطبة إنما شرعت بالمدينة .

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) فيه الاستماع للقرآن والإنصات له سبب للرحمة .

- **قال ابن القيم** : إذا أردْت الِانْتِفَاع بِالْقُرْآنِ فاجمع قَلْبك عِنْد تِلَاوَته وسماعه ، وألْقِ سَمعك واحضر حُضُور من يخاطبه بِهِ من تكلّم بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فانه خَاطب مِنْهُ لَك على لِسَان رَسُوله قَالَ تَعَالَى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد) وَذَلِكَ أَن تَمام التَّأْثِير لما كَانَ مَوْقُوفا على مُؤثر مُقْتَض وَمحل قَابل وَشرط لحُصُول الْأَثر وَانْتِفَاء الْمَانِع الَّذِي يمْنَع مِنْهُ تضمّنت الْآيَة بَيَان ذَلِك كلّه بأوجز لفظ وأبينه وأدلّه على المرَاد فَقَوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى) اشار إِلَى مَا تقدّم من أوّل السُّورَة الى هَهُنَا وَهَذَا هُوَ المؤثّر وَقَوله (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) فَهَذَا هُوَ الْمحل الْقَابِل وَالْمرَاد بِهِ الْقلب الحيّ الَّذِي يعقل عَن الله كَمَا قَالَ تَعَالَى (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّا) أَي حيّ الْقلب وَقَوله (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ) أَي وجَّه سَمعه وأصغى حاسّة سَمعه إِلَى مَا يُقَال لَهُ وَهَذَا شَرط التأثّر بالْكَلَام وَقَوله (وَهُوَ شَهِيدٌ) أَي شَاهد الْقلب حَاضر غير غَائِب قَالَ ابْن قُتَيْبَة اسْتمع كتاب الله وَهُوَ شَاهد الْقلب والفهم لَيْسَ بغافل وَلَا ساه وَهُوَ إِشَارَة إِلَى الْمَانِع من حُصُول التَّأْثِير وَهُوَ سَهْو الْقلب وغيبته عَن تعقّل مَا يُقَال لَهُ وَالنَّظَر فِيهِ وتأمّله فَإِذا حصل الْمُؤثر وَهُوَ الْقُرْآن وَالْمحل الْقَابِل وَهُوَ الْقلب الْحَيّ وَوجد الشَّرْط وَهُوَ الإصغاء وانتفى الْمَانِع وَهُوَ اشْتِغَال الْقلب وذهوله عَن معنى الْخطاب وانصرافه عَنهُ إِلَى شَيْء آخر حصل الْأَثر وَهُوَ الِانْتِفَاع والتذكّر .

الفوائد :

١- الحث على الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن .

٢- أن الاستماع والإنصات للقرآن سبب للرحمة .

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)) .
[الأعراف : ٢٠٥] .

(**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ**) الخطاب للنبي ﷺ ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين.

- **قال الشنقيطي** : إن الله علم نبيه ﷺ آداب الذكر، وجعل له الذكر على نوعين على التحقيق: ذكر نفساني، وذكر لساني، أما الذكر النفساني فهو هذا الذي يذكره العبد في نفسه بالتدبر والتفكر والاعتبار ولا ينطق به. وما قاله ابن عطية (رحمه الله) من أنه لا ذكر إلا بحركة اللسان خلاف ظاهر هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال لنبيه (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ) أي: فيما بينك وبين ربك في نفسك من غير كلام، فتذكر عظمته وكماله وجلاله وصفاته، وما عنده من الثواب لمن أطاعه، ومن العقاب لمن عصاه، ويكون هذا التذكر والتفكر في عظمة الله (جل وعلا) وفي صفاته العظمى، وفي ثوابه وعقابه يكون في نفسك لأجل التضرُّع والخوف.
- **وقال الخازن** : وهاهنا لطيفة وهي أن قوله سبحانه وتعالى (واذكر ربك في نفسك) فيه إشعار بقرب العبد من الله وهو مقام الرجاء لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعاً وخيفة وهذا مقام الخوف فإذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي إيمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فإذا قارب بالموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاؤه على خوفه.

(**تَضَرُّعاً**) أي : تذللاً وتخشعاً وتواضعاً .

(**وَخِيفَةً**) أي : خوفاً .

(**وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**) هذا الذكر اللساني ، فيستحب أن يكون جهراً لا بليغاً ولا مخافتة .

- **قال ابن كثير** : وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء و[لا] جهرًا بليغًا؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال (رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: "أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا؛ إن الذي تدعونه سميع قريب) .

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلا بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة (وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) .

(**بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**) الغدو: أوائل النهار، والآصال: أواخره. فالآصال: من العصر فما وراءه إلى الليل. والغدو: من أول النهار.

قال بعض العلماء: كان قبل فرض الصلاة ليلة المعراج يصلون صلاتين: آخر النهار، وأوله، وأنه هو المراد هنا.

وقال بعضهم: خص هذين الوقتين من النهار – أول النهار وآخره– لفضلهما.

قال بعض العلماء: الذِّكْر بالغدو: صلاة الصبح، وبالآصال: صلاة العصر. والله تعالى أعلم، وهذا معنى قوله (بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ) وقيل : المعنى جميع الأوقات وعبر بالطرفين المشعرين بالليل والنهار .

- **قال الخازن** : وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله .

وقيل : إن أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر .

وقيل : لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشتغلاً بما يقربه إلى الله من صلاة أو ذكر.

وقيل : لأنهما وقتا فراغ فيكون الذكر فيهما ألصق بالقلب ، وقيل : لأنهما وقتان يتعاقب فيهما الملائكة على ابن آدم ، وقيل : ليس المراد التخصيص بل دوام الذكر واتصاله أي اذكر كل وقت .

- **وقال القاسمي** : فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد ، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش .

(**وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**) عن ذكر الله تعالى .

الغفلة لغةً: عدم الانتباه وإحضار الفكر.

وشرعاً: الانخراط في الحياة الدنيا، ونسيان أمور الآخرة جزئياً أو كلياً.

قال القاسمي : قوله تعالى (وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) أي : من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه ، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية.

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وَلاَ تَكُنِ مِّنَ الْغَافِلِينَ) يحتمل وجهين :

أحدهما : عن الذكر.

والثاني : عن طاعته في كل أوامره ونواهيه ، قاله الجمهور .

قال ابن القيم : وكل شيء له صدأ ، وصدأ القلب الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة .

- من المعلوم أنه ﷺ لا يغفل عن ذكر ربه ولكنه يُؤمر ويُنهى ليُشرِّع لأُمته على لسانه. وفي هذه الآية الكريمة نهي للمسلمين عن الغفلة عن ذكر الله (جل وعلا)، فعلينا معاشر المسلمين ألا نغفل عن ذكر الله .

- **ولنحذر من أسباب الغفلة :**

فالغفة من الصفات المذمومة التي ذمها الله في كتابه .

قال تعالى عن الكفار (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون) .

وقال تعالى عن فرعون (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُون * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون) .

وقد نهى الله تبارك وتعالى نبيه عن الغفلة، قال تعالى (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِين) .

وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ

تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

وقد تكون الغفلة عن الله عقوبة من الله للعبد على معصيته .

قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُون) .

روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن عمر وأبي هريرة رضي اللهُ عنهما أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ (لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِين) .

● أسباب الغفلة حتى يجتنبها المؤمن:

أولاً : الانقطاع الكثير عن زيارة القبور، وتذكر الموت والدار الآخرة .

قال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِر) .

قال ابن كثير رحمه الله: "أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها، قال تعالى :﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور) .

ثانياً : طول الأمل .

قال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع ...

وقال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا

قال الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

قال الفضيل : من الشقاء طول الأمل ، ومن النعيم قصر الأمل .

ثالثاً : حب الدنيا والتعلق بها .

قال تعالى : (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

وقال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

رابعاً : الانقطاع عن مجالس الذكر وعدم المحافظة على الأذكار الشرعية في الصباح والمساء وعند دخول المسجد والخروج منه وعند الدخول إلى المنزل والخروج منه وغير ذلك من المواضع .

قال تعالى (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِين) .

قال ابن القيم رحمه الله: "على قدر غفلة العبد عن الذكر يكون بعده عن الله .

وقال أيضاً: "إن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليختر العبد أعجبها إليه وأولاها به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة .

● وعمارة أوقات الغفلة مستحب ومحبوب لله، ولذلك قال ﷺ في صيام شعبان (ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان).

● **قال ابن رجب رحمه الله** : في إحياء الوقت المغفول عنه بالطاعة فوائد :

منها : أنه يكون أخفى ، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل .

ومنها : أنه أشق على النفوس ، وأفضل الأعمال أشقها على النفوس ، وسبب ذلك أن النفوس تتأسى بما تشاهده من أحوال أبناء الجنس ، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعاتهم كثر أهل الطاعة لكثرة المقتدين بهم ، فسهُلت الطاعة ، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس ، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ (للعامل منهم أجر خمسين منكم ، إنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون) .

ومنها : أن المنفرد بالطاعة بين أهل المعاصي والغفلة قد يدفع به البلاء عن الناس كلهم ، فكأنه يحميهم ويدافع عنهم .

الفوائد :

١- الحث على ذكر الله تعالى .

٢- الحث على ذكر الله متضرعين خائفين .

٣- أن الذكر لا يشرع فيه رفع الصوت .

٤- الحث على ذكر الله في كل وقت ، وخاصة وقت النشاط والرغبة .

٥- التحذير من الغفلة عن ذكر الله وطاعته .

(إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)) .

[الأعراف : ٢٠٦] .

(إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ) وهم الملائكة .

- **قال القرطبي** : يعني الملائكة بإجماع.
- **قال في التسهيل** : (إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ) هم الملائكة عليهم السلام ، وفي ذكرهم تحريض للمؤمنين وتعريض للكفار

(لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) بل خاضعون متذللون عابدون لربهم تعالى .

- **قال ابن عاشور** : ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك ، وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنهم على النقيض من أحوال الملائكة المقربين ، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة .

(وَيُسَبِّحُونَهُ) أي : ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله .

(وَلَهُ يَسْجُدُونَ) قيل : يصلون. وقيل : يَذِلّون ، خلاف أهل المعاصي.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (وله يسجدون) للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره ، وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره ، والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً.
- **قال ابن كثير** : بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، عز وجل، كما جاء في الحديث: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأوَل، ويتَراصُّون في الصف".

وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجة، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدات القرآن .

وصف الله الملائكة بأحسن صفات العبودية، فقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون) .

وتمام عبوديتهم لله (أنهم لا يعصون الله ما أمرهم .

قال تعالى (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون) .

أنهم يخافون الله ويخشونه .

قال تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون) .

وقال تعالى (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون) .

قال رسول الله ﷺ (ألا تصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها ؟ قالوا: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال : يُتمُّون الصف الأول فالأول، ويتراصُّون في الصف) رواه مسلم .

وقال رسول الله ﷺ في ليلة المعراج (... ثم رُفِع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم) رواه مسلم .

الفوائد :

١- إثبات الملائكة .

٢-عبادة الملائكة لربها وكثرة طاعتها له .

٣- خضوع الملائكة لله تعالى .

٤- ذم من يتكبر عن طاعة الله .